

**THE BOOK WAS  
DRENCHED**

UNIVERSAL  
LIBRARY

**OU\_190321**

UNIVERSAL  
LIBRARY









# النظريات

بقلم المرحوم  
مصطفى لطفى المنفلوطي

## الجزء الثاني

الطبعة الخامسة

أول نوفمبر سنة ١٩٢٥

« حقوق الطبع محفوظة »

يطلب من مكتبة الهلال بشارع النجالة بمصر

المطبعة الرحمانية  
بالخرنقش بمصر رقم ٣٥



## البيان

قال لى أحدُ الوزراء ذات يوم « إني لتأتيني أخيانا  
 رِقَاعُ الشكوى فأكاد أهملها لما تشتملُ عليه من الأساليب  
 المنفرة ، والكلماتِ الجارحة لولا أن الله تعالى يلهمني نياتِ  
 كاتبها وأين يذهبون ، ولولا ذلك لكنتُ من الظالمين ،  
 ذلك ما يراه القارئُ في كثير من المخطوطات التي  
 يخطُّها اليومَ كاتبوها في الصحف وِرِقَاعِ الشكوى  
 والكتب الخاصة ، والمؤلفات العامة

هزلٌ في موضع الجد ، وجدٌ في موضع الهزل ،  
 وإسهابٌ في مكان الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ،  
 وجهلٌ يفرِّق ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ،  
 والاستعطاف والاستخفاف ، وقصورٌ عن إدراك منازل  
 الخطاب ومواقفه بين السُّوقَة والأمرء ، والعلماء والجهلاء ،

حتى أن الكاتبَ لِيُقيمُ في الشوكة يشاكها ، مَناحةً لا يقيمها  
 في الفاجعة يُفجعُ بها ، ويكتبُ في الحوادث الصغار ،  
 ما يعجزُ عن كتابة مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب  
 صديقَه ، بما يخاطب به عدوه ، ويناجي أجيرَه ، بمثل ما يناجي  
 به أميرَه

ذهب الناسُ في معنى البيان مذاهبَ متشعبة ، واختلفوا  
 في شأنه اختلافاً كثيراً ، ولا أدري علامَ يختلفون ، وأين  
 يذهبون ، وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه  
 وجوهها ، ولا تتشعب مسالكها

ليس البيانُ إلا الابانةُ عن المعنى القائم في النفس ،  
 وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً  
 لا يتجاوزُه ، ولا يقصر عنه ، فإن عُلقتْ به آفةٌ من تينك  
 الـافتين فهو العي والحصر

جهل البيان قومٌ فظنوا أنه الاستكثارُ من غريب اللغة  
 ونادر الأساليب ، فأغصوا بها صدورَ كتابتهم ، وحشوها

في خلوقها حشوا يَقبض أوداجها ، ويحبس أنفاسها ، فإذا  
 قُدِّر لك أن تقرأها وكنت ممن وهبهم الله صدراً رخباً ،  
 وفؤاداً جلدّاً ، وجناناً يحتمل ما حُمِّل عليه من آفات الدهر  
 وأرزائه ، قرأتَ متنّاً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً  
 مضطرباً من كتب المترادفات

وجعله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسطُ  
 في الحديث ، واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاهُ حيث  
 وقع ، فلا يزالون يجترّون بالكلمة اجترار الناقه بِجَرَّتِها ،  
 ويتمطّقون بها تمطّق الشفاه بريقها ، حتى تُسفّ وتبذّل ،  
 وحتى ماتكاد تسيغها الخلق ، ولا تطرف عليها العيون ،  
 وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

يُخيّل إلى أن الكتاب في هذا العصر يكتبون لانفسهم  
 أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبهُ شيء  
 بالأحاديث النفسية التي تتلجّج في صدر الانسان حينما  
 يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فاني لا أكاد أرى بينهم من

يحكم وضعَ فمه على أذن السامع ، وَيَنْفُثُ فِي رُوعِهِ مَا يَرِيدُ  
أَنْ يَنْفُثَ مِنْ خَوَاطِرِ قَلْبِهِ ، وَخَوَالِجِ نَفْسِهِ

الكلام صلةٌ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ يُفْهَمُ ، وَسَامِعٍ يَفْهَمُ ، فَبِمَقْدَارِ  
تِلْكَ الصَّلَةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، تَكُونُ مَنْزِلَةُ الْكَاتِبِ مِنَ  
الْعُلُوِّ وَالْإِسْفَافِ ، فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَكُونَ كَاتِبًا فَاجْعَلْ هَذِهِ  
الْقَاعِدَةَ فِي الْبَيَانِ قَاعِدَتَكَ ، وَاحْرَصِ الْحَرَصَ كُلَّهُ عَلَى أَنْ  
لَا يَخْدَعَكَ عَنْهَا خَادِعٌ فَتَسْقُطَ مَعَ السَّاقِطِينَ

مَا أُصِيبَ الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ بِمَا أُصِيبَ بِهِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ  
الْجَهْلِ بِأَسَالِيبِ اللُّغَةِ ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْكَاتِبُ  
أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا عَرَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ  
فِي أَوْصَافِهِمْ وَنَعَوَاتِهِمْ ، وَتَصَوُّرَاتِهِمْ وَخِيَالَاتِهِمْ ، وَمَحَاوِرَاتِهِمْ  
وَمَسَاجِلَاتِهِمْ ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كَانُوا يَعَاتِبُونَ  
وَيُؤَنِّبُونَ ، وَيَعْظُونَ وَيَنْصَحُونَ ، وَيَتَغَزَّلُونَ وَيَنْسَبُونَ ،  
وَيَسْتَغْطَفُونَ وَيَسْتَرْحَمُونَ ، وَبِأَيَّةِ لُغَةٍ يَحَاوِلُ أَنْ يَكْتُبَ  
مَا يَرِيدُ إِنْ لَمْ يَسْتَمْدْ تِلْكَ الرُّوحَ الْعَرَبِيَّةَ اسْتِمْدَادًا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ

جانحته حتى يتدفقَ مع المداد من أنبوب براعته على  
صفحات قرطاسه

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظُ وابنُ المقفع والصاحبُ  
والصائبُ والهمذاني والخارزمي وأمثالهم من كتاب العربية  
الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكتّابون في هذه الصحف  
والأسفار فأشعرُ بما يشعُرُ به المتنقلُ دفعةً واحدة من  
غرفة مُحكمة النوافذ ، مسبلة الستور ، الى جوٍّ يسيل قرا  
وَصرا ، ويتفرق ثلجاً وبرداً

ذلك لأننى أقرأ لغة لاهى بالعربية فأغبطُ بها ، ولا  
هى بالعامية فالهوَ بأحماضها ومجونها

رأيت أكثر الكتّابين فى هذا العصر بين رجلين ،  
رجلٌ يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما  
يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثة ، والروايات المترجمة ،  
فاذا علقتْ بنفسه تلك الملكةُ الصحفية ألقي بها فى رُوع  
قارئ كتابته أدونَ مما أخذها ، فيُدلى به آخذها



كذلك الى غيره أسمع صورة وأكثر تشويهاً، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية الا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كسر الغداة ومر العشي، وطالب قصارى ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، ورسمها واملاؤها، ومترادفها ومتواردها، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عندنا علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة الى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى اليه بسرها، ويفضى له بلبها وجوهرها، أكثر من حاجته الى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيد منها الا من أستاذ كملت أخلاقه، وسمت آدابه، كذلك طالب البيان لا يستفيدة إلا من أستاذ مبين

ولا يُقدَفَن في رُوع القارىء أنى أحاول استلاب فضل الفاضلين، أو أنى أريد أن أنكر على شعراء الامة وكتابها

ما وهبهم الله من نعمة البيان ، فها هذا أردتُ ، ولا إليه  
ذهبت ، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ،  
 وخمسة من الشعراء البارعين ، قليلٌ في بلد يقولون عنه  
إنه مهدُّ اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصب .

وبعد فاني لا أرى لك يا طالبَ البيان العربي سبيلا  
إليه إلا مزاولة المنشئات العربية منشورها ومنظورها ،  
والوقوف بها وقوف المثبت المتفهم ، لا وقوف المتنزه  
المتفرج ، فان رأيت أنك قد شغفت بها ، وكلفت بمعاودتها ،  
والاختلافِ إليها ، وأن قد لذَّ لك منها ما يلد للعاشق من  
زورة الطيف في غرّة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذت من  
البيان بنصيب ، فامض لشأنك ، ولا تلوع على شيء مما  
وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد

ولا تحدثك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشئات  
العربية لأسلوبٍ تسترقه ، أو تركيب تختلسه ، فاني

لَا أُحِبُّ أَنْ تَكُونَ سَارِقًا وَلَا مُخْتَلَسًا ، فَانْ فَعَلْتَ لَمْ يَكُنْ  
 دَرَكٌ دَرَكًا ، وَلَا بَيَانٌ بَيَانًا ، وَكَانَ كُلُّ مَا أَفَدْتَهُ <sup>(١)</sup> أَنْ  
 تَخْرُجَ لِلنَّاسِ مِنَ الْبَيَانِ صُورَةٌ مَشْوَهَةٌ لَا تَنَاسُبُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا ،  
 وَبُرْدَةٌ مَرْقَعَةٌ لَا تَلَاوُمُ بَيْنَ أَلْوَانِهَا ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ مُحْصَلُ  
 لِنَفْسِكَ مَلَكَةٌ فِي الْبَيَانِ رَاسِخَةٌ تَصْدُرُ عَنْهَا آثَارُهَا عَفْوًا  
 بَلَا تَكْلَفٍ وَلَا تَعْمَلُ ، وَإِلَّا كَانَ شَأْنُكَ شَأْنَ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ  
 الَّذِينَ عَلِقَتْ ذَاكِرُهُمْ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَنشُورِ الْعَرَبِ وَمَنْظُومِهَا  
 فَفَقْنَعُوا بِهَا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا مِنَ الْبَيَانِ إِلَى صَمِيمِهِ ،  
 فَذَا جَدَ الْجِدُّ وَأَرَادَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا  
 تَحْتَاجُ بِهِ نَفُوسُهُمْ رَجْعًا إِلَى تِلْكَ الْمَحْفُوظَاتِ وَنَبَشُوا  
 دِفَائِئَهَا ، فَانْ وَجَدُوا بَيْنَهَا قَالِبًا لِذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي يَرِيدُونَهُ  
 انْتَزَعُوهُ مِنْ مَكَانِهِ انْتِزَاعًا ، وَحَشَرُوهُ فِي كِتَابَتِهِمْ حَشْرًا ،  
 وَإِلَّا تَبَذَّلُوا بِاسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيِبِ السَّاقِطَةِ الْمَشْنُوعَةِ ، أَوْ  
 هَجَرُوا تِلْكَ الْمَعَانِيَ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى غَيْرِهَا ، لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا

وبين سابقاتها ولا حقائقها ، فلا بد لهم من إحدى  
السواتين ، إما فساد المعاني واضطرابها ، أو هُجْنة  
التراكيب وبشاعتها

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق  
ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية  
أضيقُ من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجأوا  
إلى التبذُل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة  
العربية أرحبُ صدرًا من أن تضيق بهذه المعاني العامة  
المطروقة بعد ما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل  
لغيرها باحتماله ، وقدّرت من هواجس الصدور وخوارج  
النفوس على ماعيت به اللغاتُ القادرات

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن  
في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها ، والتغفل  
في أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البِلَّة التي لا تُنلج  
صدرًا ، ولا تُشفي أَوامًا

وكل ما يُعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام  
 لبعض هذه الهنات المستحدثة ، وهو في مذهبي أهونُ  
 الذنوب وأضعفها شأنًا ، مادمنّا نعرف وجه الحيلة في علاجه  
 بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب إن عجزنا  
 عن الاشتقاق ، فالأمر أهون من أن نحار فيه ، وأحقر  
 من أن نقضى أعمارنا في العراك ببابه ، والمناظرة في اختيار  
 أقرب الطرق إليه ، وأجداها عليه

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن  
 تزاوله من المنشئات العربية ، فليس كلُّ متقدم ينفعك ،  
 ولا كل متأخر يضرّك ، ولا أحسبُك إلا واقفًا بين يدي  
 هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأنَّ حُسن  
 الاختيار طَلِبَةٌ تتمر بين يديها الآمال ، وتقطعُ دونها أعناق  
 الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف  
 الناسُ منهم ذوقًا سليمًا ، وقرينة صافية ، وملكة في الأدب ،  
 كمِصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله

ذكاء وفطنة ، وقريحة خصبه لينة ، صالحة لنماء مايلقى إليها  
من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان  
زاهرة ، يتناثر منها منشور الأدب ومنظومه ، تنثر  
الورود والأنوار ، من حديقة الازهار



## السريرة

لو كُشف للإنسان عن سريرة الإنسانِ لرأى منها  
ما يرى الأعمى من غرائب هذا الكونِ وعجائبه حين  
تدركه رحمةُ الله بعد طول محنته فيرتدّ بصيراً

تترأى لك السريرةُ في ظاهرها كأنها أديم السماء ،  
أو صفحةُ الماء ، فإن بدا لك أن تكتمنه باطنها فإنك غير بالغ  
من ذلك ما رباك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء ،  
فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتفوصَ في أعماق  
الماء ، فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيثريث ريثما تلمج الشمسُ  
لعابها من نافذة غرفته ، فاذا هو ما تجّ وضاء يروح ويغدو  
رواح السانحات ، وغدو البارحات ، ويعجز عن رؤية

الجرائم فيستمعين عليها بمنظار يحسُّها له ويدنيها منه حتى  
ليكاد يلمسها بيمينه ، ويمعجز عن اكتناه السريرة فلا  
يجد الى الوصول اليها سبيلا

وقف آدمُ أمام باب السريرة يوم الشجرة يغالج فتحة  
فاستمعى عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فمعجزوا  
عجزه ، فليجَّ بهم الشوق اليها لجأجا طار بعقولهم ، وذهب  
بألبابهم ، فتراموا على أقدام المنجمين والعرافين لثما وتقييلا ،  
وابتدروا النُصبُ والتمائيل ركوعا وسجوداً ، وهاموا  
بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيامً الابل العطاش  
بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريرة ، والسريرة كنز  
مرصود لا تنجع فيه النفثات ، ولا تجدى معه العزائم والرُقى  
إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلالؤ الكوكب  
في جنح ليل مُبرَد ، ويفتر ثغره عن الأنوار ، افترار  
الالكلام عن الأزهار فتحسده على نعمته وسعاده ، وتتمنى  
أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وأن بين جنبيه



لو علمتَ هُمَّا يعتلج ، وقلبًا يدب فيه اليأسُ ديبَ الآجال  
في الأعمار ، وكبدًا مقروحة لو عرضها في سوق الهموم  
والأحزان ، ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان

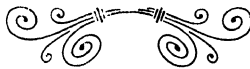
وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحلو ،  
وثره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك ، وإعظامه لك ،  
واعجابه بشمائلك ومحاسنك ، وتشيعه لأرائك ومذاهبك ،  
ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو  
تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك <sup>(١)</sup> بجميع ما تملك يدك  
ففررتَ من وجهه فرارك من وجه الاسود السالخ <sup>(٢)</sup>  
ووددت بجدع الانف أن لا يصفح وجهه وجهك من بعدها  
حتى في جنات النعيم

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبُدت  
الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات وكان  
للكون نظامٌ غيرُ هذا النظام ، وللتاريخ صفحاتٌ غيرُ  
هذه الصفحات

(١) السليك رجل معروف بسرعة عدوه في العرب (٢) ذكر الحيات

لو علم الجندُ أنهم لا يحاريون إلا ليضعوا « نيشاناً »  
 في صدر القائد . أو جوهرةً في تاج الملك ، وأهمهم كثيراً  
 ما يكونون مخدوعين في مواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل  
 الدين ، لما دالت الدول ، ولا انتقلت التيجان ، ولضعف  
 ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بنى الانسان ، ولو علم  
 جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم  
 عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية  
 والأحلام النفسية ، ويملاؤن قلوبهم بالخواف والمزعجات  
 ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمرن غال ، لضعفت أصوات  
 النواقيس ، وقصُرَت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطيالس  
 والقلائس جوعاً وسفياً ، ولأصبحت حبات السُّبح أ كسد  
 في سوق الأديان من بحر الآرام ، في سوق الأنعام ، ولو  
 علم الابنُ أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته ،  
 وانه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ،  
 ويفخرُ بقوة عقله وحسن تديره في نخره بذكائه ونبوغه ،

لضعفت صلةُ الودينِنه وبينه، ولما كانت بين حلقات  
الانساب هذه الوشائجُ ، وتلك الأواصر ، ولو علمت  
الزوجةُ أن زوجها يحب منها جسمها أكثرَ مما يحب  
نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ، ويُعدُّ ليومها الساعاتِ  
والأيام ليستبدلَ بها خيرَ أمنها ، لما وثقت بوده ، ولا اطمأنت  
لعهده ، ولما كان للمنازل سقوفٌ تُظِلُّ الاسرةَ والمهاد



## زيد وعمر

أراد داود باشا أحد وزراء تركيا في العهد القديم أن يتعلم اللغة العربية فأحضر أحد علماءها وأخذ يتلقى عنه علومها عهداً طويلاً فكانت نتيجةُ علمه ماستراه

سأل شيخه يوماً ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرح به هذا التبريح المؤلم؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلةً من يضعف عن الانتقام لنفسه، وضرب ضاربه ضربةً تقضى عليه القضاء الأخير؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً، ويضرب الأرض بقدميه فأجابه الشيخ ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي، وانما هي أمثلة يأتى بها النحاة لتقريب

القواعد من أذهان المتعلمين ، فلم يعجبه هذا الجواب ،  
وأكبر أن يعجزَ مثلُ هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه  
القضية فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل إلى نحوي آخر  
فسأله كما سأل الأول ، فأجابه بمثل جوابه فسجنه كذلك ، ثم  
ما زال يأتي بهم واحداً بعد واحد حتى امتلأت السجونُ  
وأقفرت المدارسُ ، وأصبحت هذه القضية المشنومة الشغلَ  
الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له أن  
يستوفد علماء بغداد فأمر باحضارهم فحضروا ، وقد علموا  
قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء  
بمكانة من الفضل والحِذْق والبصر بموارد الأمور ومصادرهما ،  
فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال  
بعينه ، فأجابه رئيس العلماء إن الجناية التي جناها عمرو ويا مولاى  
يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال ،  
فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجهه ، وأقبل على  
محدثه يسأله ماهى جنايته ؟ فقال له إنه هجم على اسم مولانا

الوزيرِ واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيدا  
يضر به كل يوم جزاء وقاحته وفضوله « يشير الى زيادة  
واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود » فأعجب  
الوزيرُ بهذا الجواب كل الاعجاب ، وقال لرئيس العلماء  
أنت أعلم من أقلت الغبراء ، وأظلت الخضراء ، فاقترح على  
ماتشاء ، فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين  
فأمر باطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغدادَ بالجوائز  
والصلوات

أحسن داودُ باشا في الاولى وأساء في الاخرى ، ولو  
كنتُ مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى  
أخذ عليهم عهداً وثيقاً أن يتركوا هذه الأمثلة البالية الى  
أمثلة جديدة مستطرفة ، تؤنس نفوس المتعلمين ، وتذهب  
بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفود من منظر هذه الحوادثِ  
الدموية بين زيد وعمرو ، وخالد وبكر

لا ينال المتعلمُ حظه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه

على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع  
لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من  
الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم، وافتن له  
في إيرادها افتناناً يقرب إلى ذهنه تلك الصلة بين العلم  
والعمل، ويسهل له الوصول إلى القدرة على تلك المطابقة،  
وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن  
القدرة على المطابقة لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف  
عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم، فلو أنك  
أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية  
والناطقية، وفي النحو عن ضرب زيدٍ عمرًا، وقتل خالدٍ  
بكرًا، وفي البيان عن تشبيه زيدٍ بالبدر، واستعارة الاظافر  
للغنية، وفي الصرف عن فعلٍ وأفعوعل، لو وجدت في نفسه  
من الجهد والمشقة وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك  
على أعوام طوالٍ قضاها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل  
من بعدها على طائل

علامَ يتعلمُ الطالبُ النحوَ والصرفَ إن عجزَ عن أن  
 يقرأَ صحيحاً في كل كتاب وكل صحيفة ، وعلامَ يتعلمُ علومَ  
 البلاغة إن عجزَ عن معرفة أسرار الكلام وأوجهِ بلاغته ،  
 وفهمِ المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الابانة عما يدور  
 في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلقٌ ولا اضطراب ، وعلامَ  
 يتعلمُ المنطق إن عجزَ عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها  
 في كل ما يعرض عليه منها ، وإن لم يكن الموضوعُ الانسانَ ،  
 والمحمولُ الحيوانَ الناطقَ

عجيب جداً أن يفهم الصانع الأسمى أن العلم للعمل ،  
 فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحِداة  
 إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح ، وأن يجهل المتعلمُ هذه القضية  
 الضرورية ، فلا يهيمه من العلم إلا الاستكثارُ من المعلومات  
 والقواعد ، وإن عجزَ بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع  
 بها في مواطنها

ما دامت مدرسةُ الأزهر على هذه الحال من



أُسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام  
أن ينبغَ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة  
انتفاع أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها، فويلٌ  
للعلم من العلماء



## ابو الشمقمق<sup>(١)</sup>

إن كثيراً من الفقراء لم تمتد يدُ الفقر الى رءوسهم ،  
كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يُدركون كما يدركُ الاغنياء ،  
ويفهمون كما يفهمون ، وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء  
الرءوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرءوس

ولقد جلستُ في منزلى صبيحة يوم مع قوم من الماديين  
الذهبيين الذين ملأ المالُ فراغَ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء  
وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاك  
الاحاديثِ الذهبية ما بين تاجرٍ يعجب بصفقته الراجعة ،  
وزارعٍ يفخر بقله ما أعطى وكثرة ما أخذ ، وآخر يعلل  
نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الاسعار ، والكل متفقون  
على أن السعادة التي أظلمت أجنتها في هذا العهد الأخير

(١) هو في الاصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر  
( ٤ ن — النظرات )

عهدِ العدلِ والانصافِ عهدِ الحريةِ والمساواةِ عهدِ الرقيِّ  
والعُمرانِ هي أشبهُ شيءٍ بسعادةِ المتقينِ في جناتِ النعيمِ  
كل هذا وأبو الشمقمق جالسٌ ناحيةً يخزر طرفه ،  
ويهزُّ رأسه ، ويصعدُّ أنفاسه : ويمضغ أضراسه ، ويئنُّ من  
أعماقِ قلبه أنينًا خفيًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر: —  
فيالك بحرًا لم أجد فيه مشربا

على أن غيري واجدٌ فيه مسبحا  
فما هو إلا أن قضوا لبائتهم من الكلام المملول ،  
والحديثِ المعاد ، حتى قاموا يطيطون مع الآمال ، وراء  
الأموال ، فأشرتُ إلى أبي الشمقمق أن يتخلف ففعل ،  
فسألتُه مالك لم تشرك معنا فيما كنا فيه؟ فأجاب : إنى أكره  
الفضولَ في الحديثِ وقد فرق المقدارُ بيني وبينكم في المال ،  
فلا أشاركُ معكم في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق  
حديثُ النهضةِ الحديثةِ التي نهضتها الأمةُ المصرية في عهدِها  
الأخيرِ وأنت فردٌ من أفرادها ، وجزء من أجزاء

جسمها ، فهو ضُها نهوضُك ، وسقوطها سقوطك ، والامة  
كما تعلم هي الفردُ المتكرر ، والواحدُ الدائر ، فأنت الامةُ  
والامة أنت ، فقال والله لا أدري أتكلمنى بلسان الصوفية؟  
ولستُ بصوفى ، أم بلغة الفلاسفة ؟ ولأفهم للفلسفة معنى ،  
وكأنك تقصدنى بالفرد المتكرر ، والواحد الدائر ، فإن كنت  
تريد أننى فردٌ متكرر كثيرُ الأشباه والأمثال فى العوز  
والفاقة ، وواحدٌ لا سندلى ولا عضد ، ودائرٌ فى مدارج الطرق  
ومعابر السبل ، فقد أصبت وأحسن ، وإن كنت تريد معنى  
غير ذلك ، فأنا لأفهم إلا كذلك ، فهل لك أن تعفينى من الجواب  
على هذه المعميات وتزّن كلامك على مقدار عقلى ، وتحديثى  
فيما يتناولهُ سمعى وبصرى ، فقلتُ أنا لم أخرج بك عن المألوف  
المعروف ، ولا أريد إلا أن الامة ليست فى الخارج شيئاً  
غير أفرادها ، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والاشقياء  
أبناءؤها ، وحسبك أن ترى تقدم الامة المصرية فى ثروتها  
وعمرانها ، وبذخها وترفها ، وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد

بسعادتها ، وتنهأ بهنائها ، فقال إن لم تُبين لى سهمى من  
 هذه السعادة ، ونصيبى من ذلك الارتقاء ، فلا أصدق سعادةً  
 ولا أتصور ارتقاء ، ومادمت أرى أن لى هُويّةً مستقلة عن  
 هُويّة سواى من السعداء ، ويدأ تقصر عما تتناولهُ أيديهم ،  
 وبطنأ لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أرى  
 واحداً بينهم يلبس معى ردائى الممزق ، وقيصى المخرق ،  
 ويقاسمنى همى ، ويشاطرُننى فقرى ، فهيهات أن أسعد  
 بسعادتهم ، وأسر بسرورهم ، وهيهات أن أفهم معنى قولك  
 أنت الأمة ، والأمة أنت ، فقلت إن الغيث اذا نزل يسقى  
 الخصب والجديب ، والنجد والوهد ، وينتظم من الارض  
 الميت والحى ، فقال كل سماء فيها هذا الغيثُ إلا سماء  
 مصر ، فانى أراه

كبدِر أضاء الأرضَ شرقاً ومغرباً

وموضع رجلى منه أسودٌ مظلم

مالى وللروض الذى لا أستنشقُ روحه وريحانه ،

والقصر الذى لا أدخله مالكا ولا زائرا ، وهب أن الطرق  
 مفروشة بالحريز والديباج ، لا بالحصى والمدر ، فهل أبقي  
 الدهر من حاسة اللمس شيئا فاستطيع أن أميز بين خشن  
 الملمس وناعمه ومعوج الارض ومستقيمها . وهبني إذا مشيت  
 خضت في بحر ما تبحر بأنوار الكهرباء فهل يغني ذلك عن شيئا ،  
 وهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سوائى ، ورنانة حالتي ،  
 لأعين الناظرين ، ولقد حُبب الى الظلام حتى تمنيت دوامه  
 لألبس من ثوبه الطبيعى ما يكفيني مؤونة الرق والفتق ،  
 والتمزيق والترقيع ، وبعد فما هو الارتقاء الذى تزعمه وتزعم  
 أنه يعينى ويشملنى ، هل ترقى غرائز الاحسان فى نفوس  
 المحسنين ، وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء ،  
 فقلت نعم ، أما ترى الأموال التى يتبرع بها الأغنياء  
 للجمعيات الخيرية والتى ينفقها المحسنون على بناء المدارس  
 والمكاتب والمستشفيات ، فقال ان هذه التى تسميها مكارم ،  
 لا يسميها أصحابها إلا مغارم ، أجاهم اليها التملق للكبراء ،

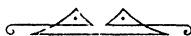
وحبُّ التقرب من الرؤساء والطمعُ في الزخرفِ الباطل ،  
والجاء الكاذب

مالي وللمدارس والمستشفيات ، وأنا جوعانٌ خبز  
لا جوعان علم ، ولا مرض عندي الا مرض الفاقة ، فهل  
أجدُ في المدارس خبزاً أو في المستشفيات دواءً كذلك الدواء  
الذي وصفه أحدُ الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه  
وشكا إليه مرضاً فعرف سِرَّ مرضه ، فأعطاه عُلبةً وكتب  
على غطاءها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقيرُ  
وفتحها وجد فيها عشرةَ دنانير

أنا رجل ضعيفُ البصر ضعيفُ القوة كما ترى ، فلا  
قدرة لي على العمل ، وعندى صِبيةٌ صغار ليس بينهم من  
يستطيع عملاً ، أو يحسنُ صنْعاً ، ولقد كان لي في الزمن الذي  
تذمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه ، منفسحٌ عظيم في منازل  
المحسنين ، وموردٌ نثير من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل  
من نخنن الاغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين ، أما اليوم

فاني أيتُ طاويًا وأصبح شاكيًا، وأغدو راجيًا، وأروحُ  
يائسًا

وهنا أرسل من جفنيه دمعَةً ليست بأول دمعَةٍ  
أرسلها على ردائه ولكنها أحرُّ من سابقاتها، لأنه لم يبك  
في غير خلوته غير هذه المرة  
ثم نهض ومد يده إلى مودعا فسحتُ يميني دمعَةٍ  
واحدة من دموعه الكثيرات





## دورة الفلك<sup>(١)</sup>

أيها القصرُ : أين الكوكبُ الزاهرُ الذى كان يتنقل  
فى أبراجك ، أين النسرُ الطائر الذى كان يخلق فى أجوائك ،  
أين الملك القادر الذى كان يطلعُ شمساً فى صباحك ، وبدرًا  
فى مساءك ؟ ؟

أين الأعلامُ والبنودُ تحفّق فى شرفاتك ، والقوادُ  
والجنودُ تخطّرون فى عرصاتك ، أين الشفاه التى كانت تلمّمُ  
ترابك ، والأفواه التى كانت تقبلُ أعتابك ، والرءوسُ التى  
كانت تطرق لهيبتك ، والقلوبُ التى كانت تحفّق لروعتك ؟ ؟  
أين الصوتُ الذى كان يجلجل فى قعر أذن الجوزاء ،  
ويهدر فتتلفت عيون السماء ؟ أين الفلك الذى كان يدور  
بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ،  
والإبرام والنقض ؟ ؟

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا

كيف استطاع الدهرُ أن يمدَّ يده إلى شمالك فيبدده ،  
 وجمعك فيفرقه ، وسمائك فيكوِّر شمسها ، وأرضك  
 فيزعج أنيسها ؟  
 أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحراسك وحجائبك ،  
 وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء ، وتصدُّ عن نفسك  
 عادةً البلاء ؟

ولم أر مثلَ القصرِ إذ ريع سرُّبه  
 وإذ ذُعِرَتْ أطلاؤه وجاذره  
 تحمل عنه ساكنوه وهتكت  
 على عجلٍ أستاره وستائره  
 أيها السجنُ : حل بارجائك اليوم ملكٌ تضيق به  
 الدنيا فكيف وسعته ، وتعجزُ عن احتمالهِ قُلُ الجبالِ الرواسي  
 فكيف احتملته ؟

رفقا به لا تزعجه ، ولا تُخرج صدره ، وضمَّ جانحتيك  
 (٥٥) في — النظرات

عليه كما تُضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطفَ  
المرضعاتِ على الرضيع ، وارحم هذا الجلالَ الزاهبَ ، والعزَّ  
الزائل ، والرأسَ الذى يبضته حوادثُ الدهور ، والظهرَ  
الذى قوسته أيدي المقدور

أيها الدهر : ألا تستطيعُ أن تنامَ عن الانسان  
لحظةً واحدة ؟ ألا تستطيعُ أن تسقيه كأسَ السرورِ خالصةً  
لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

إن كنتَ تريدُ أن تسلبه فلم أعطيه ، وإن كنتَ  
تريدُ أن تعطيه فلم سلبته ؛ كان خيراً له أن لا تعطيه حتى  
لا تفجعه في تلك العطية ، وأن لا تسقيه كأسَ السرور ،  
حتى لا يتجرعَ ذلك السمَّ الذى أودعته تلك الكأس  
أيها الراحلُ المودع : كان ارتفاعك عظيماً فوجب أن  
يكون سقوطك عظيماً

إنك ذقت حلاوةَ الحياةِ خالصةً ، فلما ذقت مرارتها  
جزعتَ وقطبت ، كما يجزعُ ويُقطَّب كلُّ من ذاق من

الشراب مالا عهد له به ، ولا قبل له باحتماله  
 لاتأس على ما فاتك فانما كان وديعةً من ودائع الدهر  
 أعاركها برهةً من الزمان ثم استردّها  
 إنك لاتدرى لعل الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول  
 أجلك فرصةً من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فيها  
 فهِرس أعمالك ، فان رأيت خيراً اغتبطت ، أو شراً  
 استغفرت

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرةً  
 من العبر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت  
 أنت عبرة هذا الدهر وموعظته  
 من بات بعدك في مُلكٍ يُسرُّ به  
 فانما بات بالأحلام مغروراً

تأبين فولتير<sup>(١)</sup>

في مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم،  
مات الرجل الخالد، مات فولتير

مامات فولتير حتى احد ودب ظهره تحت أثقال السنين  
الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظمى  
التي عُرِضَتْ على السموات والارض فأَيَّنَ أن يحملنها،  
فحملها وحده، وهي تهذيب السريزة الانسانية فهدبها  
فاستنارت فاستقام أمرها

مات فولتير مردولا محبوباً في آن واحد، يبنضه  
الحاضر لأنه يجهله، ويحببه المستقبل لأنه عرفه

إن في هاتين العاطفتين، البغض والحب، سر أعظيما

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها فكتور هيجو في باريس في حفلة تأبين  
فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته مع بعض تصرف

من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم  
 كان وهو على سرير الموت محفوفاً بمأطفئين مختلفتين  
 شكلاً، متفقتين معنى، لانهما جميعاً في سبيل مجده وفخاره،  
 كان ينظرُ أمامه، فيسرُّه منظرُ التبجيل والتعظيم من  
 مستقبله، ويلتفت وراءه فيطرُّبه مشهدُ البغض والازدراء  
 والحقد الذي يضمُرُّه الماضي في صدره لأولئك الرجال  
 البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه

كان فولتيرُ رجلاً وأكبرَ من رجل، كان وحده أمةً  
 كاملةً، إنه عاهد نفسه على إنجاز عملٍ عظيمٍ فأنجزه ولم  
 يُخلف وعده، وكانَّ الإرادةَ الإلهيةَ المتجليةَ في الشرائع،  
 تجليها في الطبائع، نثرت كنانةَ هذا المجتمع الانساني،  
 وعجمت عيادته، فوجدت فولتيرَ أصلاً بها عُوداً، فاخترته  
 للقيام بالعمل الذي قام به فأنتمه

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسئلة الاجتماعية  
 الكبرى، جئنا لرفع شأن المدنية، ونكرم الفلسفة إكراماً

ينفعُها ويفيدُها ، جئنا لتتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه ، جئنا لنكرم المجاهدين ، والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنهد الطريقَ للوحدة الإنسانية التي يسمى اليها العلماء والعاملون ، والكتابُ المجدُّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا إلا لنجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام

إنا نُمجِّد السلامَ حباً في المدنية ، وحرصاً على جمالها ورونتها ، فالسلامُ فضيلةُ المدنية ، والحربُ رذيلتها

نحنُ في هذه الساعةِ العظيمةِ ، في هذا الموقفِ الرهيبِ ، نجثو على الركب ، ونعفرُ جباهنا بين يدي الشريعةِ الأبدية ، ونقولُ للعالم الذي ينصتُ لسماع صوتِ فرنسا « لاقوةَ إلا قوةُ الضميرِ ، ولا مجدَ إلا مجدُ الذكاء » هذا في سبيلِ العدلِ ، وهذا في سبيلِ الحقِ

لقد كان شأنُ المجتمعِ الإنساني قبل الثورة الفرنسيةِ على هذا المثالِ ، الشعبُ في المنزلةِ الدنيا ، وفوق

الشعب الدين والقضاء ، هذا يُمثله القضاء ، وذلك يُمثله  
« الاكليروس »

أتدرون كيف كان الشعب ، وكيف كان الدين ، وكيف  
كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ، والدين رياءً ،  
والقضاء ظلمًا

إن كنتم في شك مما أقول فإني أقص عليكم حادثتين  
من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناءً ومقتنعًا

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شابٌ مصلوباً  
في الطبقة الأرضية من بيتٍ في مدينة « طولوز » فهاج  
الشعبُ ولفظ « الاكليروس » وبحث القضاء ، فكانت  
النتيجة أن كان الشابُ منتحرًا ، فسمى قتيلاً ، وكان والدُه  
بريثاً ، فسمى قاتلاً

هكذا أراد الدينُ وأرادت مصلحته أن يهلك والدُ  
الفتى لانه كان بروتستانياً ، ولانه كان يمنع فتاه أن يتدينَ  
بالكثلكة ، إنها الجنايةُ عظيمةٌ جداً ، ينكرها الدينُ ، ويحيلها



العقلُ ، ولكن هان عليهم أمرُها ، ولم يحفلوا بالشريعتين  
شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا أن الشيخ الكبير  
قتل ولده الصغير

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها  
في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخٌ  
أبيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح  
على دولاب العذاب وشُدّت إليه أطرافه وترك رأسه متدلياً  
ثلاثة رجال تلوّث أيديهم بدم القتل ، كاهنٌ يحملُ  
الصليب ، وجلادٌ يحملُ القضيب ، وقاضٍ يحملُ في صدره  
عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب

لم يكن الشيخُ المسكينُ وقد شقّ الخوفُ مرارته ،  
وتمشى قلبه في صدره ، لينظرَ الى الصليب في يد الكاهن ، بل  
إلى القضيب في يد الجلاد

رفع الجلاد القضيبَ ، وضرب ذراع الشيخ ضربةً  
قاسيةً صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه ، فتقدم

القاضي الرحيم ، وأمر له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلادُ  
الضربةَ الاخرى فوق الذراع الآخر ، فعاد إلى صرخته  
وإنغماؤه ، فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه ، وهكذا حتى تم لكل  
ذراعٍ من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكانما قتلوه قبل  
موته ثمانى مرات

فى الانغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب  
تقدم الكاهنُ ومد اليه الصليبَ ليقبله فحول وجهه عنه ،  
وكذلك تبلغ القسوةُ الدينية من نفوس المتدينين ، فأقبل  
الجلادُ وسدد إلى صدره الطرفَ الغليظَ من القضيب الحديدِ  
وضربه ضربةً ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية

على هذه الصورة مات « جان كالاس »

وماهى إلا أيامٌ قلائلٌ حتى عرف الناسُ أن الفتى مات  
منتحراً لا مقتولاً ، فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ فيه  
سهمُ القضاء ، وماذا يعنيه بعد الموت أُمات ظالماً أم مظلوماً

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب، كما كانت الأولى  
موعظة الشيخوخة

بعد مضي ثلاث سنواتٍ من تاريخ الحادثة الأولى،  
وجدوا في « ايفيل » في ليلة عاصفةٍ صليبيًا أكل السوس  
أحشائه حتى عاف البقاء فيه مُطرحًا فوق الجسر بعد أن  
عاش فوق السور ثلاثة قرون

مَنْ ألقى به من أعلى السُّو؟ من أهانه؟ من ذا الذي  
دنس هذا الاثر المقدس؟ مَنْ ذا الذي أجرم هذا  
الجرمَ العظيم

ربما عصفت به ريحٌ، أو عبث به عابرٌ طريق، أو  
هوى به ضعفُ الشيخوخة وإعياءُ الهرم، لالا، كلُّ ذلك  
لم يكن، لأن الدين أبي إلا أن يوجد مجرمًا، هنالك أعلن  
مطران « اميان » براءة من غُفران الله ورحمته لكل مؤمن  
علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه

إن الحرمان في الكملكة جريمة هائلة فظيعة قاتلة متى أوحى

به التعصبُ الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمانُ سبباً في أن القضاء عرّف أو ظن أنه عرف أن ضابطَيْن اسمُ أحدهما (لابار) والاخر (ديتالون) مرّاً على جسر « ايفيل » في تلك الليلة المشثومة يترنحان سُكراً، وينشدان نشيداً عسكرياً ، مرّاً بالجسر وأنشدا النشيد، فهما المجرمان ، وكانت المحكمة مقدّس « ايفيل » ولم تكن بأقلّ عدلاً وإنصافاً من مجلس « الكايتول » في « طولوز » فأمرت بالقبض على الرجلَيْن ، فاختنى ديتالونُ ، وقُبِضَ على لابار وأُسْلِمَ الى القضاء ، فاعترف بالنشيد وأنكر المرورَ على الجسر ، فحكمت عليه محكمة ايفيل بالاعدام ، وأيد حكمها برلمان باريس فدنت الساعةُ الخيفةُ الهائلةُ

لقد تفننوا في تعذيب لابار وإرهاقه ليكشفوا عن سرّ فعلته ، وعن شركائه في جريمته ، أى جريمة المرور على الجسر وإنشاد النشيد

لقد عذّبوه عذاباً أليماً ، حتى أن الكاهن الذي رَجى به

ليسمع اعترافه أغنى عليه حينما سمع قرقة عظام رُكبت به  
 مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني وهو يوم ه يونيه  
 سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم الى ساحة « ايفيل »  
 الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطراماً ،  
 فأسمعه نص الحكم ، ثم تروا يده ، ثم استلوا لسانه بقابض  
 من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا  
 رأسه وألقوا بها في النار

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دى لا بار » كجومات  
 من قبله « جان لا كاس »

أحزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك  
 عليك عواطفك وشعورك ، فصيح صيحة الرعب والفرع ،  
 فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك  
 الخالد العظيم

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع  
 الانساني لتكف عادية الظالمين ، وتعلم أظفار الوحوش

الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين

فيأيها الرجل العظيم ! طبتَ حياً وميتاً  
حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهدٍ من  
المجتمع المذهب الراقى ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء  
يغدو اليها الانسان لاهياً ، وروح ساهياً ، لا يرفع رأسه  
فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضها فيرى ما تحته

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد و « فرسايل » تتلأأ  
حُسناً وبهاء ، ورونقاً وماء ، وظرفاء الشعراء أمثال « سان  
اولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل  
الرقيق والوصف الجميل

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ،  
فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يُمثل  
بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد ، وأن

يستلّ لسانَ الفقى لأنّه أنشد الأناشيد

كان المجتمعُ فى ذلك التاريخ مؤلفاً من قوًى عظيمةٍ  
هائلةٍ ، قوّة البلاط ، وقوّة الاشراف ، وقوّة المال ، وقوّة  
الشعبِ المائجِ المتدفع ، وقوّة الحكومة التى كانت أسداً  
على الرعية ، ونعمةً بين يدى الملك ، تجشّو أمامه خاضعةً  
صاغرةً ، إلا أن جُثيّها كانت على جُثّة الشعب ، وقوّة  
« الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب ، والتعصب  
الأعمى

تقدم فولتيرُ وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم  
المؤلف من تلك القوًى المختلفة ولم يره أكبر من أن  
ينخذل ، ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر

أتدرى ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاحٌ غير تلك  
الاداة التى تجارى العاصفة فى هبوبها ، وتسبق الصاعقة  
فى انقضاضها ، ما كان له سلاحٌ غير القلم ، فبالقلم حارب  
وبالقلم انتصر

انتصر فولتيرُ ، فولتيرُ وقف وحده تلك المواقفَ  
 المشهودة ، فولتيرُ أدار وحده رحى تلك الحربِ الهائلة ،  
 حربِ العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ،  
 والصالح والفساد ، فتم على يديه الغلبُ للخير على الشر ،  
 وفاز فوزاً مبيناً

كان فولتيرُ قلباً وعقلاً ، كان له رقة الفتاة في غلاتها<sup>(١)</sup> ،  
 وشدة الأسد في لبدته

فولتيرُ محام الخرافات الدينية ، والعادات الفاسدة ، وأرغم  
 أنفَ الكبرياء ، وأذل عزَّ الرؤساء ، ورفع السوق إلى  
 حيث لا يصلُ إليه ظلمُ القاضى ولا تنطعُ الكاهن

علم ومدن وهذب ولقى في سبيل ذلك من الشدائد  
 والمحن والنفي والقهر ما يكسرُ سورة النفس فلم تنكسرُ  
 سورتُهُ ، ولم تفتّر عزيمته ، بل كانت يلقى الاستبدادَ  
 بالسُّخرية ، والغضبَ بالاستخفاف ، والقوة القاهرة  
 بالابتسامة المؤثرة



أَقِفْ هُنَا قَلِيلًا إِجْلَالًا لَا بَتْسَامَةً فُولْتِيرُ  
 فُولْتِيرُ هُوَ الْاِبْتِسَامَةُ ، وَالْاِبْتِسَامَةُ هِيَ فُولْتِيرُ  
 أَفْضَلُ مَزَايَا الرَّجُلِ الْحَكِيمِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ  
 الْغَضَبِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ فُولْتِيرُ

كَانَ عَقْلُهُ مِيزَانُ أَعْمَالِهِ ، فَمَا غَلَبَهُ حَتَّى الْغَضَبُ لِلْحَقِّ  
 كُنْتُ تَرَاهُ عَابِسًا مُقْطَبًا ، فَمَا هِيَ إِلَّا كَرَّةُ الظَّرْفِ أَنْ  
 تَرَى فُولْتِيرَ الضَّاحِكَ الْمُبْتَسِمَ فِي مَكَانِ فُولْتِيرِ الْعَابِسِ  
 الْمَقْطَبِ

يَكَادُ يَكُونُ اِبْتِسَامُهُ ضِحْكًا ، لَوْلَا حُزْنُ الْحَكِيمِ  
 وَهُمُّ الْعَاقِلِ

كَانَتْ اِبْتِسَامَتُهُ كِبَارِقَةِ السَّيْفِ ، يَرْتَاعُ لَهَا الْأَعْدَاءُ ،  
 وَيَرْتَاحُ لَهَا الْأَوْلِيَاءُ

كَانَ يَبْتَسِمُ لِلْقَوَى فَيُخْجِلُهُ بِتَهْكُمِهِ وَاسْتِخْفَافِهِ ، وَلِلضَّعِيفِ  
 فَيَسِرُّهُ بِتَحَنُّنِهِ وَانْعِطَافِهِ

فَلْنَمَجِّدْ تِلْكَ الْاِبْتِسَامَةَ الَّتِي كَانَتْ أَشْعَثُهَا كَأَشْعَةِ الْفَجْرِ ،  
 تَمْحُو الظُّلَامَ وَتُبْعَثُ الْأَنْوَارَ

نَعَمْ الْاِبْتِسَامُ ابْتِسَامُ اُنَارِ الطَّرِيقِ لِلْعَدْلِ وَالْحَقِّ  
وَالصَّلَاحِ ، وَبَدَدَ ظِلْمَاتِ التَّقْلِيدِ

إِنْ ابْتِسَامَةُ فُولْتِيرَ اُنْشَأَتْ هَذِهِ الْهَيْئَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ  
وَزَيَّنَتْهَا بِالْأَخَاءِ وَالْمُودَةِ ، وَالْحُرِّيَةِ وَالْمَسَاوَاةِ ، فَنَالِ الْعَقْلُ  
مَنْزِلَتَهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ ، سَوَاءٌ أَسْكَنَ الْقَصْرَ  
الْكَبِيرَ ، أَمْ الْكُوخَ الْحَقِيرَ ، وَلَبَسَ الْمَعْلَمُ تَاجَ الْمَلِكِ ،  
فَتَصَرَّفَ فِي الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ ، وَالْعَادَاتِ الْفَاسِدَةِ ، وَالْخُرَافَاتِ  
الْدِّينِيَّةِ ، تَصَرَّفَ الْحَاكِمُ الْقَدِيرُ ، وَنَشَرَ السَّلَامَ أَجْنَحَتَهُ  
الْبَيْضَاءَ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ فَفَرَّتِ السِّيُوفُ فِي الْإِنْعِمَادِ ،  
وَهْدَأَتِ الدِّمَاءُ فِي الْعُرُوقِ ، وَالْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَامِ ، كُلُّ  
ذَلِكَ بِفَضْلِ ابْتِسَامَةِ فُولْتِيرَ ، وَلَسَوْفَ يَأْتِي ذَلِكَ الْيَوْمُ  
الْعَظِيمُ يَوْمُ الرَّحْمَةِ بِالضَّعْفَاءِ ، وَالْعَفْوِ عَنِ الْخَاطِئِينَ ، فَيَبْتَسِمُ  
فُولْتِيرُ فِي السَّمَاءِ ابْتِسَامَةً تَتَلَا لَا بَيْنَ لَا لِأَلَاءِ النُّجُومِ  
فَلْنَمَجِّدْ ابْتِسَامَةَ فُولْتِيرَ كُلِّ التَّحْمِيدِ ، وَلْنُكَبِّرْهَا كُلَّ

الأكبار

هل كان فولتيرُ يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟  
 كلا ، بل كان يغضبُ أحياناً في سبيل الحق  
 إن التوسطَ وحفظَ الموازنةِ بين الأُخلاق هو القانونُ  
 العقلي للإنسان ، حتى لا تهبطَ به كفةٌ وتعلوبه أخرى ، وحتى  
 لا يهلكَ بين عاطفتي الحبِّ والبغضِ ، وإن الفلسفةُ هي  
 الاعتدالُ وامتلاكُ أزيمة النفسِ في جميع مواقفها ومذاهبها ،  
 إلا أن حبَّ الحق يجبُ أن يكون دائماً في مرتبة الغلو  
 حتى تهبُّ عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام  
 فتذهب بها

يعيشُ المرءُ بين سعادتين من حاضره ومستقبله ،  
 أما الأولى فيكفلها العدلُ ، وأما الثانيةُ فيحرُسُها  
 الأملُ ، لذلك يُحبُّ الناسُ القاضيَ العادلَ ، والكاهنَ  
 الصالحَ : لأن الأولَ صورةُ العدلِ ، والثانيَ مثالُ الرجاءِ ،  
 فإذا انقلبَ العدلُ ظلماً ، والأملُ بأساً ، عافهما الإنسانُ  
 ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضي « لا أحبُّ قانونك »

والساكنين « لأومِنْ بك » وهنا يهب الفيلسوفُ الفيورُ  
غاضباً فيحارِكُ القضاءَ أمامَ العدلِ ، والكهنوتَ أمامَ الله ،  
وكذلك فعل فولتيرُ فكان من المحسنين

إن الرجلَ العظيمَ لا يظهرُ في المجتمعِ وحيداً إلا قليلاً ،  
وكما كثُرَ العظماءُ حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فهو  
كالشجرةِ الباسقةِ تكونُ في الغابةِ الشجراءُ أطولَ منها  
في التربةِ الجرداءِ ، لأنها تكونُ بينَ لِداتها وأُتراسِها  
وكان فولتيرُ في غابةِ من العقولِ الكبيرةِ ، روسو وديدرو  
وبوفون وبومارشيه ومونتسكيو ، أولئك القومُ المفكرون  
المخلصون هم الذين علموا الناسَ النظرَ في حقائقِ الأشياءِ ،  
والتفكيرَ الصحيحَ الموصولَ إلى إتقانِ الأعمالِ ، وعلموهم أن  
صلاحَ القلبِ أثرٌ من آثارِ صلاحِ العقلِ ، فأجادوا وأفادوا  
مات أولئك القومُ العظامُ ، وهوت من أُنْفَقها كواكبُهم ،  
ولقد كانوا في حياتهم جَسَداً ورُوحاً ، أما الجسدُ فقد طواه  
القيَرُ ، وأما الروحُ فهي الثورةُ التي تركوها من بعدهم

أجل ، إن الثورة رُوحهم ، والمظهر الساطع المتلألئ  
 بحكمته ومبادئهم  
 هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة  
 المأزق وفاتحة المستقبل

إنك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقفها ووقائعها ،  
 وإذا استطعت أن تنفذ بعين بصيرتك في بواطن الأشياء  
 رأيت على نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفاً وراء  
 دانتون ، ورُسو وراء روبسبير ، وفولتير وراء ميرا ،  
 ووجدت أن أبطال الثورة ، صنيعَةُ أبطال الفلاسفة<sup>(١)</sup>  
 إن الكلمة الأخيرة التي أنطقُ بها في هذا الموقفِ  
 العظيم هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوء  
 وسكون ، وثباتٍ ووقار

لقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها ، وهي الاخاء  
 الانساني ، والتعارفُ النفسى ، فمن العبث أن تشغل القوة

(١) دانتون وروبسبير وميرابو أبطال الثورة الفرنسية

بعد ذلك مكانا في هذا المجتمع ، فان فعلتْ كان أليقُ الاسماء  
بها اسم الاستبداد

ان المجتمع الانساني أنكر على القوة حقها المزعوم،  
وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقاضاها بين يدي الحق ،  
وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، فقضى له عليها ، وقل جاء  
الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا

شفَّ ثوبُ الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقةُ بيضاء  
ناصعة لا غبارَ عليها ، فأصبح الأبطالُ والمجرمون في نظر  
الانسانية سواء ، لأنهم جميعاً يسفكون الدماء

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة ، وهي أن الجرم  
العظيم أصغرُ من الجرم الصغير ، فأدرك الانسانُ أن قتلَ  
الشعوب أكبرُ إثماً وأعظمُ جريمةً من قتل الأفراد ،  
واستكبر أن يعتبر الحرب مجداً ، وهو يعتبر السرقة عاراً ،  
وبالجملة عرف أن الجريمة جريمةٌ حينما حلتْ ، وفي أى مظهرٍ  
ظهرتْ ، وأن القاتل لا يغنى عنه من الله شيئاً أن يسمى

القيصرَ ، أو يدعى الأمبراطور ، ولا يخفى على الله من أمره  
 شيء ، سواء ألبس تاج الملك ، أم قلنسوة الإعدام  
 فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب  
 أشد الاحتقار

إن الحرب المباركة لا أثّر لها في الوجود  
 إن منظر الدماء والأشلاء أقطع منظر  
 لا يعقل أن يكون الشرط طريق الخير ، وأن يكون  
 الموت وظيفة الحياة  
 أيتها الأمهات الجالسات حولى : خففن من أحزانكن  
 فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ  
 أكبادكن

أنتقى المرأة قتلد ، ويفرس الزراع فيكسوا الارض  
 بساطها الأخضر ، ويمجد العامل فيملاً الخزائن فضةً وذهباً ؛  
 ويأتى الصانع بعجائب المصنوعات ، وغرائب المدهشات ،  
 حتى إذا أخذت الأرض زُخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها

وكوا كبيراً، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال؛  
 آه إننا لانستطيعُ مع الأسف أن نخدع أنفسنا،  
 وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتملُ على بضع دقائق  
 محزنةٍ تكدرُ صفوها، وتنتقصُ من سرورها  
 لاتزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء  
 إن الشعب لم يقض كلَّ أربه من السعادة، لأن الحرب  
 لاتزال باقية

فلنذكر عند ذكر ملوك الحرب فولتير وجان جاك  
 وديدرو ومونتسكيو ملوك السلام، ولنوجه وجوهنا  
 إلى تلك الروح العالية، إلى تلك الحياة العظيمة، إلى ذلك  
 الدفين المقدس، إلى فولتير، ولنجثُ أمام قبره ضارعين  
 متوسلين، عسى أن يمدَّنا بروحٍ من عنده، ويهدينا إلى حظيرة  
 السلام المقدسة، فانه وإن مرَّ قرنٌ على موته لم يزل  
 في الأحياء الخالدين

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين



بصوت عال ، كفى كفى ، إنها همجية ، إنها وحشية ،  
إنها تشوه وجه المدينة الجميل

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رُسلُ الحقِّ إلى البشر ،  
فلنضرع اليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل  
وقوعها ، وينادوا إن الحياة ملك الانسان ، وعزيزٌ عليه أن  
تُسلبَ منه ، وأن التمتع بالحرية حقٌّ من حقوق العقول  
والافكار ، فلا يعترض سبيلها معترض

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور ، فلنطلبه بين  
ظلمات القبور



## العلماء والجهلاء

لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ الْفَلَسَفَةَ أَلَا صِطْلَاحِيَّةٌ مَطْلَبٌ مِّنَ الْمَطَالِبِ  
الَّتِي لَا تَرَامُ ، أَوْ أَنَّ بَيْنَ مَنْ نُسِمَتْ بِهِمُ الْعُلَمَاءُ وَمَنْ نُسِمَتْ بِهِمُ  
الْجُهَلَاءُ ذَلِكَ الْفَرْقُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ عِنْدَ  
مَا يَرِيدُونَ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا ، وَإِنَّا لَهُمَا نَازِلُهُمَا ، فَالْعُلَمَاءُ وَالْجُهَلَاءُ  
إِنْ دَقَقْتَ النَّظَرَ سَوَاءٌ ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنْ هُوَ لَا يَعْلَمُونَ  
الْمَعْلُومَاتِ مَنْظُمَةً ، وَأُولَئِكَ يَعْلَمُونَهَا مَبْعُوثَةً ، وَأَنْ هُوَ لَا  
يُحَسِّنُونَ الْبَيَانَ عَنْهَا ، وَأُولَئِكَ لَا يَبِينُونَ

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَشْيَاءِ نَظْرًا نَاقِبًا نَافِدًا وَجَدَ أَنَّ الْمَعَانِيَ  
الصَّحِيحَةَ ، وَالْقَضَايَا الْكَوْنِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالنَّفْعِ  
وَالضَّرِّ ، وَالْمَسَائِلَ الْمَنْوُوطَةَ بِالْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِيهِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ،

يشارك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ منهم تحت سقوف الجامعات ، ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوعٌ يفور من الداخل ، لا سَيْلٌ يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات كامنَةٌ في النفوس كمن النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها وآية ذلك أنك لا تجد حكمةً من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعودونها مظهر علمهم ، وآية فضلهم ، إلا وترى في السنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدةً من قواعد الأدب ، ولا قضيةً من قضايا الأخلاق ، التي نعدّها من ذخائر الأسفار ، ونفائس الأعلّاق ، إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومذالة بين أيدي الفوغاء والأُميين

وعندي أنه لو لا عجز العامة عن بيان ما يحول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبةٍ منظمَةٍ

لما تُخيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، أو  
معنى غريباً

وليست هذه الغبطة التي نراها تعلقُ بنفوسهم عند  
ما يتلقون أحاديثَ الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا  
يعلمون ، أو أدركوا ما لا عهدَ لهم به من قبل ، بل لأنهم  
ظفروا بمن يُترجمُ عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعاني  
المبعثرة في أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم  
لذة الأُنس بأفكار تشابه أفكارهم ، وآراء تشاكل آراءهم  
ولا أخشى بأساً إن قلتُ إن علمَ العامة أفضلُ من علم  
الخاصة ، لأنه أولاً علمٌ خالصٌ من شائبة التكافُف والتعمُّل ، حتى  
أنك لتجد في بعض الأَحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم  
وآرائهم ما يضحكُ الشكلى لغرابته وشدوذه ، وما يرفعُ أضيق  
العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعلَ له شأنًا ، أو يقيمَ له  
وزنًا ، وثانيًا لأنه يعلقُ بالنفس ويتغلغلُ بين أطوارها تغلغلًا تظهرُ  
آثارُه على الجوارح ، وكثيراً ما تجدُ بين الجهلاء من تعجبكُ

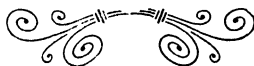
استقامته ، وبين العلماء من يدهشك اعوجأجه ، وإن كان صحيحاً ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه ، فكثير من الجهلاء ، أعلم من كثير من العلماء

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة وروعة ، ولا تغل في احتقار الجهلاء ، وازدراء العامة والدهماء ، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب

إن في اختفاء الحقائق الكونية وتكبرها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه ، وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورموس المسالك حيارى ينشدون فلا يجدون ، ويمجدون فلا يصلون ، لدليلا على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات ، وأسماء بلا مسميات ، وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها

واحتجتها من دون عباده ، ولم يمنحهم منها إلاَّ بلاءً تزيدهم  
وجداً كلما وجدوا بردَها ، وتملاً قلوبهم شوقاً كلما  
تذوّقوا طعمها :

ضريبك في بني الدنيا كثيرٌ  
وعزَّ الله ربُّك من ضريب  
وما العلماء والجهلاء إلاَّ  
قريبٌ حينَ تنظرُ من قريب



## الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب إن رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطرٍ  
من سطور كتابي هذا، فأنما أنا أنطقُ بلسان كثيرٍ من العقلاء  
الذين يُحبونك حباً جماً ويعتقدون أنك فريدٌ في أدبك،  
فريدٌ في قلمك، فريدٌ في تسامحك وتساهلك، لذلك أردنا  
أن نوجهَ إليك السؤالَ الآتيَ راجين منك الإجابةَ عليه :-  
لماذا نرى الهيئةَ الاجتماعيةَ تحكمُ على المرأةَ الفاسقةِ  
حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها، ولا تحكمُ على الرجلِ الفاسقِ  
مع أن جريمتيهما واحدة ؟

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه والسلام

( سائل )

يعتقد كثيرٌ من الناس أن الرجلَ والمرأةَ سواهما

في الذكاء والعقل ، وعندى أنهم أصابوا في الأول، وأخطأوا في الأخرى

تستطيعُ المرأةُ أن تجارى الرجلَ في سرعة الفهم، وحضورِ البديهة ، ولا تستطيعُ أن تجاريه في الأناة والرفق ، وامتلاكِ هوى النفس ، والأخذِ بفضيلة الصبرِ على ما تكرهُ وعما تحب

تستطيعُ المرأةُ أن تدرك ما يدركه الرجلُ من الشؤونِ والاطوار ، وأن تستخرجَ كما يستخرجُ المجهولاتِ من المعلومات ، ولكنها لا تستطيعُ أن تنتفعَ بمعلوماتها كما ينتفع ، لأن بين جنبتيها نفساً غيرَ نفسه . وهوئى غيرَ هواه ، ولأن لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير

يمشى الرجلُ وراء عقله فيهديه ، وتمشى المرأةُ وراء قلبها فيضلها ، فما وقفتُ معه في موقفٍ إلا سقطتُ بين يديه عجزاً وضعفاً، لأنه يعرفُ السبيلَ إلى قلبها، ولا تعرفُ السبيلَ إلى عقله



لا تعجب إن قلت لك إن الذكاء غير العقل، فاللصوص والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكىاء وليس بينهم عاقل واحد، لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك، من حيث لا ينفى عنهم ذكاؤهم شيئاً، وكثيراً ما يكون الذكاء الشديد داعية الجنون، حتى إنك لا تكاد ترى ذكياً من الأذكىاء إلا وترى له في شؤونه وأطواره أحوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل، ولا قاعدة من قواعد الطبيعة، وعندى أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكىاء من بؤس العيش وسوء الحال عائد إلى ضعف في عقولهم، ونقص في تصوراتهم، وبعد فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع، وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه، إذا كان طائشاً أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن أو الغضب

فإذا يغنى المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها، ويمسك بيدها أن تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة

سيثقلُ هذا الحكمُ على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهنَّ، ولكن ماذا أعملُ وبين يديَّ برهانٌ قاطعٌ ليس في استطاعتهم أن ينازعنني فيه مع شدة ذكائهنَّ، ولا في استطاعة أنصارهنَّ من الرجال أن ينقضوه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

لولا أن الرجلَ أَعقلُ من المرأة ما كان له عليها هذا السلطانُ وذلك الغلبُ، ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقادُ الجنيبُ (١) ولا أن يملكَ عليها أمرَ فقرها وغناها، وحبسها وإطلاقها، وحجابها وسفورها، ويستأثرَ من دونها بوضع القوانينِ والشرائع الخاصةِ بها، من حيثُ لا ترى في نفسها قوةً لدفعها، والخروجِ عليها

القوى يملكُ على الضعيفِ بحكم الطبيعةِ كلُّ شيءٍ حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأنُ الإنسانِ مع الحيوان، وشأنُ الرجلِ مع المرأة

(١) الجنيب المهر الذي يفاد الى مهر آخر

الانسانُ نوعٌ من أنواع الحيوانِ لم يكن في مبدأ  
خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان  
أوفرَ منها عقلاً وأوسعَ حيلةً ، فما زال يطلبُ لنفسه الغايةَ  
التي تناسبُ استعدادَه وفِطْرَتَه حتى أصبحَ سيدَ الحيوانِ ،  
فدَنَ المدنَ ومَصْرَ الامصارَ ، وشاد وبنى ، وتأَنَّقَ وترَفَّ ، ثم  
طردَ صاحبَه إلى الصحارى والرمال ، ورءوسِ الجبال ،  
يأكلُ بعضُه بعضاً ويتغانى شقاءً وجهلاً ، والرجلُ أخو  
المرأةِ وقسيمُها في الرحم والمهد ، والأبوةِ والأُمومة ،  
والقومةِ والقعدة ، والنومةِ واليقظة ، ولكنه وجد  
في نفسه فضلاً عليها من قوة العقل والتدبير ، وكان  
ظالماً خشنَ النفسِ قاسى القلبِ ، فأبى إلا أن يأسرها ،  
ويغلبها على أمرها ، ويملكَ عليها جسمها ونفسها ، فتم  
له ما أراد

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء  
فأذعنتْ ، وملك عليها نفسها لانه ألقى في رُوعها أن ذنبها  
في جريمة الفسقِ المشتركةِ بينه وبينها أ كبرُ من ذنبه

وأن جنايتها ضعيفُ جنايتهِ فصَدَقَتْ ، وظلَّ منها أن تسلم  
إليه الامرَ في تدبيرِ شؤونها والتصرفِ بأموالها فسامتْ ،  
وأصبحتْ تنظرُ إلى هذه القوانينِ الجائرةِ التي وضعها لها ،  
والاعتباراتِ الفاسدةِ التي اعتبرها معها ، كما ينظرُ إليها هو  
بعين الإجلالِ والإعظامِ

يخدعُ الرجلُ المرأةَ عن شرفها فيَسْلُبُها إياه ، فإذا  
سقطتْ هاجَ المجتمعُ الانساني عليها رجاله ونساؤه ، وملاً  
قلبها هولاً ورُعباً ، وأوسعَ نفسها تقريعاً وتأنيباً ، من حيثُ  
لاتطيرُ على الرجلِ شرارةٌ واحدةٌ من هذه النارِ المتأججةِ ،  
لانه هو الذي وضعَ هذا القانونَ وشرعَ تلكَ الشريعةَ ، وما  
كانَ له أن يقصرَ في ممالأةِ نفسه ومحباتها ، لانه شرٌّ طماعٌ  
محبٌ لذاته ، ولأنَّ يعدلَ في القضاءِ في قضيةٍ ، هو الخضمُ  
فيها والحكمُ لانه ظالمٌ جبارٌ

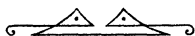
ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقلِ لاستطاعت  
هي أن تحجبه في المنزل ، وأن تتولى التصرفَ في شأنه ، وأن

تعبثَ بعقله ما شاءت ، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ،  
وان تنفذَ إلى قلبه فتلعب به لعبَ الصبيِّ بالكرة ، وأن تحدثه  
فيصدق ، وتأمره فيأتمر ، وأن تسن له القوانينَ الجائرة ،  
والشرائعَ الفاسدة ، فيؤمن بها إيمانه بالاله المعبود كما صنع  
هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد

لا أريدُ أن أقولَ إن هذا الفرق في القوة العقلية بين  
الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ،  
بل أريدُ أن أقولَ إن هذا الفرقَ بينهما هو سببُ ذلك  
السلطانِ القاهر ، والحكمِ الجائر

وجملةُ القولِ أن حكمَ المجتمعِ الانساني بادانة المرأةِ  
الزانيةِ وبرائةِ الرجلِ الزاني حكمٌ ظالمٌ ، ولو أنه أنصفهما  
لعرفَ فرقَ ما بينهما في القوة العقلية فجعل عقابَ الرجلِ  
القوى المهاجم فوق عقابِ المرأةِ الضعيفة المدافعة ، ولكنه  
لم يفعل ذلك ، لان رجاله ظلمةٌ جائرون ، ولأن نساءه  
ساذجاتٌ بسيطاتٌ ، يصدقن الرجالَ في أقوالهم ، وينظرنَ

إلى المستحسنات والمستهجئات بأنظارهم ، فإن أردنا أن  
تنالَ المرأةُ حقَّها من الرجل ، وأن تنتصفَ منه ، فليس  
سبيلُها إلى ذلك المغالبةُ والمصارعةُ ، فانها أضعفُ منه  
جسماً وعقلاً ، بل السبيلُ إليه أن نُعلِّمها لتعرفَ كيف  
تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها ،  
وأن نعلمه لبستطيعَ أن يكون شخصاً كريماً ،  
وإنساناً رحيماً



## الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع إلا وقد آذن نفسه بحرب لا نحمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك أو يهلك دونها

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأخرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الأجسام أرواحها ، بأقرب منا لا من سلب النفوس غرائزها وميولها ، ولا يضمن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوى عليه جوانحه من المعتقدات ، وانه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا تبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الاشلاء في مواقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم إلا حماية للمذاهب ، وذوداً عن العقائد

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها ،  
لأنهم يحاولون أن يرزقوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعوها  
في أعلاق قلوبها

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة ، وقلوب صابرة ،  
على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ،  
حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها ، أو يموتوا في طريقها  
الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة  
أو جهلة ، أو زنادقة أو ملحدين ، أو ضالين أو كافرين ،  
لأن ذلك مالا بد أن يكون

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم  
عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً ، فلما مات مات سيد المرسلين ،  
وأن الغزالي عاش متهما بالكفر والالحاد ، ومات حجة  
الاسلام ، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس  
يبيصقون عليه إذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ، فهم  
يُحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتاً



سيقول كثيرٌ من الناس وما يغنى الداعي دعاؤه في أمة  
لا تحسنُ به ظناً ، ولا تسمعُ له قولاً ، إنه يضرُّ نفسه من  
حيثُ لا ينفعُ أمتَه ، فيكونُ أجهلَ الناس وأحمقَ الناس  
هذا ما يوسوس به الشيطانُ للعاجزين الجاهلين ، وهذا  
هو الداءُ الذي أَلَمَ بنفوس كثيرٍ من العلماء فأمسك ألسنتهم  
عن قولِ الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيلِ  
الهداية والارشاد ، فأصبحوا لا عملَ لهم إلا أن يكرروا  
للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت  
الأذهان ، وتبدلت المدارك ، وأصبحت العقولُ في سجنٍ  
مظلمٍ لا تطلعُ عليه الشمس ، ولا ينفذُ إليه الهواء ،  
الجهلُ غشاءٌ سميكٌ يُغشي العقل ، والعلمُ نارٌ متأججةٌ  
تلامسُ ذلك الغشاء فتُحرِّقه رويداً رويداً ، فلا يزالُ العقلُ  
يتألمُ لحرارتها مادام الغشاء بينه وبينها ، حتى إذا أنت  
عليه انكشف له الغطاء فرأى النارَ نوراً ، والألمُ لذةٌ وسروراً  
لا يستطيع الباطلُ أن يصرعَ الحقَ في ميدان ، لأن

الحقَّ وجودٌ ، والباطلَ عدمٌ ، وإنما يصرُّه جهلُ العلماء بقوته  
ويأسهم من غلبته ، واغفالهم النداء به ، والدعاء إليه

محالٌ أن يهدم بناء الباطل فردٌ واحدٌ في عصرٍ واحدٍ ،  
وإنما يهدمه أفرادٌ متعددون ، في عصورٍ متعددة ، فيهدمه الأول  
هزةً تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث  
آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجرٌ على حجر

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ، ولا يحمل بالطبيب أن  
يُحجم عن العمل الجراحيّ فراراً من إزعاج المريض ، أو خوفاً  
من صياحه وعويله ، أو اتقاءً لسببه وشتمه ، فانه سيكون  
غداً أصدقَ أصدقائه ، وأحبَّ الناس إليه

وبعد فقليلٌ أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً  
إليها إلا إذا كان خائناً في دعوته ، سالك سبيل الرياء والدهان  
في دعوته ، وقليلٌ أن ينال حظُّه من إكرامها وإجلالها إلا  
بعد أن تتجرع مرارة الدواء ، ثم تشعر بحلاوة الشفاء

الدعاةُ في هذه الامة كثيرون ملء الفضاء، وكَلِمةُ<sup>(١)</sup> الارض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد، لأنه لا يوجد بينهم شجاعٌ واحدٌ أصحابُ الصحفِ وكتابُ الرسائل والمؤلفون وخطباءُ المجمع وخطباءُ المنابر كلهم يدعون الى الحق، وكلهم يعطون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضراً، أو يلاقى في طريقها شراً

رأيت الدعوة في هذه الأمة أربعة رجالٍ يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبنًا، فهو ساكتٌ طول حياته لا ينطق بخيرٍ ولا شر، ورجل يعرف الحق وينطق به ولكنه مجهلٌ طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجمُ على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيبُ الماهر الذي يضع الدواء المرَّ في «برشامة» ليسهل تناوله

وازدراؤهُ ، ورجلٌ لا يعرف حقاً ولا باطلاً ، فهو يخبط  
 في دعوته خبطَ الناقة العشواء في يديها ، فيدعو إلى الخير  
 والشر ، والحق والباطل ، والضار والنافع ، في موقفٍ واحد ،  
 فكانه جواذ امرئ القيس الذى يقول فيه : —

مَكْرٍ مَفْرٍ مُقْبِلٍ مَدْبِرٍ مَعًا

ورجلٌ يعرف الحق ويدعو الامة إلى الباطل دعوة  
 المجد المجتهد ، وهو أخبثُ الأربعة وأكثرهم غائلةً ، لأنه  
 صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الامة  
 في سبيله ، فهو عدوها في ثياب صديقها ، لأنه يوردها مواردَ  
 التلف والهلاك باسم الهداية والارشاد ، فليت شعري من  
 أى واحدٍ من هؤلاء الأربعة تستفيد الامةُ رُشدًا وهداها  
 ما أعظمَ شقاء هذه الامة وأشدَّ بلاءها ؛ فقد أصبح  
 دعائها في حاجةٍ إلى دعاةٍ ينبرون لهم طريق الدعوة ، يعلمونهم  
 كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها ، فليت شعري  
 متى يتعلمون ؟ ثم متى يرشدون ؟

## الحياة الذاتية

أكثرُ الناسِ يعيشون في نفوس الناس أكثرَ مما يعيشون في نفوس أنفسهم ، أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون ، إلا لان الناس هكذا يريدون

حياةُ الانسان في هذا العالم حياةٌ ضمنيةٌ مدخلةٌ في حياة الآخرين ، فلوفتش عنها لا يجد لها أثراً إلا في عيون الناظرين ، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين يُخَيَّلُ إلى أن الانسان لو علم أن سيُصْبَحُ في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم لا يجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره لا أثر الموت على الحياة عله يجد في عالمٍ غيرِ هذا العالم من آذان الملائكة أو عيون الجنة مقاعدٌ يقتعدُها فيطيب له العيش فيها إذا كانت حياة كل انسان متلاشيةً في حياة الآخرين

فأى مانع يمنعنى من القول بأن تلك الحياة التى نحسبها متكررةً متعددةً إنما هى حياة واحدة يتفقُ جوهرُها، وتعددُ صورُها، كالبحر المائج تراه على البعد فنحسبه طرائقَ قِدَدًا، ونحسبُ كلَّ موجةٍ من أمواجه، قسماً من أقسامه، فاذا دنونا منه لا نرى غيره، ولا نجدُ لجزءٍ من أجزائه حيزاً مستقلاً، ولا وصفاً ثابتاً

لاحى فى هذا العالم حياة حقيقية، إلا ذلك الشاذ الغريب فى شؤونه وأطواره، وآرائه وأعماله، الذى كثيراً ما نسميه مجنوناً، فإن رضىنا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً، ونريدُ بذلك أنه نصفُ مجنون، فهو الذى يتولى شأنَ الإنسان، وتغييرَ نظاماته وقوانينه، وينتقلُ به من حال إلى حال، بما يغير من عاداته، ويحولُ من أفكاره

أية قيمةٍ لحياة امرئ لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناسُ فياً كلُّ مالا يشتهى، ويصدف نفسه عما تشتهى، ويسهرُ حيث لا يستعذبُ طعم

السهر ، وينامُ حيثُ لا يطيّبُ له المنام ، ويلبسُ من اللباس ما يخرجُ صدره ، ويقصمُ ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرقُ أمعاءه ، ويأكل أحشاءه ، ويضحك لما يبكي ، ويبكي لما يضحك ، ويتسم لعدوّه ، ويقطبُ في وجه صديقه ، ويُنفقُ في دراسة ما يسمونه علمَ السلوك ، أى علم الدهان والملق ، زمنًا لو أنفق عُشر معشّاره في دراسة علمٍ من العلوم النافعة لكان نابتَه المبرّز فيه ، حرصا على رضا الناس ، وازدلافًا إلى قلوبهم

ليست شهوةُ الخمر من الشهوات الطبيعيةِ المركبة في غرائز الناس ، فلو لم يذوقوها لما طلبوها ، ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم إلا كلفُ تاركها برضاء شاربها ، وما كان الترفُ مُخلَقًا من الاخلاق الفِطرية في الانسان ، ولكن كلفَ المتقشفون برضاء المترفين فتترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه ، وأثقال الحياة وأعبائها ، مانقّص عليهم عيشهم ، وأفسد عليهم حياتهم ، وانك ترى الرجلَ العاقل

الذى يعرف ما يجب ، ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله  
 فى نفقة عرس ولده أو ابنته ، فلا تجد لفعله نأويلاً إلا خوفه  
 من سخط الناس ، واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف  
 من سخط الناس والكاف برضاهم ذكاء الأذكاء ،  
 وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكى يظل طول حياته  
 خاملاً متاففا لا يجرؤ على اظهار أثر من آثار فطنته وذكائه ،  
 مخافة هزاء الناس وسخريتهم ، وعاقلاً لا يمتنع من الاقدام  
 على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ،  
 ونقمة الناقلين

وما أعجبت برجل فى حياتى اعجابى بأديب من أدباء  
 هذه الامة يكتب الرسالة التى يريد كتابتها بينه وبين نفسه  
 ثم يدلى بها الى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضى لسبيله  
 كأنه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس  
 ليعلم ما رأى الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ،  
 أو رضوا بها ، ولا يمشى متنقلاً فى المجمع والأندية ، مسائلها  
 عنها كل غادٍ ورائح ، ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، أو



شراً فيبكي ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمعُ حديثَ الناس عنه في حالى رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً كأنما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدتُ أتخيلُ ألا فرق عنده بين أحسنت وأجدت ، وأسأت وأخطأت ، بل قلما رأيته على كثرةِ لصوقي به ، وتفقدى مواقعَ سمعه وبصره ، يقرأ ما تكتبه الصحفُ عنه ، وما تعلقه على آرائه وأفكاره ، من مدح أو ذم ، حتى كدتُ أحمل تلك الحالَ الغريبةَ من أمره على البله والغفلة ، أو العظمة والكبرياء ، لولا انى فاتحته مرةً فى ذلك وسألته لم لا تحفلُ برأى الكتاب فيك ، ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك ؟ فأجاب إننى ما أقدمتُ على الكتابة للناس فى إصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، إلا بعد أن عرفت أنى أستطيع أن أنزلَ منهم منزلةَ المعلم من المتعلم ، والناسُ خاصةٌ وعامةٌ ، أما خاصتهم فلا شأن لى معهم ، ولا علاقة لى بهم ، ولا دخل لكلمةٍ من كلمائى فى شأنٍ من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، لأننى لم أكتب لهم ، ولم أتحدث إليهم ، ولم

أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنبُ جهدَ  
المستطيع أن أستمعَ منهم كلَّ ما يتعلقُ بي من خير أو شر ،  
لأنني راضٍ عن طريقي التي أكتبُ بها رسائلي ،  
فلا أحبُّ أن يكدرها عليَّ مكدر ، وعن آرائي التي  
أودعها إياها ، فلا أحبُّ أن يشككني فيها مشكك ،  
ولم يهينني الله من قوةِ الفراسةِ ما أستطيعُ أن أميزَ بهِ  
بين مخلصهم ومشوبهم ، فأقبلُ على الأولِ لأستفيدَ  
علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقِ غشه ، فانا أسيرُ بينهم مسيرَ  
رجلٍ بدأ يقطعُ مرحلةً لا بد له أن يفرغَ منها في ساعةٍ  
محدودة ، ثم علم أن عليَّ بين الطريقِ الذي يسلكه روضةً غناءً  
تعتنقُ أغصانها ، وتشتجرُ أفنانها ، وتفردُ أطيَارُها ، وتتألقُ  
أزهارُها ، وأن عليَّ يساره غاباً تزارُ أسودُه ، وتعوى ذئابه ،  
وتفجعُ أفاعيه وصلاله ، فشى قد ما لا يلتفتُ يمينه ، مخافةً أن يلهوَ  
عن غايته بشهواتِ سمعه وبصره ، ولا يسره ، مخافةً أن

يَهِيحَ بِنَظَرَاتِهِ فَضُولَ تِلْكَ السَّبَاعِ الْمُقْعِيَةِ، وَالصَّلَالِ النَّاشِرَةِ،  
فَتَعْتَرِضُ دُونَ طَرِيقِهِ، وَأَمَّا عَامَتُهُمْ فَهَمُ بَيْنَ ذِكْرٍ قَدْ وَهَبَهُ  
اللَّهُ مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَصَفَاءِ الْقَلْبِ وَسَلَامَةِ الْوُجْدَانِ مَا يَعِدُهُ  
لِاسْتِمَاعِ الْقَوْلِ وَاتِّبَاعِ أَحْسَنِهِ، فَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ،  
وَضَعِيفٍ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَهُوَ لَا يَرْضَى إِلَّا عَمَّا  
يَعْجِبُهُ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَطْرُبُهُ، فَأَكِلُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَأُسْتَلْهِمُهُ  
صَوَابَ الرَّأْيِ فِيهِ، حَتَّى يَجْعَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِ عُسْرِ يَسْرًا، فَأَنَا  
إِنَّمَا كُتِبْتُ لِلنَّاسِ لَا لِأَعْجَبِهِمْ، بَلْ لَأَنْفَعَهُمْ، وَلَا لِأَسْمَعَ مِنْهُمْ  
أَنْتَ أَحْسَنْتَ، بَلْ لَأَجِدَ فِي نَفُوسِهِمْ أَثْرًا مِمَّا كُتِبْتُ،  
فَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الْمَلَائِكِينَ الْإِثْنَاءَ عَشَرَ الَّتِي يَحْتَضِنُهَا هَذَانِ الْجَبَلَانِ  
أَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى الْإِعْجَابِ بِي وَالرِّضَا عَنِّي ثُمَّ رَأَيْتُ مِنْ  
بَيْنِهَا رَجُلًا وَاحِدًا يَنْتَفِعُ بِمَا أَقُولُ لَكَ الْوَاحِدُ الْمُسْتَفِيدُ  
أَثَرَ فِي نَفْسِي مِنَ الْمَلَائِكِينَ الْمُعْجَبِينَ، أَتَدْرِي لَمْ عَجَزَ كِتَابُ  
هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ إِصْلَاحِهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ حَتَّى  
الْيَوْمِ طُلُبَةً يَتَعَلَّمُونَ فِي مَدَارِسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ جَالِسُونَ بَيْنَ يَدَيِ

أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ، فترى الواحد منهم يكتبُ وهمه المالىءُ قلبه أن يعجب اللغويين ، وأوبروق المنشئين ، أو يطرب الأدباء ، أو يضحك الظرفاء ، ولا يدخل فى باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذى يجب أن يسلكه إلى قلوب الذين يقولُ إنه يعظمهم أو ينصحهم ، أو يهذبهم أو يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم ، وكيف يهجم على قلوبهم ، وكيف يملك ناصية عقولهم ، فيعدلُ به عن ضلالها إلى هداها ، وعن فسادها إلى صلاحها ، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذى تراه حاملاً سيفه كل يوم إلى الجوهرى ليرصع له قبضته ، أو الحداد ليشحذ له حده ، أو الصيقل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يوماً فى ساحة الحرب ضارباً به اه

نعم قد يكونُ الولعُ برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو أن الفضيلة هى الخلقُ المنتشر فيهم ، والغالب على

أمرهم ، ولو كان الأمرُ كذلك لا آثرت أن يعرضَ المرءُ  
نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث تُشخصها  
في أذهان الناسِ وعقولهم ، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد  
خالطت قلبه ، وأخذت مستقرها من نفسه ، جعلها ميزانا  
يَزنُ به أقواله وأفعاله ، كما يزنُ به أقوال الناس وأفعالهم ، ثم  
لا يُبالى بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه ، أم أحبووه أم  
أبغضوه ، فانما يبكي على الحب النساء



## العبرات

كنتُ أغبط نفسي على التجلُّدِ والصبر ، وأحسبُني قادراً  
على الاستمساك في كل رُزءٍ مهما جل شأنه ، وعظم وقعُه ،  
فلما مات مصطفى كامل علمتُ أن من الرزايا ما لا يطاقُ  
احتماله ، ولا يستطيع تجرُّعه

كلَّ يومٍ نرى الموت ، ولا نزالُ نعدُّ الموت غريباً ، هيهات  
لأغرابة في الموت ، ولكن الغريبَ موتُ الرجل الغريبِ  
كل يوم تمرُّ بنا قوافلُ الموتى فلا نأبه لها ، وأكبرُ  
نصيبتها منا الحوقلة والاسترجاعُ ، فلما مبرت قافلة مصطفى  
كامل دهشنا وجزعنا ، لأنه كان غريباً في حياته ، فأحرى  
أن يكون غريباً في مماته

مات مصطفى كامل فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل

ذلك ، لأننا ما كنا نرى إلا أموالنا ينقلون من ظهر الارض  
إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حيًا حياةً حقيقية  
فكان موته كذلك

لا يحسب السكاتبون أنهم صنعوا شيئًا إذا بذلوا لذلك  
الرجل العظيم قطرةً من المِداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا  
بلاءً حسنًا إذا بذلوا له قطرة من الدمع فانه كان يبذل  
لهم ماء حياته قطرةً فقطرةً ، حتى أفناه ومضى لسبيله ،  
وشتان ما بين صنيهم وصنيعه

أين قطرات الدموع التي يريج بها الباكون أنفسهم ،  
أو قطرات المِداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ،  
من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل  
وطنه وأمته ؟؟

كان مصطفى كامل سراجًا كبير الشعلة ، وكل سراج  
تكبر شعلته بفرغ زيته وشيكا ، وتحترق ذبائله ، فينطفئ نوره  
كان مصطفى كامل نشيطًا سريع الحركة . فقطع جسر  
الحياة في لحظة واحدة

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح مصطفى كامل وأسمع في صياحه عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى ، ولولاه ما كانوا يعرفون كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسئون الظن بها ، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهو جو وغاريبالدى وواشنطن ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة الشرق لا تختلف كثيراً عن تربة الغرب لو تمهدا الزارعون

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شئ بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب ، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائى ، فهي تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ، ولكنه كان أشجع الناس

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينشئ حتى الموت كان يخطئ أحيانا فى اتخاذ الوسائل إلى آماله ، ولكنه



كان إذا اتخذها لا يتمهلُ ديثما يتبينُ أى طريق يأخذُ، ولا  
أى مسلك يسلكُ، مخافة أن تفتَرَ همته بين الأخذِ والرد،  
فيكونُ خطوهُ فى تردِّده، أكثرَ من خطئه فى جهاده  
كان له منافسون يرمونه بالخِفة والطيش، ويقولون  
له إنك مخطئ، أو مضر، أو غيرُ محسن، أو غيرُ عظيم، فما كان  
يصدقُ من ذلك شيئاً، كأنما كان ينظرُ بعين الغيب الى هذا  
اليوم الذى اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه، وخصومه وأولياؤه،  
أنه رجلٌ عظيم

ما كان مصطفى كامل من الاغنياء، ولا من بيوت الملوك،  
وما كان آمراً ولا ناهياً، ولا رافعاً ولا خافضاً، ولكنه  
لَقِيَ من إجلال الناس لموته، وإعظامهم لمصيبته، ما لم يلقَ  
واحد من هؤلاء، ولا فضلَ لهم فى ذلك عليه، فهو الذى  
علمهم كيف يحترمون العقولَ، ويحجِّلون المناقبَ والمزايا  
فيأياها القارىء الكريمُ: إن كان لك ولدٌ تُحِبُّ أن  
تجعلَه رجلاً، فاجعلْ بين يديه حياة مصطفى كامل، ليتعلمَ  
منها الشجاعة والإقدامَ

وياها المصري : كن أحرص الناس على وطنيتك ،  
ولا تبغ بها بدلا من عرض الدنيا وزخرفها ، فانك إن فعلت  
كنت مصطفى كامل

وياها الانسان : أقدم على عظام الأمور ، ولا تلتفت  
يمنة ولا يسرة ، واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين  
والناقمين ، والهازئين والساخرين ، فانهم سيعترفون بفضلك ،  
ويسمونك عظيما كما سموا مصطفى كامل

وياها الراحل المودع : إن بين جنبي لوعة تعليج  
لفراقك لأعرف سبيلا الى التعبير عنها إلا القلم  
وهأنذا أعالج القلم علاجا شديدا على أن يسعفني  
بحاجتي ، وأقلبه ظهرا لبطن ، وأكثر من استمداده ،  
وأضغط به على القرطاس ضغطا شديدا ، فلا أراه يغني  
عني شيئا

خطر لي أن الحزن في سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور  
( ١٢ نى - النظرات )

لا تبلغه هذه الأداة القصيرة التي في يدي ، فاستبدات بها  
أداة أطول منها ، فكان حكمها حكم سابقتها  
إذن كيف أعبر عن وجدي أيها الفقيد الكريم ،  
وقد خرس القلم وعى اللسان ؟

الآن عرفت السبيل ، ووصلت إلى ما أريد  
أنت الآن في عالم الأرواح ، وقد انكشف لك كل شيء  
من أسرار النفوس ودخائل القلوب ، ولا بد أن يكون  
قد انكشف لك ما يكن قلبى من الوجد عليك ، والأسف على  
فراقك ، فما حاجتى بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان !  
أيها الراحل المودع : طبت حيا وميتا ، خدمت أمتك  
في حياتك ، وبعد مماتك ، لولا حياتك مانت العاطفة  
الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم  
أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها  
تجمعها كلمة واحدة ، هي حب الوطن ، وحب رجاله العاملين

## دمعة على الاسلام

كتب إلى أحد علماء الهند كتاباً يقول فيه إنه اطلع على مؤلفٍ ظهر حديثاً بلغة « التاميل » وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدارس، موضوعه تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني، وذكر مناقبه وكراماته، فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتبُ السيد عبد القادر ولقبه بها صفات وألقاباً هي بمقام الألوهية، أُلِيقُ منها بمقام النبوة، فضلاً عن مقام الولاية، كقوله « سيد السموات والأرض » و « النفع الضرار » و « المتصرف في الأكوان » و « المطلع على أسرار الخليقة » و « ومحيي الموتى » و « ومبرئ الأعمى والأبرص والأكمه » و « أمره من أمر الله » و « ماحي الذنوب »

و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجود التام » إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب

ويقول الكاتب إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه :

« أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءاً سابغاً ثم يصلي ركعتين بخُشوع واستحضار ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة ، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول : « يا صاحب الثقلين أغثنى وأمدنى بقضاء حاجتى ، وتفرج كربتى »

« أغثنى يا محي الدين عبد القادر ، أغثنى يا وليّ عبد القادر . أغثنى يا سلطان عبد القادر ، أغثنى يا بادشاه عبد القادر ، أغثنى يا خوجه عبد القادر »

يا حضرة الغوث الصمداني ، ياسيدى عبد القادر الجيلاني

عبدك ومريدك مظلومٌ عاجزٌ محتاجٌ إليك في جميع الأمور  
في الدين والدنيا والآخرة»

ويقول الكاتبُ أيضاً إن في بلدة «ناقور» في الهند  
قبراً يسمى «شاه الحميد» وهو أحدُ أولادِ السيد عبدالقادر  
كما يزعمون، وأن الهنودَ يسجدون بين يدي ذلك القبرِ  
سجودهم بين يدي الله، وأن في كل بلدة وقرية من بلدان  
الهند وقراها مزاراً يمثلُ مزارَ السيد عبدالقادر فيكون  
القبلة التي بتوجهها إليها المسلمون في تلك البلاد، والملجأ الذي  
يلجئون في حاجاتهم وشدائدِهم إليه، وينفقون من الأموال  
على خدمته وسدته وفي موالده وحضرته مالوا أنفقوا على  
فقراء الأرض جميعاً لصاروا أغنياء

هذا ما كتبه إلى ذلك الكاتب، ويعلم الله أني  
ما أتممتُ قراءةَ رسالته حتى دارتُ بي الأرضُ الفضاء،  
وأظلمت الدنيا في عيني، فما أبصرُ مما حولي شيئاً، حزنا وأسفاً  
على ما آلت إليه حالةُ الإسلام بين أقوامٍ أنكروه بعد

ما عرفوه ، ووضَعُوهُ بعد ما رفعوه ، وذهبوا به مذاهبَ  
لا يعرفُها ، ولا شأنُ له بها

أَيَّ عينٍ يَجْمَلُ بها أن تستبقيَ في محاجر هافطرةٍ واحدةٍ  
من الدمع فلا تَرِيقُها أمامَ هذا المنظرِ المؤثرِ المحزنِ منظرِ  
أولئك المسلمين وهم رُكَّعٌ سُجَّدٌ على أعتابِ قبرٍ ربما كان  
ينهم من هو خيرٌ من ساكنه في حياته ، فأحرى أن  
يكون كذلك بعد مماته !

أَيَّ قلبٍ يستطيعُ أن يستقرَّ بين جنبي صاحبه ساعةٍ  
واحدةٍ فلا يطيرُ جَزَعاً حينما يرى المسلمين أصحابَ دينِ  
التوحيدِ أكثرَ من المشركين إشرًا كآبائِهِ ، وأوسعهم دائرةً  
في تعدُّدِ الآلهةِ وكثرةِ المعبوداتِ !

لَمْ يَنْقِمِ المَسَامُونُ التثليثَ من المسيحيين ، ولم  
يحملون لهم في صدورهم تلكَ المَوْجِدَةَ وذلكَ الضغنَ ، وعلامَ  
يحاربونهم ، وفيهمَ يقاتلونهم ، وهم لم يبلغوا من الشرك بالله  
مبلغهم ، ولم يفرقوا فيه إغراقهم ؟

يدين المسيحون بآلهةٍ ثلاثةٍ ، ولكنهم يشعرون

بغرابة هذا التعدّد ، وبعده عن العقل ، فيتأولون فيه ويقولون  
إن الثلاثة في حكم الواحد ، أما المسلمون فيدينون بآلاف  
من الآلهة أكثرها جذوع أشجار ، وجثث أموات ، وقطع  
أحجار ، من حيث لا يشعرون

كثيراً ما يضرر الانسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر  
به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس  
باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين  
الذين يلجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ،  
ويتضرعون إليهم تضرعهم للاله المعبود ، فاذا عتب عليهم  
في ذلك عاتب قالوا إنا لا نعبدكم ، وإنما نتوسل بهم إلى الله ،  
كانهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه ، وأن أكبر مظهر  
للوهية الاله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين  
خاشعين ، يلتمسون امداده ومعونته ، فهم في الحقيقة  
عابدون لأولئك الاموات من حيث لا يشعرون  
جاء الاسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين .



وَيَغْرِسَ فِي قُلُوبِهِمُ الشَّرْفَ وَالْعِزَّةَ ، وَالْأَنْفَةَ وَالْحِمَةَ  
وَلِيَعْتَقَ رِقَابَهُمْ مِنْ رِقِّ الْعِبُودِيَّةِ ، فَلَا يَذُلُّ صَغِيرُهُمْ لَكَبِيرِهِمْ ،  
وَلَا يَهَابُ ضَعِيفُهُمْ قُوَّتَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ لَذِي سُلْطَانٍ يَنْهَمُ  
سُلْطَانٌ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَقَدْ تَرَكَ الْإِسْلَامُ بِفَضْلِ عَقِيدَةِ  
التَّوْحِيدِ ذَلِكَ الْأَثَرَ الصَّالِحَ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَصُورِ  
الْأُولَى ، فَكَانُوا ذَوِي أَنْفَةٍ وَعِزَّةٍ ، وَإِبَاءٍ وَغَيْرَةٍ ، يَضْرِبُونَ عَلَى  
يَدِ الظَّالِمِ إِذَا ظَلَمَ ، وَيَقُولُونَ لِلْسُّلْطَانِ إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ فِي سُلْطَانِهِ  
قِفْ مَكَانَكَ ، وَلَا تَغْلُ فِي تَقْدِيرِ مَقْدَارِ نَفْسِكَ ، فَانْمَا أَنْتَ  
عَبْدٌ مُخْلَقٌ ، لَا رَبٌّ مُعْبُودٌ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ،  
أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطنِ  
نارَةً ، وَالظَّاهِرِ أُخْرَى ، فَقَدْ ذَلَّتْ رِقَابُهُمْ ، وَخَفَقَتْ رُءُوسُهُمْ ،  
وَضَرَعَتْ نَفُوسُهُمْ ، وَفُتِرَتْ حِمِيَّتُهُمْ ، فَرَضُوا بِخَطَةِ الْخُسْفِ ،  
وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْمَنْزِلَةِ الدُّنْيَا ، فَوَجَدَ أَعْدَاؤُهُمُ السَّبِيلَ إِلَيْهِمْ ،  
فَغَلَبُوهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ ، وَمَلَكَوْا عَلَيْهِمْ نَفُوسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ،

ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين  
والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا  
ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا اذا  
استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد ، وإن  
طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء النهر في منبعه ،  
أقرب من رجوع الاسلام الى سالف مجده مادام المسلمون  
يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون  
للاول كما يقولون للثاني « أنت المتصرف في الكائنات ،  
وأنت سيد الأرضين والسموات »

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه  
ويحتقرونه ، ويتخذونه وراءهم ظهيرياً ، فاذا نزلت بهم جائحة ،  
أو ألت بهم ملة ، ذكروا الحجر قبل أن يذكروه ، ونادوا  
الجذع قبل أن ينادوه

بمن أستغيث ؟ وبمن أستنجد ؟ ومن الذي أدعو لهذه

الملمة الفادحة ؟ أَدْعُو علماء مصرَ وهم الذين يتهافتون على يوم  
« الكنسة » <sup>(١)</sup> تهافتَ الذبابِ على الشرابِ ؟ أم علماء  
الآستانةِ وهم الذين قتلوا جمال الدين الافغانى فيلسوف الاسلامِ  
يحيوا أبا الهدى الصيادى شيخ الطريقة الرفاعية ؟ أم علماء  
المعجمِ وهم الذين يحجون إلى قبر الامام ، كما يحجون الى  
البيت الحرام ؟ أم علماء الهندِ وبينهم أمثالُ مؤلفِ هذا  
الكتاب ؟

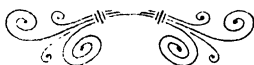
يا قادة الأمةِ ورؤساءها ، عذرنا العامة في إشراكها  
وفسادِ عقائدها ، وقلنا إن العامى أقصرُ نظرًا وأضعفُ بصيرةً  
من أن يتصورَ الألوهيةَ إلا إذا رآها ماثلةً في النصبِ  
والتماثيلِ ، والأضرحةِ والقبورِ ، فما عذرُكم أنتم وأنتم تتلون  
كتابَ الله ، وتقرءون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله  
تعالى « لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ » وقوله مخاطبًا نبيه « قل :

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الامام الشافعى للتبرك  
بكنس ترابه

لَا أُمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » وقوله « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »

إنكم تقولون في صباحكم ومساءلكم ، وغدوكم ورواحكم ، كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداء من خلف ، « فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يخصصون قبراً ، أو يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته ، يسأله قضاء حاجة ، أو تفريج كربة ؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ؟ وهل تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً ، أم مخافة أن تعبد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل ، وبين الأضرحة والقبور ، مادام كل منها يجر إلى الشرك ، ويُفسد عقيدة التوحيد ؟ »

والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتُم الحياةَ  
الدنيا على الآخرة . فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ،  
وانتقاص أمركم ، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم ،  
ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديدُ  
العقاب



## السياسة

حضرة السيد الفاضل :

مالك لا تُكثِرُ من الكتابة في الشؤون السياسية ،  
إكثارك منها في الشؤون الاخلاقية والاجتماعية ؛ وكيف  
يضيقُ بالسياسة قلمك وقد وسع ما هو أدقُّ مذهباً منها ؛  
فاكتب لنا في السياسة ، فأمتك تُحبُّ أن تراك سياسياً ،  
والسلام م ( فلان )

أيها الكاتب :

يعلم الله أني أبغضُ السياسةَ وأهلها بغضى للكذبِ  
والغش ، والخيانة والغدر  
أنا لا أُحبُّ أن أكونَ سياسياً ، لأنني لا أُحبُّ أن  
أكونَ جلاًداً

لا فرق عندى بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد، وأولئك يقتلون الأمم والشعوب هل السياسىُّ إلا رجلٌ قد عرفت أمتَه أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقى منه قلباً ، ولا أعظم كيداً ، ولا أكثر دهاءً ومكرًا . فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، وأجزل لها من الخيرات أليس أكبر السياسيين مقاماً ، وأعظمهم نفراً ، وأسيرهم ذكراً ، ذلك الذى نقرأ صفحات تاريخه فترى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء ؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذباً فى أقواله وأفعاله ، يبطن ما لا يظهر ، ويظهر ما لا يبطن ، ويبسم فى موطن البكاء ، ويبكى فى موطن الابتسام ؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا عرف أن بين جنبه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ، ولا تزججه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرقُ السارقُ، فاذا قضى مآرَبَهُ من عمله  
 رفع يديه إلى السماء متضرعاً إلى الله تعالى أن يرزقه المالَ  
 حلالاً، حتى لا يتناولَه حراماً، وكثيراً ما يقتلُ القاتلُ،  
 فاذا فرغ من أمره، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء  
 الثاكلِ وحيدها، ويتمنى بِجَدْعِ الأُنفِ لو ردَّ إليه حياته،  
 واقتداه بنفسه، أما السياسيُّ فلا يرى يوماً في حياته أسعدَ  
 من اليوم الذي بعلمُ فيه أن قد تم له تديرُهُ في هلاكِ  
 شعبٍ، وقتلِ أمةٍ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره كما  
 يُسمِّيه هو، أو في يوم جريمته كما أسميه أنا وتسميه العدالةُ  
 الانسانيةُ، يسمعُ هتافَ الهاتفين باسمه واسمِ الجريمة التي  
 ارتكبها مطمئن القلبِ، منلج الصدر، حتى ليُخَيِّلُ اليه  
 أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيقُ من أن يسعَ قلبه الطائرُ  
 المخلِّقَ فرحاً وسروراً

يقولون إن السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها  
 الانسانُ في مدرسة، أو يدرسها في كتاب، وإنما هي مجموعةُ  
 أفكارٍ قانونها التجاربُ، وقاعدتها العملُ، أتدرى لماذا؟



لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكائد والحيل  
 في كتاب ، ولأن المدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس  
 الأخلاق والآداب ، دروس الأكاذيب والأباطيل ،  
 وإلا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها  
 تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علماً  
 هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم ،  
 فهل تظن ياسيدي أن رجلاً نصب نفسه لخدمة الحقيقة ،  
 ومُنَاصَرَتِها على الباطل ، واستنقاذ الفضيلة ، من مخالب  
 الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس ، وترقية الأخلاق ،  
 وملاً في رسائله فضاء الأرض والسماء بكاءً على الضعفاء  
 والمساكين ، والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع أن يكون  
 سياسياً ، أو محباً للسياسيين ؟

## خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا إن الكتاب يُعرفُ بعنوانه ،  
 فإني لم أرَ بين كتبِ التاريخِ أ كذبَ من كتاب بدائع  
 الزهور ، ولا أعذبَ من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب  
 أسخفَ من كتاب جواهر الأدب ، ولا أرقَ من اسمه ،  
 كما لم أرَ بين الشعراءِ أعذبَ أسماءً ، وأحطَّ شعراً ، من  
 ابن مليك وابن النبيه والشابِّ الطريف

لقد كثُرَ الاختلافُ بين العناوين وبين الكتبِ حتى  
 كدنا نقولُ إن العناوين أدلُّ على نقائضها منها على مفهوماتها ،  
 وألصقُ بأصدادها منها بمنطوقاتها ، وإن العنوانَ الكبيرَ  
 حيثُ الكتابُ الصغيرُ ، والكتابُ الجليلُ ، حيثُ  
 العنوانُ الضئيلُ

الاتقياء

لولا خداعُ العناوينِ ما سمَّينا صالحاً تقياً كلَّ من  
حركُ سُبحتهُ ، وأطالَ لحيتَه ، ووسَّعَ جُبَّتهُ ، وكوَّرَ عمامتهُ ،  
ولقد نعلمُ أن وراءَ هذا العنوانِ الأبيضِ كتاباً أسودَ  
الصفحاتِ ، كثيرَ السقطاتِ ، وأن تحتَ هذا الستارِ الحريرِ  
الرقيقِ نفساً سوداءَ مظلمةً ، لا ينفذُ إليها شعاعٌ من أشعةِ  
الرحمةِ ، ولا تهبُ عليها نسمةٌ من نسيماتِ الاحسانِ

لن يؤمنَ المؤمنُ حتى يبذلَ في سبيلِ الله ، أو في سبيلِ  
الجماعةِ ، من ذاتِ نفسه ، أو ذاتِ يده ، ما يشقُّ على مثله  
الجودُ بمثله ، أما الجودُ بالشفاهِ للهممةِ ، والأناملِ  
للمسبحةِ ، فعملٌ لا يتكفُّ صاحبهُ له أكثرَ مما يتكفُّ  
لتقليبِ ناظرِيه ، وتحريكِ مُهديه ، وهل خلقتُ الشفاهُ  
إلا للتحريكِ ، والأناملِ إلا للتقليبِ

إن للإيمانِ مواقفَ يمتحنُ اللهُ فيها عباده ليعلمَ الذين  
صدَّقوا ويعلمَ الكاذبين ، فإنَّ بذلَ الضنينِ بماله ماله

فى مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه  
فى سبيل الذود عن حوضه ، والذب عن عشيرته وقومه ،  
وضيف العزيمة ما يملك من قوة وأيدٍ فى مغالبة شهوات  
نفسه ومقاومة نزواتها ، فذلك المؤمن الذى لا يشوب  
ايمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب ،  
أولاً ، فأهون بهيمته ودمدمته ، ومسواكه ومسبحته ،  
وهو بعنوان المنافق الكاذب ، أجدر منه بعنوان التقي  
الصالح ، « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ  
لَا يُفْتَنُونَ »

### الامجاد

يقولون إن الولد سرأيه ، ويريدون بذلك أنه المرأة  
التي ترتسم فيها صورته ، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ،  
وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد ، فأعظموا شأن  
الرجل الذى يمسك بطرف سلسلة فى النسب يتصل طرفها  
الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، أو شريف من شرفاء  
الآخلاق

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون  
 في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابة الذين يسمونهم  
 أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا ، والسفاحين الذين  
 يسمونهم قوادا ، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم  
 الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد ، فسمّوا ماجداً  
 كل من وُلد في فراش ملك ، وإن كان الحاكم بأمر الله ،  
 أو أمير ، وإن كان الحجاج ، أو وزير ، وإن كان ابن الزيات ،  
 أو قائد ، وإن كان تيمور لنگ ، أو غنى وإن كان قارون

لا مجدَ الا مجدُ العلم ، ولا شرف إلا شرفُ التقوى ،  
 ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الانسانية المعذبة ، رحمة  
 بها ، وحناناً عليها

أولئك هم الأُمجاد ، وأولئك الذين يفخر الفاخرُ  
 بالانصال بهم ، والانماء اليهم ، وأولئك هم المفلحون

### الاغنياء

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض

وراء لُقمةٍ يتبَلَّغون بها ، أو خرقة يتقون بها لفحةَ  
 الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون  
 فحة الليل بكاءً ونحيباً على صغار كفراخ القطا يتلوّون  
 في مضاجعهم من الجوع تلوى الأفاعى المضطربة ، فوق الرمال  
 الملتهبة ، وتحت الشمس المحرقة ، أسوأ حالاً ، ولا أنكد  
 عيشاً ، ولا أعظم شقاءً ، من هؤلاء الفقراء ، الذين يسميهم  
 الناس أغنياء

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ،  
 وينام كما ينام ، ويتشهى كما يتشهى حتى لتكاد تثب أمعاؤه من  
 جوفه ، وتسيل أحشاؤه من بين أشدافه ، شوقاً الى ما حرم على  
 نفسه من أطيب العيش ولذائذه ، ويستن<sup>(١)</sup> استنان الجواد  
 الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر  
 أنفاسه ، وتتخاذل أوصاله ، حتى لو تخيل أن نجوم السماء  
 دنائيرٌ منشورةٌ ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاوياً ، أو أن

(١) استن الجواد عداءً شديداً

في بطن الأرض كنزاً مذخوراً ، لمتنى أن لو انفجر بركانها  
تحت قدميه ، فابتلعتة فأصبح من الهالكين  
الغنى هو الغنى بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير  
هو الذى لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ، ولا تقف به نفسه  
عند مطمع

فانظر تحت أى عنوان من هذين العنوانين تضع  
البخلاء الموسرين ؟ ؟

### المجرمون

حضرت مجلساً من مجالس الأحكام حكم فيه قاضٍ  
مرتشٍ على متهم سرق رغيماً ، فوضعت يدي على فمي مخافة  
أن يخرج أمرُ نفسى من يدي فأهتف صارخاً لما ألمَّ بقلبي  
من الرعب والفرع صرخةً تدوى بها جوانب القاعة دوى  
الموج الثائر ، فى البحر الزاخر ، قائل فيها مهلاً رويداً أيها الحاكم  
الظالم ، فأنت الى قاض عادل ، تقف بين يديه ، أحوج منك  
إلى كرسى نخم ، تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين

هذا المائل بين يديك لَبِتْ وأَعْلَا كما الأُسْفَل  
 إنك تَرْتَوِق في كل شهر ثلاثين ديناراً ، فلم تَرْتَش إلا  
 لأنك شرهٌ طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيفَ إلا  
 لأنه جائع ملتماع ، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته  
 التي فعل ، فأنت مجرم ، إلا أنك في وشاح شريف ، وهو  
 شريف ، إلا أنه في شملة مجرم

فيالله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول  
 الناس فيها العناوين

رُبَّ نفس بين جدران السجونِ أطهر قلباً ، وأنقى رُذْناً ،  
 وأبيض عِرضاً ، من مثليها بين جدران القصور ، ورب طريدة  
 من طرائد المجتمع الانساني ساقها المقدار الذي لا مفرّ منه  
 إلى وقفَةٍ بين أعواد المشنقة كان أجدر بها ذلك المرابي  
 الذي ينصب رحبالةً ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل  
 النفوس الطاهرة ، أو ذلك القائد الذي يسفك في موقف  
 واحد من مواقفه دَمَ مائة ألف أو يزيدون ، في غير سبيل



سوى سبيل المجد المصنوع ، والفخر الموضوع ، أو ذلك  
السياسى الذى يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة  
فى سرنبها ، سعيدة فى عيشها ، فيستعبد أحرارها ، ويستذل  
أغزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها ، من حريتها واستقلالها ،  
وسعادتها وهناءتها ،

### المتعمدينون

ليس بين المصرى وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين  
لقب الشاب المصرى أو الانسان الراقى إلا أن يصقل  
جبهته ، ويصفف طرته ، ويفتح فمه للابتسام المتصنع ،  
ويقوس يده للسلام المتعمل ، ويكثر فى حديثه من ذكر  
المدنية الغربية وشؤونها ، وسرد أسماء نساؤها ورجالها ،  
وطرفها ونوادرها ، ويستحسن ما تستحسنه ، وإن كان البراز  
والانتحار ، ويستطرف ما تستطرفه ، وإن كان الزندقة  
والالحاد ، ثم يزعم أنه أرقى الناس أدبا ، وأحسنهم  
أخلاقا ، وأدقهم نظرا فى إدراك سقطات الناس وعثراتهم ،

وتحليل طبائعهم وغرائزهم ، ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين أن يكون فاسقاً ينتهك الحرمات ، أو مُدمنًا يترامى على أعتاب الخانات ، أو أحمق لا يصفح عن ذنب ، ولا يفضى عن هفوة ، أو سفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانة ، ووالده وأستاذة ، أو وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ، ولا يستغذى لمروءة ، أو شحيحاً لا يشرك صاحبه في مطعم ولا في مشرب ، ولا يفتح بابَه لضييف زائر ، أو طارق حائر ، زاعماً أن التمدين شيء ، وذاك شيء آخر

إن كان حقاً ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخسنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الأخلاق الجافية ، ويوسع الصدور الحرجة . فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون

\*  
\* \*

لو كان بي أن أكتب لنحو الفساد من المجتمع الانساني ، والقضاء على شروره وآثامه ، لما حركت يداً ، ولا جرّدت ( ١٥ نى - النظرات )

قلمًا ، لأننى أعلم أن طلبَ المُحالِ عثرةٌ من عثرات النفوس ،  
 وِضلةٌ من ضلالات العقول ، ولكننى أطلبُ مطلبًا  
 واحدًا لأرى فى عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين  
 تصوره وإدراكه ، هو أن يهذبوا قليلًا من هذه المصطلحات  
 التى أنسوا بها ، والعناوين التى جمدوا عليها ، فلا يسمون  
 المنافقَ تقيًا ، ولا المتمجدَ ماجدًا ، ولا البخيلَ غنيًا ،  
 ولا الفقيرَ مجرمًا ، ولا المتوحشَ متمدينًا ، حتى لا ينزعَ  
 محسنٌ عن إحسانه ، ولا يستمرَّ مسيئٌ فى إساءته



## الاغراق

بين الاغراق في المدح ، والاغراق في الذم ، تموتُ  
الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون

يسمع السامعُ أن زيدا ملكٌ كريم ، ثم يسمعُ أنه  
شيطان رجيم ، فيخرجُ منه صِفَرُ اليدين ، لا يعلم أين مكانه  
من هذين الطرفين

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس  
علقوا في سقف من السقوف قطعةً من المغناطيس ووضعوا  
مقابلها في الارض قطعةً أخرى ، ثم يتركون في الفضاء  
قطعةً من الحديد لاتزال تضطربُ بين هذين الجاذبين  
هكذا تضطرب الحقيقةُ في أيدي المغرّقين ، اضطرابَ  
الحديدة في أيدي المشعوذين

الحقيقةُ بين الكاذب والكاذب ، كالحبل بين الجاذب  
والجاذب ، كلاهما ينتهى به الأمر الى الانقطاع  
لو علم الذى ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص  
أنه جالسٌ على كرسى القضاء ، وأن الناس سيسألونه عما قال ،  
كما يسألون القاضى عما حكم ، ما طاش سهمه فى حكمه ، ولا  
ركب متن الغلو فى تقديره

كما أنه يجب على القاضى أن يقدر لكل جريمة  
ما يناسبها من العقوبة ، كذلك يجب على الكاتب أن يضع  
كل شخص فى المنزلة التى وضعت فطرته فيها ، وأن لا يعلو  
يه فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ فى التاريخ  
القديم متناقضات الحكم على الأشخاص ، وليس بينهم من  
لم يتمن أن يكون فى موضع أولئك المؤرخين المتطرفين ،  
حتى لا يفلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم فى أحكامهم  
أيها الكتابُ المحزنون : لا يحزنكم ما كان ، فقد

مضى ذلك الزمانُ بخيره وشره ، ولا سبيلَ إلى رجوعه ،  
ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصرِ الماضي ، فلن يفوتكم  
أن تكونوا مؤرخي العصرِ الحاضر ، وكما أن للماضي مستقبلاً  
وهو حاضرٌ كم هذا ، فسيكون لهذا الحاضرِ مستقبلٌ آتٍ  
يحاسبُكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون  
اليومَ رجالَ الماضي على غلوكم في أحكامهم ، وتطرفهم  
في آرائهم

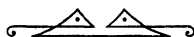
إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا  
من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتأخذوا  
عليهم ما أنتم به آخذون

كلُّ كاتبٍ عندهم أكتبُ الكتاب ، وكلُّ شاعرٍ أشعرُ  
الشعراء ، وكلُّ مؤلفٍ أعلمُ العلماء ، وكلُّ خطيبٍ رئيسُ  
الأمة ، وكلُّ فقيهٍ إمام الدين ، فأين الفاضلُ والمفضول ،  
وأين الرئيسُ والمرءوس ؟ وكيف يكون زيدٌ اليوم أفضلَ  
من عمرو ، ويكون عمرو غداً أفضلَ منه ؟ وأين ملكة

التمييز التي وهبكم الله إياها ، لتميئزوا بها بين درجات الناس  
ومنازلهم ؟ وهل بلغ التفاوتُ بينكم في عقولكم وأذواقكم  
أن يكون الرجلُ الواحد في نظر بعضهم خيرَ الناس ،  
وفي نظر البعض الآخر شرُّ الناس ؟؟

إني حبستُ الآنَ قلماً عن الكتابة لا تجردَ من  
نفسى ساعة من الزمان فتخيلتُ كأني رجل من رجال  
العصور الآتية ، واني ذهبت إلى دار من دور الكتب  
القديمة لأراجعَ تاريخَ أحدِ عظماء عصركم هذا ، فقرأت  
ما كتبته عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيتُه نارة عظيمة ،  
وأخرى حقيراً ، ومرةً شريفاً ، ومرةً وضيعاً ، ورأيتُه عالماً  
وجاهلاً ، وذكياً وغيبياً ، وعاقلاً وممروراً<sup>(١)</sup> في آن واحد ،  
نفخرتُ أضلُّ مما دخلت ، لا أعرفُ من تاريخ الرجل  
أكثرَ من أنه رجل ، أى أنه ذكرٌ بالغ من بني آدم  
أيها القومُ : إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً

عادلين في أحكامكم وآرائكم إلا إذا أصلحتُم نفوسكم أولاً ،  
وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم  
وأغراضكم ، قبل أن تتناولوا أقلامكم  
أيها القوم : إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين ،  
فكونوا راحمين ، فارحموا أنفسكم ، واعفوها من الدخول  
في مآزق أنتم عاجزون عنها ، وارحمونا ، فقد ضاقت  
صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات





## اللقطة

مرّ عظيمٌ من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة  
الأحياء الوطنية في ليلة من ليالى الشتاء ، ضريح نجمها ،  
حالكٍ ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة  
في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء<sup>(١)</sup> وقد وضعت  
رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذى كان يعبثُ بها عبثَ  
النكباء بالعود ، وليس فى يدها ماتتقيه به الا أسمالٌ تترأى  
مِرْقَمها<sup>(٢)</sup> فى جسمها العارى كأنها آثارُ سياطِ المستبدين ،  
فى أجسام المستعبدين

وقف الرجلُ أمام هذا المشهدِ المحزن المؤثر وقفةً  
الكريم الذى تؤله مناظرُ البؤس ، وتزعجُ نفسه مواقفُ  
الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفقٍ ،

(١) القرفصاء أن يحنى الرجل يديه فيضمهما على ساقيه وهو جالس

(٢) المِرْقَم القطم

فرفعت رأسها مرتاعةً مذعورة ، وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح « لأعود ، لأعود » فلم يزل يمسحها <sup>(١)</sup> ويروضها ، حتى هدأ روعها ، وعاد إليها رشدها ، وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ، فنظرت إليه نظرةً لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدث عما وراءها من لواجب الأحران ، وكوامن الأشجان

— ما اسمك أيتها الفتاة ؟

— لأعلم ياسيدي

— بماذا ينادونك ؟

— يدعونني اللقطة

— وهل أنت لقطة كما يقولون ؟

— نعم ياسيدي ، لأنني لأعرف لي أباً ولا أمّاً ،

في الأحياء ولا في الأموات ، سوى رجل يتولى شأني ، ويضمّني إليه في منزله ، وكنت أحسبه أبي فيمتلئ قلبي

(١) مسحه أمر يده عليه

سروراً به ، وعظماً عليه ، فلما رأيتُ أنه يعذبني عذاباً أليماً ،  
ويُحْمِلُنِي مِنْ أَثْقَالِ الْحَيَاةِ وَأَعْبَائِهَا مَا لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا بَاءُ أَبْنَاءِهِمْ ،  
علمتُ أني وحيدةٌ في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي  
يناديني بها ، فألمٌ بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به ،  
وكنْتُ كُلَّامٍ مشيت في الطريق ، ورأيت فتاةً صغيرةً  
سألتها : ألك أم ؟ فتجيبني نعم ، ثم تقص علي من قصص نعمتها  
ورفاقتها ، وعطفِ أمها عليها ، ورأفتها بها . ما يزيدني  
هما ، ويملاً قلبي يأساً ، حتى كان يخيل إلي أنني أذنبتُ قبل  
وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود ،  
بيد أنني صبرتُ على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من  
التسول على قارعة الطريق ، إبقاءً على نفسي ، وضناً بحياتي ، أن  
تفتأ لها غوائلُ الدهر ، وكان كلما رأي حاجتي إليه وإلى مأواه  
اشتطت في ظلمي ، ولو لم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً  
مُبرِّحاً كلما عدت إليه عشاءً بأقل من المبلغ الذي فرض علي  
تقديمه في كل يوم ، ولم أزل أصابره واحتمل منه ما يعجز عن

احتماله مثلى بُرْهَةً من الزمان حتى جاءنى الليلة بداهية  
الدواهى ، ومصيبة المصائب ، فقد حاول أن يسلب من بين  
جنىّ جوهرة العفاف التى لم يبقَ فى يدى ما يعزىنى عما  
فقدته من هناة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر لى بُدّاً  
من أن أفرّ من بين يديه متسللة تحت جناح الظلام  
من حيثُ لا يرانى ، وما زلتُ أمشى على غير هدى ،  
لأعرف لى مذهباً ولا مضطرباً ، حتى أويت الى هذا  
الزقاق كما ترانى ، فهل لك ياسيدى أن تُحسنَ الىّ كما أحسن  
الله اليك ؟ وأن تبْتَاع لى رغيفاً من الخبز أتبلّغ به ، فقد مر  
بى يومان لم أذق فيهما طعاماً ولا شرباً ؟

لم يسمع الرجلُ من الفتاة هذه القصةَ المحزنة حتى  
استقبلها بدموع حارة تنحدرُ على خديه انحدارَ العقْدِ  
وَهى سلكه فانتثر ، ثم اخذ بيدها ومشى بها صامتاً  
واجماً يكاد لا يهتدى لسبيله حتى بلغ قصره ، وهناك صنع  
بها صنْعَ الكريمِ بأهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن

تَمَنَّى نَفْسَهَا بِالْوَشَلِ الْقَلِيلِ مِنْهُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ  
حَتَّى ظَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ الْعَظِيمِ فَتَاةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ  
أَجْمَلِ الْفَتَيَاتِ وَجْهًا ، وَأَرْقَمَنِ شَمَائِلَ ، وَأَكْرَمَنِ أَخْلَاقًا ،  
وَأَكْمَلَنِ آدَابًا ، لَا يَعْرِفُ النَّاسُ عَنْهَا سِوَى أَنَّهَا ابْنَةُ قَرِيبٍ  
لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان إلى هذا  
القصر مَصِيرُهَا

وكان لصاحب القصر فتاةٌ من الفتيات اللواتي رُبِنَ  
التربيةَ الحديثةَ التي يسمونها « التربية المصرية » ويريدون  
منها التربيةَ الأفريقيةَ ، فكان كل ما حصلت عليه من  
العلوم والمعارف الفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجرى ، وكلبها  
الرومى

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة

(٣) البراعة في معرفة أى الأزياء أعلق بالقلوب ، وأجذب

للنفوس

(٤) السكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها

حتى أبویها

(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرةً وحسداً ،

حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفاً من أوصاف الحسن  
يوصفُ به سواها

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلباً  
أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من  
جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع ، وعذوبة في النفس ،  
فأضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضره  
دائماً أمثالها من اللواتي روين تربيتها ، ونهجن في الحياة  
منهجها ، فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها ، وتغري  
بتبكيها وتأنيبها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا ، وفاءً  
لسيدها وولى نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول إلى منزلة  
من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم  
الحادثة الآتية :

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو

صاعد في السلم إذ عثر برُقعة ملقاة فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة  
سيدتي : -

أنا منتظرُك عندُ منتصفِ الليل في بستانِ القصر تحت  
شجرة السَّروِ المعهودة (حبيبك)  
فما أتم الرجلُ قراءة الرُّقعة حتى دارت به الأرض الفضاء ،  
وحتى لمس قلبه يمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقياً فيه ،  
ثم كأنه أراد أن يخففَ ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال  
لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقطة ، ومن الظلم أن أتعجلَ  
بأثمهم ابنتي قبل أن أقفَ على الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا  
الساعة قريبة ، فرجع أدراجَه وما زال يترقبُ في مشيته  
ويتنقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى  
شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظرُ ماخبأ له الدهرُ من حدثاته  
وما أضمر له الغيبُ في طياته

لم تكن الرسالة رسالة الفتاةِ الوضيعة ، بل رسالة  
السيدة الشريفة ، وبينما كانت الثانية واقفةً في غرفتها أمام  
مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بموقف اللقاء ،

كانت الأولى نائمةً في غرفتها نوماً هادئاً مطمئناً لا تزعجه زورة الطَّيف ، ولا تروعه أحلامُ الشباب ، حتى سمعت وقعَ أقدام سيدها على سلم القصر فالتيقظت ، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعرُ بمكانها فعرفت كل شيء ، وعلمت أن سيدها سيقفُ على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانهُ زمنًا طويلاً ، وأنه لابدَّ قاتل نفسه في ذلك الموقفِ حزناً وبأساً ، فعناها من أمره ماعناها ، ثم أطرقت برأسها لحظةً تتلمسُ وجه الحيلة في دفع هذه النازلة ، وتتطلب المخرجَ منها ، ثم رفعت رأسها وقد قررت في نفسها أمراً نزلت مسرعةً من سلم القصر فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها وأمسكت بإطراف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت إليها وقالت لها ماذا تريدني مني ؟ أتجسسين عليّ ؟ قالت لها لا ياسيدي ، وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى مُنتهاها ، فسقطَ في يدها وعلمت أن أباه قد وقف على سرّها ، فقالت لها لا تزعجي نفسك



فان أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب ، فعودى إلى عُرفتك  
وسأذهبُ إلى الموعد مكانك ، حتى إذا رآنى هناك ذهب  
من نفسه ما كان يخالجه من الشك فى أمرك

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة ،  
وهناك برز الرجل من مكنه واقترب منها حتى عرفها ، فحمد  
الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ثم قال لها :

أيها الفتاة . إني أحسنت إليك ، واستنقذتك من يد  
البؤس والشقاء ، فأسأت إلى بما فعلت ، حتى كدت أهلك  
الليلة حزنا وكداً ، وأُصِيقُ بابنتى ذنبك ، وأحملُ عليها عارك ،  
فاخرجى من منزلى ، فاللئيم ليس أهلاً للاحسان

فخرجت خائبةً تتمترُ فى أذيالها حتى وصلت إلى شاطئ  
النهر ، وهناك أخرجت مذكرتها من محفظتها وكتبت  
فيها آخر كلمةٍ خطتها أناملها : —

« أحمدُ الله أنى قدرتُ على مكافأة ذلك الرجل الذى  
أحسن إلى بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه ،

ثم أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا فِي النِّهَرِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا دَوْرَةٌ أَوْ  
دَوْرَتَانِ حَتَّى افْتَرَقَ ذَانِكَ الصَّدِيقَانِ الْوَفِيَانِ ، جَسْمُهَا  
وَرُوحُهَا ، فَطَفَا مِنْهُمَا مَا طَفَا ، وَرَسَبَ مَا رَسَبَ

وَفِي صَبَاحِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَثَرَ رِجَالُ الشَّرْطَةِ بِجِثَّةِ الْفَتَاةِ  
الشَّهِيدَةِ فَعَرَفُوهَا وَعَادُوا بِهَا إِلَى مَنْزِلِ سَيِّدِهَا ، فَبَكَاهَا  
بَكَاءَ كَثِيرًا ، وَنَدِمَ عَلَى مَا أَسَاءَ بِهِ إِلَيْهَا مِنْ طَرْدِهَا وَإِزْعَاجِهَا ،  
ثُمَّ أَمَرَ بِدَفْنِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ فِي يَدِهِ مِنْ آثَارِهَا غَيْرُ حَقِيبَتِهَا ،  
فَحَفَظَهَا فِي صُنْدُوقِهِ تَذْكَارًا لَهَا

مَرَّتِ الْإَيَّامُ تَلَوًّا الْإَيَّامُ ، وَجَاءَتِ الْحَوَادِثُ إِثْرًا الْحَوَادِثِ  
وَوُظِّهَ لِلرَّجُلِ مِنْ أَخْلَاقِ ابْنَتِهِ وَطِبَاعِهَا ، وَتَهْتَكُهَا وَاسْتَهْتَارِهَا ،  
مَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ ، حَتَّى ضَاقَ بِأَمْرِهَا ذَرْعًا ، وَجَلَسَ  
فِي غُرْفَتِهِ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي يَفْكُرُ فِيمَا سَاقَ إِلَيْهِ الدَّهْرُ مِنْ  
خُطُوبِهِ وَرِزَايَاهُ ، ثُمَّ أَلَمَّ بِهِ الضُّجْرُ فَقَامَ إِلَى صُنْدُوقِهِ  
يَفْتَشُ عَنْ شَيْءٍ يَتْلَاهُ بِهِ فَمَثَرُ بَتْلِكَ الْحَقِيبَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ

فتحها قبل اليوم ، فانه لَيَقْرَأُ فيها إذ عثر بتلك الكلمةِ  
 الأخيرةِ التي كتبَها الفتاةُ على شاطئِ النهر قبل موتها ،  
 فما أتى على آخرها حتى عرف كلَّ شيءٍ ، فسقط مغشياً عليه  
 يعالجُ من الحزن والألم ما يعالجُ المحتضرُ من سكرات الموت  
 وما استفاق من غشيته حتى صار يهذى هذيانَ المحموم ،  
 ولبت على هذه الحال بضعةَ أشهرٍ يمرضُ ثم يُبَلِّ ، ثم يمرضُ  
 ثم يُبَلِّ ، حتى أدركته رحمةُ الله فرض مرضاً لم ينقضِ إلا  
 بانقضاء أجله

فيأبها الوالدُ المجهولُ الذي قذف بتلك الفتاةِ البائسةِ  
 في بحر هذا الوجودِ الزاخر ، أَعْلِمْتَ قبل أن تفعل فعلتكِ  
 التي فعلتِ أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاةً تلاقى من شقائه  
 وآلامه ما لا قبل لها باحتماله ؟؟

ويأبها الاباءُ العظماءُ : إن كنتم تريدون أن تُسَلِّمُوا  
 بناتكم إلى هذه المدينةِ الغريبةِ تتولى عنكم شأنهن ، وتكفلُ  
 لكم تربيتَهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائزَ الشهامةِ

والعزة ، والاباء والأنفة ، حتى إذا رزأكم الدهرُ فيهن ،  
 وفجعكم في أعراضهن ، وقفتم أمامَ ذلك المشهدِ هادئين  
 مطمئنين ، لاتتعذبون ولا تتألمون

ويأيتها الناسُ جميعاً : لاتحفلوا بعد اليوم بالأنساب  
 والأحساب ، ولا تفرقوا بين تربية الأكوخ ، وتربية  
 القصور ، ولا تعتقدوا أن الفضيلةَ وَقَفَتْ على الاغنياء ،  
 وحبائسُ على العظماء ، فقد علمتم ما أضمر الدهرُ في طيات  
 أحداه من رذائل الشرفاء ، وفضائل اللقطاء



## الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجدُ في ضريح السيد البدوي صندوقٌ توضع فيه  
النذورُ ، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فاذا  
فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع  
مما فيه ، والباقي يوزعُ على أصحاب الأنصبه الكثرين الذين  
يعدون بالملئات ، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية ، مع أن  
الذين يأخذون الألوف أغنياء ؛ والذين يأخذون الآحاد  
فقراء ؛ أفنأى أيها السيدُ الفاضلُ بما يوجبهُ الانصافُ والعدل  
الدينيُّ في هذه المسئلة التي أصبحت الشغل الشاغل للكثير  
من الناس ؟

( ابن جلا )

أيها السائل :

أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك  
تعتقد أنه ميراث شرعى ، وأن هؤلاء الذين تسميهم أصحاب  
الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال  
المورثين

إن الذى أعلمه أن هذا الحق المزعوم حق موهوم ،  
لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ،  
لأن الذين يضعون المال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون  
بذلك أن يهبوه أحداً من السدنة والخدم ، ولو أن ذلك كان  
غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلا من الصندوق ، ولكنهم  
لما تصوروا أن ذلك الميت حتى في قبره يسمع نجوهم ، ويفهم  
حديثهم ، ويلبى دعاءهم ، تجسم في نظرهم هذا الخيال ،  
فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء وصفاتهم ، حتى  
حب المال وادخاره ، فخيّل إليهم أن الصندوق من الميت  
بمنزلة الكيس من الحى ، فهم يهبونه المال ، ويضعونه

في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده  
 أما كيفية تصرف الميث بهذا المال ، وكيف ينفقه ،  
 وفي أى شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا  
 يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم

فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال الى  
 سدنة الضريح وخدمته فعلمه هذا لا يستفاد منه أنه  
 يهبه لهم ، أو يمنحه إياهم ، لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم  
 ذلك المال ، أو يعطيهم بعضه ، ويستبقى لنفسه البعض الباقي ،  
 لما وسعه ذلك ، ولا رأى إن فعله أنه عمل عملا صالحا

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق بعد  
 أن يضعه فيه أمر لا علاقة له به ، ولا شأن له فيه ، لأن  
 المال قد خرج من يده الى صاحب الضريح ، وصاحب  
 الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء

فهو في جميع حالاته وشؤونه لايهب هبة صحيحة ،  
 ولا يتصرف تصرفا شرعيا ، ولا يضع صدقة في موضعها ،

ولا يطرقُ باباً من أبواب البرِ المسنونة

وعندى أن مثلَ هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه  
الى غير يد ، وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم  
مقامها ملكيةً أخرى ، يعتبر مالا مهملاً ، لا صاحب له ،  
ولا علاقة لأحد به

وأحسنُ الحالات الشرعية والعقلية في مثل هذا المال  
أن يُنفقَ في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارعُ واعتمدها ،  
وافتحها بأداة الحصر التي تمنعُ غيرها من الاشتراك معها  
في حكمها في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين  
والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين  
وفي سبيل الله وابن السبيل »

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة أنصبتهم  
في ذلك الصندوقِ ذو حاجةٍ فهو داخلٌ في قسمه من الآية  
الشريفة ، فله الحقُّ في ذلك المال من حيث كونه فقيراً  
مُعديماً ، كعامة فقراء المسلمين ، لا من حيث أن له صلةً



بصاحب الضريح تسوخ له أن يكون من ذوى الأنصبة  
والسهم فى صندوقه ، فان أمثال هذه الصلّات والعلائق  
قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى ، فلا هياكل اليوم  
ولاسدنة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا أقراط تعلق فى آذان  
الاصنام ، ولا عقود تقلد بها أعناق الأوثان ، ولا مال  
يوضع مع الموتى فى قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من  
مراقدهم ، وإنما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ،  
لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى ، ولا زلفى لأحد  
يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه ، وبرّه وإحسانه

ذلك ما أراه فى هذه المسئلة وهذا ما أعتقد فيه ،  
ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت أو أغضبت ،  
وإنما أعلم أننى أرضيت ضميرى وخالقى ، وحسبى ذلك وكفى

## الغناء العربي

الغناء بقيةُ خواطرِ النفس التي عجز عن إبرازها اللسانُ،  
 فأبرزتها الأُحانُ. فهو أفسحُ الناطقين لساناً، وأوسعهم بياناً،  
 وأسرعهم نفاذاً إلى القلوب، وامتزاجاً بالنفوس، واستيلاءً  
 على العقول، وأخذاً بمجامع الأُفئدة، وبيان ذلك أن النطقَ  
 ثلاثُ طبقات، تختلفُ درجاتُها باختلاف درجاتِ الإِبلاغِ  
 والتأثير فيها، فأدناها النثر، وأوسطها الشعر، وأعلاها  
 الغناء، فلو أن عاشقاً برّح به الهجرُ مثلاً فأراد أن يُبلغك  
 ما في نفسه من ذلك، فإن قال لك إني مهجورٌ فحسبُ، فقد  
 أبلغك بعضَ ما في نفسه، وترك في قلبك من الأثرِ  
 بمقدار ما تحتمله طبقةُ النثر من التأثير، وإن أنشدك قولَ  
 الشاعر : —

فوا كبدا من حُبٍّ من لا يحبُّ  
ومن زفراتٍ ما لهن فناء  
أو قول الآخر : —

كأنَّ قِطَاةً علقتْ بِجَنَاحِهَا  
على كبدى من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريقَ الخيال، وصور لك خواطرَ نفسه  
بصورةٍ أوضحَ من الصورة الأولى، وترك في نفسك أثراً  
أعظمَ من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع  
يتغنى بقول القائل .

وارحمنا للغريبِ بالبلد الناء  
زح ماذا بنفسه صنعا  
فارق أحبابه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا  
فقد صور لك قلبه كما هو، وأمسك موضعَ الألم  
والحزن منه، فبلغ بك التأثيرُ منتهاه وربما بكيتَ عند

سماعه حزنًا ورحمة ، وما بكيتَ إذ بكيتَ إلا لأن الفناء  
 لم يُبقِ بقية من خواطر هذه النفسِ القريحة إلا نطق بها  
 لك وأسمعك إياها ، وكما أن الأبياتَ قيودُ المعاني ، كذلك  
 الألحان قيودُ الأبيات ، فلا يزال المعنى مشرّداً ههنا وههنا  
 حتى يحتويه بيتٌ من الشعر فاذا هو مستقر في مكانه ، ثم لا  
 يزال البيتُ يتجافُ عن الأذان ذاتِ اليمين وذاتِ الشمال  
 حتى يقوده الصوتُ الحسنُ فاذا هو مستودعٌ في الصدور  
 والفناء فنٌّ من الفنون الطبيعية تهتدى إليه الأممُ  
 بالفطرة المترنمة في هدير الحمام ، وخرير المياه ، وحفيف  
 الأشجار ، فن أبكاه الحمامُ غرد تغريده كلما أراد البكاء ،  
 ومن أطربه صوتُ الناعورة رن رنينها ليطربَ جملة أو  
 ناقته ، فينشطان المسير ، وما زال هذا الفن متبدلاً ببداءة  
 الأمة العربية لا يكادُ يتخطى فيها حذاء الجمال ، ومناغاة  
 الأطفال ، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات ، الى  
 منفسح الكماليات ، توسعت فيه ، وزادت في أنغامه ،

وضرو به، وتفننت في آلاته وأدواته، وكذلك كان شأن العرب في جاهليتهم، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة، فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها، والشطُر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى، وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الاسلام واختلطت الأمة العربية بالامة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينها متسع للبراعة في هذا الفن، ومنتدح في مناحيه ومقاصده، ووفد الكثير من مغنى الفرس والروم موالى في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير، والمعازف والمزامير، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها، ولحنوا بها أشعارهم تلحيناً بزرّوا فيه أسانذتهم،

وولدوا أحياناً وأنعاماً لم يثوت بهم من قبلهم ، شأنهم في جميع  
الفنون والصنائع التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة  
المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجالٌ أذكىء كان لهم الفضلُ  
الباهرُ في تقدم الفناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومُخارق ،  
وطويس ، وإبرهيم الموصلي ، وابنه اسحاق ، وإبرهيم بن  
المهدى ، ومعبد الذي طالما ضربت به وبحسن صوته الأمثال  
على السنة فحول الشعراء ، كقول أبي عبادة البُحترى في وصف  
فرس كان أهداه إليه أحدُ الأمراء : —

هَزَجَ الصَّهِيلُ كَأَن فِي نَبْرَاتِهِ نَفَاطِ مَعْبِدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ  
وَالثَّقِيلِ وَالْخَفِيفِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي أَسْمَاءُ اصْطَلَحَ عَلَيْهَا  
الْعَرَبُ وَمَرَجَعُهَا إِلَى حَرَكَاتِ الْأَصَابِعِ الْخَمْسِ فِي أَوْتَارِ الْعُودِ  
الْخَمْسَةِ شِدَّةً وَضَعْفًا ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ : —  
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ يَا أُمَيَّةُ بَعْدَمَا

نَزَلَ الدَّلِيلُ إِلَى التَّرَابِ يَسُوفُهُ<sup>(١)</sup>

(١) ساف التراب اشتبه ، يريد أنه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته وهو  
وقت ضلال الركب ونزول الدليل لشم التراب ليستدل منه على الأرض

وهو اك عندى كالفناء لآنه

حسن لى ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته فى ذلك العهد ،  
 عهد الصدر الأ ول ، وشدة فى النهى عن التلهى بالفناء والعزف  
 والزمرو أمثالها ، ونعميه على من يحترف ذلك أوتخلقه ،  
 فقد كان للمغنين الشأن الرفيع فى مجالس الخلفاء والأمرء ،  
 والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو  
 فى ذلك ، فسلطان الوجدان ، فوق سلطان الأديان ،  
 ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحق  
 الموصلى شتم إبراهيم بن المهدي فى حضرة أخيه الرشيد  
 غير هيأب ولا وجل فما استطاع أخ الخليفة أن ينتصف  
 لنفسه منه هيبه وإجلالا ، وكان ابن عائشة المغنى لا يغنى  
 إلا للملك ، أو لى عهده حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختار  
 من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب  
 له بذلك عهداً ، بل يأذن لابن عائشة أن يغنى عنده ، فلا تطلع

عليه شمسُ الغدِ حتى يفدَ الناسُ اليه يهتثون به بولاية العهد ، فان دعاه الى الفناء لديه أمير أو وزير وجد من قوة الدالة بنفسه ما يدفعُ به الطلب عنه ، وبروى أن ابن عتيق وهو من نعلمُ في شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش ، فقال من فعل بك هذا ، قال فلان ، وأشار إلى ضاربه ، فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتليبيه (١) وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيحُ أى شئ صنعت ؟ وما ذنبى إليك ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناسُ فخالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه ، فقال إنه أراد أن يكسرَ مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه ، ومما يروى من حوادث تبه وترفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه : —

أبعدك معقلاً أرجو وحصناً قد اعيتنى المعازل والحصون

(١) التلييب ما في موضع اللب من الثياب أى ما يدور بالعنق من القميص ونحوه



فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ،  
 فبينما هو يسيرُ إذ نظر إليه رجل من أهل وادي القرى كان  
 يشتهي الفناء فدنا من غلامه وقال من هذا الراكب المختال ؛  
 قال ابنُ عائشة المغنى ، فدنا منه وقال جمعتُ فداءك أنت ابن  
 عائشة ؟ قال نعم ، قال عائشة أم المؤمنين ، قال لا ، أنا مولى لقريش  
 وعائشة أمي ، وحسبك هذا فلا تكثر ، قال وما هذا الذي  
 بين يديك ؟ قال غنيتُ أمير المؤمنين صوتاً فأطربته فأمرني  
 بهذا المال وهذه الكسوة ، قال جعلتُ فداءك هل تمنُّ  
 عليَّ بأن تسمعني ما أسمعته إياه ؟ فقال له ويلك أمثلي يُكلم  
 بمثل هذا في الطريق ؟ قال فما أصنع ؟ قال الحقني إلى المنزل ،  
 يريد مخايلته والنجاة منه ، وحرك بغلةً شقراء تحته لينقطع  
 عنه ، فعدا معه حتى وافيا المنزل كفرسي رهان ، ودخل  
 ابنُ عائشة فكث طويلاً طمعاً في أن ينصرف فلم يفعل ،  
 فلما أعياه قال لغلامه أدخِله ، فلما دخل قال له من أين  
 صبتك الله عليَّ ؟ قال أنا رجل من أهل وادي القرى أشتي

هذا الغناء ، قال له هل لك فيما هو أنفعُ لك منه ؟ قال وما ذلك ؟ قال مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك ، فقال له جعلت فداك والله إن لي لبُنيةً ما في أذنِها علم الله حلقةٌ من الورق <sup>(١)</sup> وإن لي لزوجةً ما عليها يشهد الله قميصٌ ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصوتُ أعجبَ إليّ منه ، وما زال به حتى رحمه ابنُ عائشة وغناه الصوتُ بعد لَأى <sup>(٢)</sup> فطرب له الرجلُ طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه وينطحُ بها الجدار حتى خيف أن يندقَّ عنقه ، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئاً وفي هذا الحديثِ فوق الغرض الذي سقناه له ما يدلُّ على أن الغناء العربي كان قريباً إلى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ، فاذا لمسها رنت رنينَ الثكلى المرزوعةِ في واحدٍها ، وأن الوجدانَ العربيَّ وجدانٌ رائعٌ شفاف تأخذُ منه مختلفات الأنغام ، فوق ما تأخذُ الكهرباء

(١) الورق الفضة (٢) اللأى الجهد

من الأجسام ، كما تبلغُ منه نظراتُ الغرام ، فوق ما تبلغُ  
من عقل شاربها المدام

وكانت الأصواتُ عندهم تُنسب الى واضعها وتسمى  
بأسماء أصحابها كما هو الشأنُ في الشعر ، فيقال صوتُ إسحقَ  
أو معبد ، كما يقال شعرُ مسلم أو بشار ، وكان المغني أحرصَ  
على صوته من الكريم على عرضه ، فاذا صنع صوتاً لا يسمع  
لأحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف  
نسبته إليه ، كما يفعلُ اليوم المخترعون والصانعون من أخذ  
الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لاسحق الموصلي  
القدرةُ الغريبة على مخالطة المغنين عن أصواته ، حتى صنع مرة  
صوتاً وأراد الفحولُ منهم أن يأخذوه بعد ما سمعوه منه  
أكثرَ من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وكانت  
مجالسُ الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالسَ علم لدراسة هذا  
الفن وتهذيبه ، فكان أحدهم لا يحجمُ إن رأى في صوت  
صاحبه مأخذاً أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ

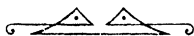
مهما عظم شأنُ المجلس وشأنُ صاحبه ، وكانت تقع بينهم  
المنافساتُ الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم  
ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء العربي كان له عند العرب  
صِبْغةٌ جدية فوق صبغة اللهو ، وإن الغريبيين في هذا العهد  
ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقومَ على أمرها من العرب  
في ذلك العهد ، ولو أن العرب توسعوا في فنونه وضروبه  
لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها ، ولكنهم كانوا قلما  
يحفلون بادخاله في الأغراض العالية كالحرّوب والشؤون  
الوطنية وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد الا قليلا ،  
كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا  
الايقاعَ بهم وعلموا أن سبيل الوشايات بهم الى الرشيد سبيلٌ  
وعرّسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة : —  
ليت هندا أنجزتنا ما تعد      وشفّت أنفسنا مما تجد  
واستبدت مرة واحدة      إنما العاجز من لا يستبد  
فرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامنا في نفس

الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم  
 بالامر من دونه ، فقال عند تمام الصوت « نعم إني عاجز »  
 ثم كان من أمره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدرُ  
 الأول من الاسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن  
 العظيم خصوصاً في أواخر الدولة الاموية وأوائل الدولة  
 العباسية ، ثم أخذت شمسُه الباهرة تنحدر إلى الغروب  
 بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى أصبح في حضارة  
 الاندلس قدوداً وموشحات ، بعد أن كان قصائد  
 ومقطعات ، فكان لا يسمعُ أبناء العرب في ذلك العهد  
 إلا قول المغني « كحل الدجى يجرى ، من مُقلة العجر ، على  
 الصباح ، ومعصم النهر ، في حلل خضر ، من البطاح » أو قوله  
 « كللى ، ياسحبُ تيجان الربى ، بالخلى ، واجعلى ، سوارها  
 منعطف الجدول » وايت الامرَ وقف عند هذه الموشحات  
 فانها وإن لم تكن شعريةً اللفظِ فهي شعرية المعنى عالية  
 الخيال ، وهى على علاقتها خيرٌ من شعر العامة الذى قضى

عليهم فسادُ اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغنى به كالزجل  
والموالي والقوما والدوبيت وكان ويكون وغير ذلك مما  
يُسمى في عهدنا هذا بالأدوار والتواشيح والأغصان  
والمذاهب وأمثالها

فهل جماعة المغنين قى عصرنا أن يعفونا من « أحب  
جميل طبعه الدلال » ومن « يا حلو صن عهد ودادى الله  
يصونك » ويأخذوا بنا فى مسلكٍ أشرف من هذا المسلك ،  
ويلعيدوا للفناء العربى عهدَه الأول كما صنع شعراء العصر  
برقيقه الشعر ، فلقد كان الشعرُ والفناء أخوين أليفين ،  
رضيعى ندى ، وضجيعى مهد ، ثم ضربهما الدهرُ بضرباته  
فاقتربا ، فاذا علينا لو قصرنا مسافةَ البعد بينهما ، وماذا على  
المغنين والشعراء فى مصر لو عقدوا بينهم عهداً أن يهذبوا  
أخلاقَ أمتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل فى نهضتها  
وارتقاؤها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ، فينظم الشاعرُ  
المقطعاتِ الرقيقة المذبذبة السائغة فى فضائل الأعمال ومكارم

الأخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحُبّ الوطن  
والاتحاد والتزهد في صفائر الأمور ، والترغيب في عظامها ،  
فياً أخذها منه المغنى ولا يتكلف في تلحينها أ كثر مما  
يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل ، ثم يغنيها  
في الناس غير مُبالٍ بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون  
من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه ، وفي  
اعتقادي أن لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس  
العامة ، وتهذيب أخلاقهم وطباعهم ، وتقويم ألسنتهم  
وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكرٍ في تاريخ  
عظماء الرجال



## التوبة

علم فلانٌ وكان شاباً من شبان الخلاعة واللّهو ، وقاضياً  
 من قضاة المحاكم ، أن المنزل الذى يجاورُ منزلهُ يشتملُ على  
 فتاةٍ حسنةٍ من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ،  
 فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ،  
 فتراسلا ثم تراورا ثم افترقا وقد خُتِمَت روائيهما بما تُختم  
 به كلُّ رواية غرامية يمثلها أبناء آدمَ وحواء على مسرح  
 هذا الوجود

عادت الفتاةُ إلى أهلها تحملُ بين جنبيها ما يضطربُ  
 فى قوادها ، وجنيناً يضطرب فى أحشائها ، ولقد يكونُ  
 لها إلى كتمان الأول سبيلٌ ، أما الثانى فسرُّ مُذاع ، وحديثٌ  
 مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسعُ له البطون ، وإن  
 ضن به اليوم ، لا يضمن به الغد



ذلك ما أسهر ليلها ، وأقضى مضجعها ، وملك عليها  
وجدانها وشعورها ، فلم تر لها بداً من الفرار بنفسها ،  
والنجاة بحياتها ، فعمدت إلى ليلة من الليالي السوداء فلبستها ،  
وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود ، فما  
زالت أمواجها وتراعى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر ،  
فاذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية ، في بعض  
الآحياء الخاملة ، وذلك الجنين المضطرب

كان لها أم تحنو عليها ، وتفقد شأنها ، وتجزع لجزعها ،  
وتبكي لبكائها ، وفارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حياته إلا  
أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت  
منزلها ، وكان لها خدم يقمن عليها ، ويسهرن بجانبها ،  
فأصبحت لا تسامر غير الوحدة ، ولا تساهر غير الوحشة ،  
وكان لها شرف يؤنسها ، ويملاء قلبها غبطة وسروراً ،  
ورأسها عظمة وافتخاراً ، ففقدته ، وكان لها أمل في زواج  
سعيد ، من زوج محبوب ، فرزأتها الأيام في أملها

ذلك ما كانت تناجي نفسها به صباحها ومساءها ،  
بكورها وأصائلها ، فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها ،  
وسبب أحزانها ، علمت أنه ذلك الفتى الذى وعدها أن  
يتزوجها نخدعها عن نفسها ولم يفِ بعهده لها ، فقذف  
بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ، ويأخذ  
مكانه من نفسها ، حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من  
الحقد والموجدة على ذلك الفتى ، لانه قتلها ، وعلى المجتمع  
الانسانى ، لانه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه  
في سلسلة المجرمين

وماهى الايام قلائل حتى جاءها المخاض فولدت وليدها  
من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها ، أو يساعدها على  
خطبها ، غير عجوز من جاراتها ألت بشأنها فشت اليها وأعانها  
على أمرها بضع ساعات ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها

ما تكابد ، وتعانى من صروف دهرها ما تعانى  
ولقد ضاق صدرُها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو  
أحبُّ المخلوقات إليها ، وأكثرُهم قرباً الى نفسها ، فجلستْ  
ذات ليلة وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها ، وأسندت  
رأسها الى كفها ، وظلت تقول : —

ليت أمى لم تلدنى ، وليتنى لم أكن شيئاً  
لولا وجودى ما سعدتُ ، ولولا سعادتى ما شقيت  
إن كان فى العالم وجودٌ أفضلُ منه العدمُ فهو وجودى  
لقد كان لى قبل اليوم سبيلٌ الى النجاة من هذه الحياة ،  
أما اليوم وقد أصبحتُ أمّاً فلا سبيل  
أأقتلُ نفسى فأقتلَ طفلى ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياةَ  
المريرة ؟

لأحسب أن الموتَ تاركى حتى يذهبَ بى إلى قبرى ،  
فماذا يكون حالُ طفلى من بعدى ؟  
إنها ستميشُ من بعدى ، وتشقى فى الحياة شقائى ،

لألذنبِ جنته ، ولا لجرمة اجتريتها ، سوى أنني أمها  
 هل تعيشين أيتها الفتاةُ حتى تغفري لي ذنبَ أمومي  
 حينما تسمعين قصتي ، وتفهمين شكائي ؟

لم يبق في يدي يابتي من حلاي إلا قليلٌ سأبيعه كما  
 بعتُ سابقه ، فإذا يكون شأني وشأنك بعد اليوم ؟  
 محال أن أعود إلى أبي فأقصّ عليه قصتي ، لأنه لم يبق  
 لي مما يعزيني عن شقاء العيشِ وبلائه إلا أن أهلي لا يعرفون  
 شيئاً عن جريمتي ، فهم يَكُونُونِي كما يَكُونُ موتاهم الأُغْراءُ ،  
 ولأنَّ يَكُونُوا مَمَاتِي ، خيرٌ لي ولهم من أن يَكُونُوا حَيَاتِي  
 وكذلك ظلمت تلك البائسةُ المسكينةُ تحدثُ نفسَهَا  
 نارةً ، وطفلتَهَا أخرى ، بمثل هذا الحديثِ المحزنِ الأليم ،  
 حتى غلبها صبرُها على أمرها ، فأرسلتْ من جفنيها قطراتٍ  
 حارة من الدموع هي كلُّ ما يملك الضعفاءُ العاجزون ، ويقدر  
 عليه القانطون اليائسون

دارت الأيامُ دورتها ، وباعت الفتاةُ جميعَ ما تملك

يدُّها ، وما يحمل بدنُّها ، وما تشتمل عليه غرفتها ، من حلى  
 وثياب ، وأثاثٍ ورياش ، ولم يبق لها إلا قصصُها الخلقُ  
 وملأَتها وبرقُمُها ، ولم يبق لطفلتها إلا أسْمالُ باليات تم  
 عن جسمها نَمِمةً الوجه عن السريرة ، فكانت تقضى ليلها  
 شر قضاء ، حتى إذا طار غرابُ الظلام عن مجثمه أسبلتُ  
 برقُمها على وجهها ، واثنُرت بمزرها ، وأنشأت تطوف  
 شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا تبغى مقصداً ، ولا  
 تريد غاية ، سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال  
 يسايرُها ، ويترسم مواقع أقدامها

وأحسب أن عجوزاً من عجائز الموابخ رأَتْها فألمتُ  
 ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها ، فوغلّت  
 عليها ، وسألتها ما خطبُها ، فأنست الفتاة عند رؤيتها ،  
 وكذلك يأنس المصدور بنفثاته ، والبائسُ بشكاته ،  
 فأصحرت لها بسرّها ، وألقت إليها بخبيثة صدرها ،  
 ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها ، ولا حادثاً من حوادث  
 بؤسها ، لم تحدّثها به ، فعرفت الفاجرةُ محنتها ، ورأت بعينها

ذلك الماء من الحسن الذى يجولُ فى أديم وجهها ، جولانَ  
الراح فى زجاجتها وعلمت أنها إن أحرزتها فى منزلها  
فقد أحرزت غنى الدهر ، وسعادةَ العمر . وما هو إلا أن  
أرسلت إليها بعض عقاربها ، ونفثت فى نفسها بعض رُقاها ،  
حتى غلبتها على أمرها ، وقادتها إلى منزلها ، وما هى  
إلا عشيّةٌ أو ضُحاها ، حتى بلغت بها الغايةَ التى لامفرّ لها  
ولا لا أمثالها من بلوغها

عاشت تلك البائسةُ فى منزلها الجديدِ ، عيشاً أشق  
من عيشها الأول فى منزلها القديم ، لأنها ما كانت تستطيعُ  
أن تصل إلى لقماتها ، وهى كل ما حصلت عليه فى حياتها  
الجديدة ، إلا إذا بذلت راحتها ، وشرّدت نومها ، وأحرقت  
دماغها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، وصبرت على كل  
من يسوقه إليها حظُّها من سباع الرجال وذئابهم ، على  
اختلاف طباعهم ، وتنوع أخلاقهم ، لأنها لم تر لها بداً  
من ذلك ، فاستسلمت استلام اليائس الذى لم تترك له  
صانقةَ العيش إلى الرجاء سبيلاً

ولو أن الدهرَ وقفَ معها عند هذا الحد لهان  
الأمر ولألفت الشقاء ومرنت عليه ، كما يألفه ويمرن  
عليه كلُّ من سار في الطريق التي سارت فيها ، ولكنه أبى  
ألا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ،  
فساق إليها ذئباً من ذئاب الرجال كان ينقمُ عليها شأناً  
من شؤون شهواته ولذاته فزعم أنها سرقت كيسه  
في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ورفع أمرها إلى  
القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي  
كن يحسدنّها ، وينفسن عليها حسنّها وبهاءها ، حتى دأبها  
جاء يومُ الفصل في أمرها فسيقت إلى المحكمة  
وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فأخذ  
القاضي ينظرُ في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى  
دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى  
شدّدت عن نفسها ، وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد  
يذهبُ برشدها ، ذلك أنها عرفتْ وعرفت أن ذلك الفتى  
الذي كان سببَ شقائها ، وعلةَ بلائها ، فنظرت إليه نظرةً

شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان  
دويًا وقالت :

رُويْدَكَ يامولانا القاضى ، ليس لك أن تكون قاضياً  
فى قضيتى ، فيكلانا سارقٌ ، وكلانا خائنٌ ، والخائنُ لا يقضى  
على الخائن ، واللص لا يصلحُ أن يكون قاضياً بين اللصوص  
فمجب القاضى والحاضرون لهذا المنظرِ الغريبِ ،  
وغضب لهذه الجرأةِ العجيبة ، وهم أن يدعوا الشرطى  
لاخراجها ، فحسرت قناعاتها عن وجهها ، فنظر إليها نظرة  
المُرِّ فيها بكل شئ ، فشعر بالردة تتمشى فى أعضائه ، وسكن  
فى كرسيه سكون المحتضر فى سرير الموت ، وعادت الفتاة  
إلى إتمام حديثها فقالت :

أنا سارقةُ المال ، وأنت سارقُ العرض ، والعرضُ  
أثمن من المال ، فأنت أكبرُ منى جنايةً ، وأعظم جرماً  
إن الرجل الذى سرقَ ماله يستطيع أن يعزى نفسه  
عنه باسترداده أو الاعتياض منه ، أما الفتاة التى سرقَتْ



عرضها فلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود  
لولاك ماسرقتُ ، ولا وصلتُ إلى ما إليه وصلت ،  
فاترك كرسيتك لغيرك ، وقف بجانب ليحاكمنا القضاء العادل  
على جريمة واحدة أنت مدبرها ، وأنا المسخرة فيها  
إنَّ شريعةً تعلمُ أننا شركاء في جريمة واحدة ، ثم تأتي  
بنا إلى هذا المكان ، فتقفُ أحدنا في أشرف المواقف ،  
وتقف الآخر في أدناها ، لشريعة ظالمة ، ليس بينها وبين  
العدل نسبٌ موصول ، أو ذمام غير منقضب  
رأيتُك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب  
يصرخ لمقدمك ، ويستنهض الصفوف للقيام لك ، ورأيتُ  
نفسى حين دخلت والعيون تتخطاني ، والقلوب تقتحمنى ،  
فقلت يا للعجب !!! كم تكذبُ العناوين ، وكم تخدع الألقاب  
وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء  
بخٍ بخٍ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة ،  
شهادة العلم والفضل ، والأخلاق والآداب ، ومرحى  
ومرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ، ووضعوا بين يديك

هذا القانون ، ووقفوا أمامك هذا الشرطى يا تمر بأمرك ،  
وينزل على حكمك

إن تحت هذه الثياب التى تلبسونها معشر القضاة  
نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شرراً ، ولا أخبت منها مذهباً ،  
وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا فى العناوين  
والألقاب ، والشمائل والأزياء

أتيت بى إلى هنا لتحكم على بالسجن ، كأن لم يكفك  
ما أسلفت إلى من الشقاء ، حتى أردت أن تجىء بلاحق ،  
لذلك السابق

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها ؟  
ألم أكون إنساناً ذا شعور وإحساس فترثى لشقائى وبلائى ؟  
إن لم تكن عندى وسيلة أمت بها اليك ، فوسيلتى  
عندك ابنتك هذه ، فهى الصلة الباقية بينى وبينك

فرفع القاضى رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة  
رحمة وإشفاق ، وقد قرر فى نفسه ألا بدله من أن ينصف  
( ٢١ نى — النظرات )

تلك البائسة ، وينتصف لها من نفسه ، غير أنه أراد أن يخلص  
 من هذا الموقفِ خلوصاً جميلاً ، فأعلن أن المرأة قد  
 أُصيبتُ بدخل في عقلها ، وألا يد من إحالتها على الطبيب ،  
 فصَدَّقَ الناسُ قوله

ثم قام من مجلسه بنفسٍ غيرِ نفسه ، وقلب غير قلبه ، وما  
 هي إلا أيامٌ قلائلٌ حتى استقال من منصبه بحجة المرض ،  
 ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته ، واستخلص أمها  
 من قرارتها ، وهاجر بها إلى بلد لا يعرفها فيه أحد ، فتزوج  
 منها ، وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفةً لولا  
 مخافة أن أدلَّ عليه إذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم  
 يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف  
 الرعاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيامافات ، ولم يبق أمامها  
 إلا ماهوآت

## الحسد

لوعَرَفَ المحسودُ ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى  
إليه من نعمة، لأنزله من نفسه منزلةً الأوفياء المخلصين،  
ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون، بين  
أيدي المحسنين

لا يزالُ صاحبُ النعمة ضالاً عن نعمته لا يعرفُ لها  
شأنًا، ولا يقيم لها وزنًا، حتى يدلّه الحاسدُ عليها بنكرانها،  
ويرشدها إليها بتحقيرها، والغرض منها، فهو الصديقُ في ثياب  
العدو، والمحسنُ في صورة المسىء

أنا لا أعجبُ لشيء عجبٍ لهذا الحاسد، ينتقمُ على محسوده  
نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبق له واحدةٌ منها، وهو لا يعلم  
أنه في هذه النعمة، وفي تلك الأمانة، قد أضاف إلى نعم  
محسوده نعمةً هي أفضلُ من كلِّ ما في يديه من النعم

وجهُ الحاسد ميزانُ النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن  
تزن نعمةً وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه  
نظرة خفية ، فحيث ترى الكآبةَ والهم ، فهناك جمالُ النعمة  
وسناؤها

ليس بين النعم التي يُنعم بها الله على عباده نعمةً أصغرَ  
شأنًا ، وأهونَ خطرًا ، من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت  
تريد أن تصفو لك النعمُ فقِفْ بها في سبيل الحاسدين ،  
وألْقِها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها ،  
فاعلم أنهم قد منحوك لقب « المحسَد » فليهنأ عيشك ،  
وليعذب مَوردك

إن أردت أن تعرف أيَّ الرجلين أفضل ، فانظر إلى  
أكثرهما تقمةً على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنيلِ من  
كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا ، وأقلُّهما فضلًا  
قد جعل الله لكل ذنب عقوبةً مستقيلةً يتألم لها  
المذنبُ عند حلول أجلها ، فالشاربُ يتألم عند حلول

المرض ، والمقامرُ يتألم يوم نزول الفقر ، والسارقُ يتألم يوم دخول السجن

أما الحاسدُ فعقوبته حاضرةٌ دائمةٌ لا تفارقه ساعةً

واحدة

إنه يتألم لمنظر النعمة كلها رآها ، والنعمةُ موجودٌ من الموجودات الثابتة التي لا يُلم بها إلا التنقلُ من مظهر إلى مظهر ، والتحولُ من مَوْقف ، الى موقف ، فهيات أن يفنى ألمه ، أو يتقضى عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض

الحسد مرضٌ من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داءٍ دوائه ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسدُ سبيلَ المحسود ليملغَ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها ، ولا أحسب أنه يُنفق من وقته ومجهوده في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك في الغرض من شأن محسوده ، والنيل منه ، فان كان يحسده على المال فليُنظر أى طريق سلك

إليه فليسلكه ، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم ، أو الأدب  
فليتأدب ، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك ، وإلا فحسبه  
أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ  
الفاتك ، والكمَدِ القاتل



## الوفاء

يا صاحبَ النظراتِ : —

تزوجتُ منذُ سنةٍ من زَوْجٍ صالحةٍ طيبةٍ القلبِ  
والسريرة ، فاغتبطتُ بعشرتها بُرْهَةً من الزمان ، وقد  
عرض لها في هذه الأيام رَمَدٌ في عينيها فذهب يبصرها  
فأصبحت عمياء وأصبحتُ أعمى بجانبها ، وقد بدا لي أن  
أطلقا وأنزوجَ من غيرها فماذا ترى ؟

( إنسان )

أيها الإنسانُ : لا تفعل ، فإنك إن فعلتَ كان عليك  
إثم الحائنين ، وجُرْمُ الغادرين ، وكن اليوم أحرصَ على  
بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتستطيعَ أن تدَّخِرَ لنفسك  
عند الله من المثوبة والأجر ما يدَّخِرُ أمثالك من الصابرين  
المحسنين



لا تقل إنها عمياء فلا خير لى فيها ، ولا غبطة لى بها ،  
 فإنك ستجد بين جنبيك من لذة المروة والاحسان ، والجود  
 والايثار ، ما يحسدك عليه الناعمون بالخور الحسان ،  
 فى مقاصير الجنان

إجلس إليها صباحك ومساءك ، وحادثها محادثة الصديق  
 صديقه ، بل الزوج زوجة ، وتلطف بها جهدك ، وروح  
 عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب ، وقل لها  
 لا تجزعى ولا تحزنى ، فإنما أنا بصرتك الذى به تبصرين ،  
 ونورتك الذى به تهتدين

أعيدك أيها الانسان بالله ورحمته ، والعهد وذممه ،  
 أن تجعل لهذا الخاطر السيئ خاطر الطلاق والفراق سبيلا  
 إلى نفسك ، فإنها لم تسيء إليك فتسئ إليها ، ولم تنقض  
 عهدك فتنتقض عهدها ، فإن كنت لابد نائراً لنفسك فائار  
 لها من القدر إن استطعت إليه سبيلا

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يفضب فيمد يده

بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه ، ويعتدى على من لم يعتد عليه  
 إن لم يكن احتفاظك بزواجك وإبقاؤك عليها عدلاً  
 يسألك الله عنه ، فليكن إحساناً تحاسبك الإنسانية عليه  
 إنك قد خسرت بصرها ، ولكنك ستربح قلبها ،  
 وحسب الإنسان من لذة العيش وهناءته في هذه الحياة  
 قلبٌ يخفق بحبه ، ولسانٌ يهتفُ بذكره

إنها أسعدتك برهةً من الزمان ، فليخفق قلبك رحمةً  
 بها ، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها

لا أحسبُ أنها كانت تاركتك ، أو غادرةً بك ،  
 لو أن هذا السهمَ الذي أصابها قد أصابك من دونها ،  
 فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأةً ضعيفةً أسبقَ  
 منك إلى فضيلة الصدق والوفاء

إلى من تعهدُ بها بعد فراقك إياها ؟ وأى موطنٍ  
 من المواطن هياتَه لقماتها ؟ وماذا أعددتَ لها من الوسائل

التي تستعين بها على عيشها ؟ وتأنسُ بها في وحشتها  
ووحدها ؟

كيف يهناً لك عيشٌ ، أو يغمض لك جفن ، إذا أظلك  
الليل فذكرتها ؟ وذكرت أنها تقاسى في وحدتها من الوحشة  
ملا قبل لها باحتماله ؟ وأنها ربما طلبت جرعة ماء  
فلا تجد من يقدمها إليها ، أو كسرة خبز فلا تجد من يدها  
عليها ، أو ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه  
تتمسك الطريق إلى حاجة من حاجها فأخطأ تقديرها  
فصدمها الجدار في جبينها صدمةً سال لها دمها ، حتى امتزج  
بدمها ؟

أيها الانسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً  
فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بد أن سيساورك ،  
ويفت في عضدك ، ويزعجك من مرقدك ، فإن لم تكن  
هذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب ، لأنني لا أحسن إلا  
مخاطبة الانسان

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفياهم  
تزوج امرأةً حسناءً فاغتبط بها برهةً من الزمان ثم أصابها  
الدهرُ بمثل ما أصاب به زوجك ، ولم يترك لها من ذلك  
النورِ الذاهبِ الا كما ترك الشمسُ من الشفقِ الأحمرِ  
في حاشية الأفق ، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها  
واستمسك بها ، بل كان يحرصُ جهده على ألا تعلم أنه  
ينكر من أمرها شيئاً ، فكان يعتبُ عليها في بعض  
الأحايين في أشياء لا يؤاخذُ بها عادةً إلا الناظرون  
المبصرون ، يريد بذلك أن يلقى في روعها أنه لا يزال يعدها  
ناظرةً مبصرةً ، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طرأ عليها ، رحمة  
بها ، وإبقاءً على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها ،  
والإدلال بجزاياها

ولقد قرأتُ جملةً صالحةً من نوادر العرب في آدابهم ،  
ومكارم أخلاقهم ، ورقةِ شعورهم ولطفِ وجدانهم ، فلم  
أر بينها نادرةً أوقع في النفس ، ولا أجمل أثرًا في القلب ، من

قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية  
وكان كفيف البصر « اختلفتُ إلى القاضي أحمد بن أبي  
دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرةً يقول لغلامه عند تشييعي  
خذ بيده يا غلام ، بل يقول اخرجْ معه يا غلام »

فإن كنتَ تريدُ أن يُسجَلَ لك من الوفاء في صفحات  
القلوب ، مَسْجَلُ لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ ،  
فلا تطلقْ زوجك ، ولا تنقِمْ منها أمراً قد خرج حكمه  
من يدها ، وإن أبيتَ إلا أن تأخذ لنفسك حظاً من  
لذائذ العيش وأطايبه ، فاعلم انه ما من لذة يتمتعُ بها الانسانُ  
في حياته إلا ويشوبُها الكدر ، أو يعقبها الألم ، إلا لذة  
البرِّ والإحسان

## خبایا الزوایا

جلس قاضی التحقيق ليلة أمس على كرسى قضاؤه  
ووقف عن يمينه رجلٌ من ذوى الأسنان <sup>(١)</sup> قذرٌ دميمٌ  
المنظر ، تسنح شعرائه البيضُ فى بادية رأسه ولحيته  
سنوح الشرر الأبيض ، فى الدخان الأسود ، وتمشى  
فى أديم وجهه غبرةٌ قائمةٌ من رآها علم أنها نسيجُ دخان  
الحشيشة الذى ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغُدُوهُ  
ورواحه ، ووقف عن يساره صبيةٌ ستة نُحُلُ الأبدان  
جَوَّعَ الأكباد ، لم يترك لهم الدهرُ آكل الناس  
وشاربهم إلا هيكلًا من العظم تلمع فى رأسه عينانِ جائلتان ،  
لا تستقران فى محجريهما إلا إذا استقر الزئبقُ الرجراج  
فى قرار مكين

نظر اليهم قاضى التحقيق نظراتٍ تمازجها الرحمة ،  
وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يُشفِقون، لولا أن  
من المناظر مناظرَ تستهوى القلوبَ القاسية، وتذيبُ الأُفدةَ  
المتحجرة ، وأنشأ يسألهم واحداً فواحداً ما شأنهم ؟ وما  
خطيهم ؟ وما مصيرهم ؟ فكان جوابُهم جواباً واحداً خلاصته  
أن هذا النمر اللابس ملابس الانسان رأى خلتهم <sup>(١)</sup> من حيثُ  
يَخْفَى مكانُها فتغر <sup>(٢)</sup> فيها ثغرةً انحدر منها إلى أعراضهم ،  
فعبث بها ماشاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروعَ  
التي يحتلبها ، حتى اذا استنفد درّتها <sup>(٣)</sup> ألح على دماءها فاستنزفها ،  
ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم ، فاذا علم أنهم  
هلكوا أو كادوا ، طفق يعلمهم باللقمة بعد اللقمة ، والمضغة  
بعد المضغة ، ويرمّمهم <sup>(٤)</sup> العيشَ ترميقاً ، لا إبقاء عليهم ، بل  
على ما يصل إلى يده من المال من طريقهم ، وزعموا أنه  
كان يريبه منهم في بعض الأحيان تمر دُهم عليه ، واحتفاظهم

(١) الخلة الحاجة (٢) ثغر الشيء ثلمه وفتحه (٣) الدرة اللبن (٤) رmqه  
الشراب أعطاه اياه حسوة حسوة

بأعراضهم من دونه فيملاً أدمغتهم بدخان الحشيشة  
ليسرق عقولهم، وبحل عُقدة إياهم، ويتركهم لا يدرون  
ما يأتون ولا ما يدعون

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم  
اثنان بين يدى القاضى، فراعه من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه  
الجوع، فأمر لهم بحبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه  
ويزدردونه ازدرداد الوحش فريسته، وقد وقف ذلك الذئب  
المستأنس ينظر إليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التى  
يرمى بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته

بذلك حدثنى من رأى هذا المنظر بعينه فارتعت  
لسماع حديثه الارتياح كله، وحسبت أنه يحدثنى عن حادثة  
وقعت فى مبدأ الخليقة فى مغارة من مغاور الجن أو شعفة<sup>(١)</sup>  
من شعفات الجبال، وقلت له أتعلم أيها الرجل أنك تحدثنى  
عن إنسان؟ قال لا تعجل فما حدثتك إلا عن رجل حمار



لا يفارق وجهه سَوءَ حماره ليله ونهاره ، وربما سرت إليه  
تلك النتيجة من هذه المقدمة ، فكيف بك لو علمت أن  
هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الاتقياء  
والصالحين ، والأشراف والمستورين

قلت لا تحدثني عن شيء ، فلم يبق في قلبي مُتَسَعِّمٌ  
لاحتمال أكثر مما احتملت والأمر لله وحده

ليست مشكلة الزوايا وخباياها أمراً يستهان به ،  
أو تغضى العيون عليه ، فاننا نريد أن نُعيدَ لوطننا  
رجالا ذوي شجاعة وإقدام ، وعزة وأنفة ، من الذين  
إذا عظم الخطب كانوا ثمة الديار ، وإذا اشتد اليأس  
لابولون الأديار



## القمار

لا أستطيعُ أن أعتقد ما يسمونه الجنونَ الفرعى  
ويريدون منه أن يكون الإنسانُ مجنوناً فى شأن واحد  
من شؤونهِ ، عاقلاً فى باقىها ، وعندى أن الرجلَ إما أن  
يكون عاقلاً أو مجنوناً ، ولا ثالث لهما

العقلُ قوةٌ يقتدرُ بها المرءُ على ضبطِ نفسه عن  
شهواتها ، فوقفهُ أمامها موقفٌ واحدٌ ، فإما أن يغلبها  
جميعها ، أو يغلبه جميعها

أما ما يراه الرأى أحياناً من استهتار الرجلِ فى بعض  
الشهوات استهتاراً يستهلكُ نفسه وعقله ، وزهده  
فى بعضها زهداً الأعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب  
فى الأولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعه إلى الأخرى  
( ٢٣ نى — النظرات )

داعٍ من شهوات قلبه ، ونزعات نفسه ، ولو دعاه خلف  
إليه ولباه ، ولن يسمي الرجلُ زاهداً أو عفيفاً إلا إذا  
أمسك نفسه عن شهوة تدعوه إليه فيدفعها ، وتثور نائرتها  
بين جنبيه فيقمعها

لا تقل إن السكيرَ عاقلٌ إن رأيتَه غيرَ فاسقٍ ولا  
عاهر ، واعلم أنه لا يُؤثرُ الفسقَ ولا تجذبه إليه جواذبه ،  
ولو آثره لكان موقفه من المواقير موقفةً من الحانات ، ولا  
تقل إن الفاسقَ عاقلٌ إن رأيتَه غيرَ سارقٍ ولا مختلس ،  
فانه لا يحبُّ السرقةَ ولا الاختلاس ، ولو أنه أحبهما لكان  
في التسلل إلى أعماق الدور والقصور ، أبرعَ منه في التسلل  
إلى مكامن الفسقِ والفجور ، ولا تقل إن المقامر عاقلٌ إن  
رأيتَه لا شارباً ولا فاسقاً ، فإن القمار قد استهلك شهوته ،  
واستهلصها لنفسه ، ولم يدع فيها فضلةً لسواها ، ولولا  
ذلك لكان أكبرَ السارقين ، وأفسقَ الفاسقين

لو كنتُ من المصانمين الذين يُزخرفون لأرباب

الرزائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما  
يُلبسونها من أثواب التأويل ، ويصبغونها من ألوان  
التعليل ، لما استطعتُ أن أصانع المقامر ، لأن حاله من  
الجهل الفاضح ، والغباوة المستحكمة ، أبعاد الحالات عن  
عذر المعتذرين ، وتأويل المتأولين

ما جلس المقامرُ الى مائدة القمار الا بعد أن استقر  
في ذهنه أن الدرهم الذي في يده سيتحولُ بعد هنيئة من  
الزمن الى دينار يعود به الى أهله فرحاً مغتبطاً ، وأحسب  
أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة تعجزُ عن ادراك سرِّ  
هذه العقيدة ومثارها

ان كان يؤملُ الربح لأنه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح ،  
فلم لا يخافُ الخسرانَ لأنه يرى عن يساره مائة خاسرين ؟  
وان كان يضحكه منظرُ الربح لأنه يرى في بعض مواقفه  
أحدَ الراجحين ضاحكاً ، فلم لا يبكيه منظرُ أصدقائه ورفقائه

الخاسرين وهم يتساقطون حواليه تساقطَ جنودِ المعركة  
تحت القذائفِ المنطلقة ؟

ما أشبه المقامرَ الذى يطلبُ من الدينار الواحدِ مائةَ  
دينار، بالكيمائى الذى يطلبُ من القصدير فضةً، ومن النحاس  
ذهباً، كلاهما يتاجرُ بالأحلام ، فى سوق الأوهام ، فيربحُ  
ربحاً مقلوباً ، ويكسبُ كسباً معكوساً ، وما أشبههما جميعاً  
بذلك الرجلِ الذى علم أن فى صحراء من صحارى أواسطِ إفريقيا  
كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعةٌ معينة ، وليس عليه دليل ،  
فحمل فأَسَه على كتفه ومشى فى تلك الصحراء يحفر الحفرةَ  
التي تستنفدُ قوته ، وتستهلك مُنتَهه ، وتبلغ من نفسه مالا  
يبلغ كُرُّ الغداةِ ومرُّ العشيِّ ، حتى اذا بلغ قرارَها وعلم أنه  
لم يعثر بضالته ، تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها ، فلا يكون  
نصيبه من الأخرى ، أوفرَ من نصيبه من الأولى ، وهكذا  
حتى أدركه الموتُ وهو فى بعض تلك الحفر ، فكان هو  
نفسه الكنزَ الدفين ، الا أنه كنزٌ لا يطمعُ فيه طامع ، ولا  
يرغبُ فيه راغب

إن كنتَ لم تسمعْ في حياتك باجتماع النقيضين ،  
وتلاقى الضدين ، فاعلم أن المقامرَ في آن واحدًا جشعُ الناس ،  
وأزهْدُ الناس ، فلولا حبُّه المالَ لما هان عليه أن يبذلَ  
راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله ، ولولا زهده فيه لما  
أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغيره يطْلُبُها ،  
ولا لما رُبَّ يسعى إليه

أنا لا أريد أن أنصحَ للمقامر بترك القمار ، لأنني أعتقد  
أن من يملكُ عقلاً مثلَ عقله ، وفهماً مثلَ فهمه ، لا يستطيع  
أن يفهم كلمةً مما أقول ، ومن عجزتْ حوادثُ الدهر  
وعبرُ الأيام عن أن ترد عليه ضالَّةُ عقله ، وتهديه السبيل  
إلى نفسه ، فلن تنفعه كلمةُ كاتب ، ولا موعظةُ واعظ ،  
وإنما أريد أن أقول للذين لم يُقدِّرْ لهم أن بخطوا خطوة  
واحدة في هذه الطريقِ الوعرة حتى اليوم ، لا تقامروا جداً  
ولا هزلاً ، فإن هَزَلَ القمار يجرُّ إلى جده ، ولا تمرأوا بما هَدَى  
القمار قصداً ولا عفواً ، فإنَّ من جام حول الحمى يوشِكُ

أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، وَلَا تَصَاحِبُوا الْمُقَامِرِينَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ،  
فَانْهَمُوا لَا يَرْضَوْنَ عَنْكُمْ حَتَّى تَتَّخِذُوا مِلَّتَهُمْ ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ خَسِرْتُمْ  
مَالَكُمْ وَشَرَفَكُمْ ، وَعِزَّتَكُمْ وَكَرَامَتَكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَجِدُونَ  
مِنْ رَحْمَةِ الْقُلُوبِ وَرَأْفَتِهَا مَا يَعُوضُ عَلَيْكُمْ مَا خَسِرْتُمْ ،  
فَارْحَمُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ رَاحِمِينَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ



## الاوصياء

مرض فلانٌ مَرَضَ الموت فلم يحفل بالمنية ، لأنه  
 اقتطف زهرةَ الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد أَلَحَتْ عليه  
 بصبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من  
 خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا أن بين  
 يديه ولداً صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ  
 عهد قريب ، وللشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنينٌ  
 الابل الى أعطانها ، فنظر إليه وهو يحومُ حول فراشه  
 نظرةً طويلةً لم يسترجعها إلا مبلةً بالدمع المنسجم ، ثم زفر  
 زفرةً حرّى خيل لرائيها أنها الزفرةُ الأخيرة ، وأنشأ يقول :  
 أَيُّ بُنَى ، مَنْ لى بقلبٍ يرعاك مثل قلبى ، وعين تسهر  
 عليك مثل عيني ، وروحٌ ترفرفُ فوق رأسك مثل



رُوحى ، ونَفْسٍ تَضُمُ جِوَانِحَهَا عَلَيْكَ مِثْلَ نَفْسِي ؟ ؟ ؟  
 أَيْ بَنِي ، كَأَنِّي بِرَكْبِ الْمَوْتِ وَقَدْ نَزَلَ بِي ، وَحَلَّ  
 بِسَاحَتِي ، وَكَأَنِّي بِهِ وَقَدْ احْتَمَلَنِي مِنَ فِضَاءِ الْقَصْرِ ، إِلَى  
 مَضِيقِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ نُورِ الْحَيَاةِ ، إِلَى ظُلْمَةِ الْمَوْتِ ، وَكَأَنِّي  
 بِكَ وَقَدْ طَفِقْتَ تَنْشِدُنِي ، فَلَا تَجِدُنِي ، وَتَفْتَشُنِي عَنِّي ، فَلَا  
 تَرَانِي ، فَفَزَعْتَ وَارْتَعْتَ ، ثُمَّ صَرَخْتَ فَصَعِقْتَ ، فَلَمْ تَجِدْ  
 بِجَانِبِكَ مَنْ يَمْسَحُ دُمْعَكَ ، وَيُخَفِّفُ حَزَنَكَ

مَنْ لِي بِصَدِيقٍ أَثَقُ بُوْدَهُ وَإِخْلَاصَهُ ، وَرَحْمَتَهُ وَحَنَانَهُ ،  
 فَأَكُلُ إِلَيْهِ أَمْرًا ؟ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي تَأْدِيبِكَ وَتَخْرِيجِكَ ،  
 وَإِبْلَاغِكَ مَا أَرْجُو لَكَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي مُسْتَقْبَلِ دَهْرِكَ ؟  
 فَمَا أَتَمَّ نَجَاةً حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ الْوَحِيدُ الَّذِي  
 كَانَ يَأْنَسُ بِهِ ، وَيَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ سَمِعَ آخِرَ نَجْوَاهُ ،  
 فَقَالَ لَهُ هُوَنَّ عَلَيْكَ يَا مَوْلَايَ ، فَإِنَا صَدِيقُكَ الَّذِي تَنْشُدُهُ  
 وَأَنَا وَالِدُكَ مِنْ يَمِينِكَ ، وَخَلِيفَتُكَ بَعْدَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ  
 تَهَافَتَ عَلَى فَرَّاشِهِ ، وَظَلَّ يَبْكِي لِبِسْكَائِهِ ، وَيَنْشِجُ لِنَشِيجِهِ ،

فاستنار قلبُ الرجل بنور الأمل ، وقال أحمَدُ اللهم فقد رحمتَ ولدي ، وحفظتَ بيتي

وما هي إلا أيامٌ قلَّ لهُ حتى كتبَ الشيخُ كتابَ الوصية بيده ، ثم أجاب دعوةَ ربه ناركافي يد ذلك الصديقِ الكريمِ مجده وشرِّفه ، وماله وولده

اتخذ الشيخُ ذلك الرجلَ صديقاً له في الأعوام الأخرى من أعوام حياته بعد ما رآه يكثر الاختلافَ إليه ، ويطيل اللبثَ بجانبه ، ويلتزم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته ولبائاته ، ذلك إلى ما كان يراه متجعلاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجادات ، والتسبيحات المتواليات ، وعفةٍ حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته ، وتورعٍ حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته ، فاستخلصه لنفسه ، وأنزله من قلبه المنزلة التي لا ينزل معها غيره ولده ، وأصبح آثرَ الناسِ عنده حتى ما يستطيع فراقه ( ٢٤ نى — النظرات )

لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، إلى أن أحس باقتراب الأجل ،  
فأوصاه بما أوصى ، وعهد إليه بماعهد

هذا هو تاريخُ ذلك الصديقِ في حياة الشيخ ، أما  
تاريخه بعد مماته فسا سَمِعْكَ منه ما تهوَّى له الأفلاك عَجَبًا ،  
وتخَرَّ له الجبالُ هَدًّا

لم تكن صلاته إلا رياء ونفاقا ، وركوعه وسجوده  
إلا كيداً ودهاناً ، وعفته وزهادته إلا حباله نصيبها ليعلق  
بها عقلُ الشيخ وقد علق ، فيسلبه ماله وولده وقد فعل ،  
وما كان اختلافه إليه ، ولا تردده عليه ، إلا طمعاً في هذا  
المصير الذي صار إليه ، فلما علم أن قد تم له من أمره  
ما أراد أطلق يده في مال الصغير بعث به عبث النكباء  
بالعود ، وابتاع به لنفسه ماشاء أن يبتاع من قصور  
ودور ، وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعدما كان خاملاً ،  
ونبت ريشه بعد ما كان عارياً ، وأصبح صاحب السلطان  
المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ، ويعز من يشاء

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغُ عما قليل أشده ،  
 ويملك رشده ، وأنه سيقطعُ عليه لذته ، ويقف له موقفُ  
 المعارضِ سبيله ، ويحاسبُه على القليل والكثير ، والصغير  
 والكبير ، فلم ير بداً من أن يُعد لذلك اليومُ عُده ،  
 فعمدَ إلى الولد فقطعه عن المدرسة ، لأنه لا يجبُ أن ينشأ  
 متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع  
 الفجور لأنه لا يجبُ أن ينشأ عاقلاً ، وما زال يُنفق عليه  
 وعلى الموكلين بافساده من وراء حجاب حتى علق الشرابُ برأسه  
 علوق السلال بالصدور ، فأصبح بين الحانات والمواخير ،  
 كالطائر بين الأغصان ، لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً  
 فكانما وكل بعقله مقراضاً يبضعُ له في كل يوم منه  
 بضعة حتى كاد يأتى عليه ، فما بلغ السنُّ التي يرشُدُ فيها  
 القاصرون حتى استحال الوصىُّ على القاصر ، فيما على المعتوه ،  
 ولم يبذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لُقيات  
 ألقاها من فتات تلك المائدة إلى أعضاء المجلس الحسبي

فأدخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب  
 شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ،  
 وإقامة القوام عليهم ، رحمة بهم ، فاستحالت على يد  
 المجالس الحسبية نعمة عليهم ، وأصبح اللص الذي يجهل  
 صناعة فتح الأقفال ويتقى مغبة تسليق الجدران ، قادراً على  
 أن يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من  
 حيث يأمن عن نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجبر  
 الأغلال الثقال في غيابات السجون ، وانتقلت الثروات العظيمة  
 من أيدي أصحابها مخافة أن يسرقوا فيها ، إلى أيدي آخرين  
 يبددونها تبديداً ، ويمزقون أديعها تعزيقاً ، من حيث لا يكون  
 بينهم وبين المورث صلة نسب ، أو وشيجة رحم ، حتى أصبح  
 السعى إلى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً  
 من الأعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ،  
 والجهل الفاضح ، فمن لى إن أنا دبوت المال وجمعتُه أن  
 لا يكون خليفتي عليه من بعدى لصاً من أولئك اللصوص

الذين تمنحهم المجالسُ الحسبية، ماتمنعهم الشرائع الإلهية ؛  
ومن لى أن أعيش إلى أن أدرك ولدى فأتولى أمر  
تربيته بنفسى قبل أن يظفر به فى حدائته ظفرٌ جارح من  
أظفار أولئك الأوصياء فيُميتَ نفسه ، ويقتل عقله ،  
ويفسدَ عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق  
نفسى فى عالمها ، ويزعج عظامى فى مرقدها ؟

فلقد حدثنى مَنْ قص على تلك القصةَ أن ذلك  
الوصىَّ لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام  
ما أراد عمد إلى تزويجه من فتاةٍ حسنة من بنات الأشراف  
ما كان يعينه أن يزوجه منها ، لولا أن له فى ذلك مآرباً  
من المآرب الفاسدة ، فانها ما كادت تخلع ثوبَ عرسها حتى  
أنشأ يختلف إليها ، ويكثر اذديارها فى الجناح الذى تسكنه  
من القصر ، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية  
والرعاية ، وبحجة النظر فى شؤونها ومراقبتها ، ثم ما زال  
يختلها عن نفسها ، ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان ،

حَتَّى عَلِقَتْ بِجِبَالَتِهِ ، كَمَا عَلِقَ بِهَا غَيْرُهَا مِنْ قَبْلِهَا ، فَفَرَّكَتْ  
 زَوْجَهَا ، وَبَرَمَتْ بِهِ ، فَرَابَهُ مِنْ أَمْرِهَا مَا رَابَهُ ، فَرَصَدَهَا  
 لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي حَتَّى عَرَفَ سِرَّهَا وَمَوْضِعَ هَوَاهَا ، فَشَكَ ،  
 فَلَمْ يَجِدْ سَامِعًا ، ثُمَّ بَكَى ، فَلَمْ يَجِدْ رَاحِمًا ، فَكَانَ يَقْضِي كَثِيرًا  
 مِنْ لَيَالِيهِ فِي غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ الْقَصْرِ وَاجِمًا مَطْرَقًا مُسَلِّمًا  
 رَأْسَهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَدَمَعَهُ إِلَى خَدَيْهِ ، لَا سَمِيرَ لَهُ وَلَا مُؤْنَسَ  
 إِلَّا رَنَاتُ الضَّحِكَ الَّتِي كَانَ تَهْلُ عَلَيْهِ مِنْ مَخْدَعِ زَوْجِهِ ،  
 فَكَانَ يَثْبُتُ تَارَةً وَثِيَّةَ الْأَسَدِ فَيُثِيرُ فِي الْقَصْرِ ثَائِرَةً شَعْوَاءَ  
 تَضْجِعُ لَهَا جَوَانِبُهُ ، فَيَتَسَارِعُ إِلَيْهِ الْخَدَمُ فَيَضْرِبُونَ عَلَى يَدِهِ  
 وَفِهِ ، وَأُخْرَى يَعُودُ إِلَيْهِ بِلَهْهِ وَخَبْلِهِ ، فَيَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْمُنَظَرِ  
 الْمَوْلَمَةِ نَظَرَ الضَّاحِكِ اللَّاعِبِ

مَرَّتْ عَلَى تِلْكَ الْحَوَادِثِ سِنَوَاتٌ اسْتَأَثَّرَ فِيهَا ذَلِكَ  
 الْوَصِيُّ بِتِلْكَ الدَّائِرَةِ الْوَاسِعَةِ ، وَأُلْحَ عَلَيْهَا بِكَلِمَاةٍ ، حَتَّى اجْتَزَا  
 وَبَرَّهَا ، ثُمَّ اسْتَكْشَطَ جِلْدَهَا ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا هَيْكَلٌ عَظِيمٌ  
 قَائِمٌ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ قَدْ قَامَتِ قِيَامَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ قِصَّتَهُ

مع الغلام وزوجه قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه  
الثاقب قد مال إلى الأفول ، عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها  
تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم .  
تَفَتَّحَ للغلام بعد انقباضه ، وابتسم إليه بعد تقطيعه ،  
وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب  
فاره ، ومزاهر وعيدان ، وكؤوس ودنان ، ثم خلا به  
في ساعة من ساعات لثوته وارتياحه ، فقال له أيها الصديق  
قد آن أوان استقلالك بشأنك ، وانفردك بأمرك . فاكتب  
إلى المجلس الحسبي رُفْعَةً تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واكتب  
نوقيعك على هذه « المخالصة » براءة لذمتي ، فاستطير الغلام  
فرحاً وسروراً ، وما لبث أن كتب الأولى ، ووقع على  
الأخرى ، ثم أوعز الوصي إلى المجلس الحسبي بتلبية طلبه ،  
فلباه ، وقضى برفع الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال  
الظامئ كأس الشراب ، وكان لا بد له من أن يشرب حتى  
يَبْشِمَ ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجده ، وكان



الرجلُ قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصةَ حاجته إلى المال فيمنحه ما يريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذُ منه صكَّ البيع باليسار ، وزال هذا يعطى ، وذلك يأخذ ، حتى أصبح نصفُ « الدائرة » بعد عامين ملكاً لعون الوصى اليوم ، وللوصى غداً ، بثمن لا يساوى عُشرَ معشارِها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بما لها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصى وقعد ، ونادى فى الناس بصوت يشبه صوتَ الحق ، ونعمةٍ تشاكل نعمةَ الصدق ، أيها الناس قد كنتُ أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه ، فكذبتُم قولى ، وسفّهتُم رأى ، وما زلتُم تقولون وتقولون حتى أخرجتُم صدرى ، ودفعتمونى إلى الغدر بذلك العهد الذى أخذته على ذلك الصديقُ الكريم أن أتولى شأنَ ولده من بعده ، وألا أتخلى ساعةً واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعاملون من تبديد ثروته ،

وتمزيقها ، فهاء تَم ترون بأعينكم شُؤمَ رأيكم ، وجريرة سعيكم  
ثم أعاد كرتَه على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي  
فأعاده سيرته الأولى ، ووضع في عنقه غلاً لافسكك له من  
بعده إلى يوم يبعثون

ليت شعري هل يعلم ذلك المقبورُ في لحده ما صنعتُ  
يدُ الحدنان بماله وولده ؟ وأن المال قد ورثه غيرُ وارثه ،  
واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولده قد أصبح بعد ذلك الملك  
الكبير ، والجنة والحريز ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة  
فتلتوى عليه ؟ وأنه يبيتُ الليالي ذواتِ العدد مطرَحاً في زاوية  
من زوايا الحانات لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير  
قطع السحاب ؟ وهل أعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى  
في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تُكشفُ الهنات ، وتفضح  
العورات ، فيمسك ولده يميناه ، ووحيه يسراه ، ثم  
يناجي ربه ويقول : اللهم أعذني على هذا الكاذب الذي  
ختلتني وخدعني ، وخفر ذمتي ، وخاس بعهدي ، وخان

أمانتى ، وأفسد وصيتى ، وخذُّ لولدى بحقه من هذا  
الظالم الذى سرق ماله ، وهتك عرضه ، وعذب  
نفسه ، ونقص عيشه ، فأنت أعدل الحاكمين ،  
وأرحمُ الراحمين



## العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام يقفُ ركبُ العالم  
السائرِ بمنزلةٍ من منازل الحياة ، فينزلُ عن مطاياهِ  
ليستريحَ فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال منه الأُينُ  
والكلالُ ، وأنضاه سُرى الليل وسير النهار ، ثلاثمائة  
 وخمسة وستين يوماً

هنالك يجتمعُ السَّفَرُ<sup>(١)</sup> في صعيدٍ واحد فيتعارفون  
ويتصافون ، ويتفقدهم بعضهم بعضاً ، فيجدون أن فلاناً مات  
جوعاً ، وفلاناً مات ظمأً ، وآخر افترسه سبعٌ ، وآخر قتله  
لِصٌّ ، وآخر مات غيلةً ، وآخر سقط عياً ، وآخر طارت به  
قنبلةٌ ، وآخر هوت به طيارة ، وآخر اجتاحه بُرٌّ كان ، وآخر

تردى عليه معدن ، ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء فيدون  
 فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازن بين هذا وذاك  
 فيجدون أن الحاضر شرٌّ من الماضي ، وأن ميادين الحروب  
 لا تزال ملوثةً بالدماء ، ومصانع الموت لا تزال تفتن في عدده ،  
 وتستكثر من أدواته ، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبةً  
 بنفوس البشر حتى ما يمتنى أحد أن تقع عينه على أحد ، وأن  
 سحْبَ البغضاء القائمة لا تزال مخيمةً على المجتمع الانساني  
 من أدناه إلى أقصاه ، شعوباً وقبائل ، وأجناساً وأنواعاً ،  
 ومذاهب وأدياناً ، ومنازل وأوطاناً ، فيبغض الرجل صاحبه  
 لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه  
 يخالفه في دينه . فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطق بغير  
 لفته ، فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه ،  
 فإن كان مشاركاً له أبغضه لأنه يزاحمه في حرفته ،  
 فإن بعد عن طريق مزاحمته أبغضه لأنه يخالفه في رأيه ،  
 فإن لم يخالفه فيه أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه ، فإن

لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه ،  
 كأنّ قضاءً حتماً على الانسان أن يبغض كلَّ صورةٍ غيرِ  
 الصورة التي يراها كل يوم في مرآته

فاذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة  
 بين حاضرم وماضيهم ، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية  
 سيئةَ الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ، ووضع كلٌّ  
 منهم يده في يد أخيه مهنئاً له بالعيد السعيد ، داعياً له بدوام  
 الغبطة والهناء ، ثم نادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية  
 بعد قطع المرحلة الماضية

علام يهنئ الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من الدنيا  
 فيحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتنبوا بقطع المراحل التي  
 يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحدٌ يستطيع  
 أن يزعمَ أنه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى سعيداً كما  
 أصبح ؟ أو انه رأى برقاً من بروق السعادة قد لمع في إحدى  
 لياليه ، ولم ير بجانبه ما يُرى في الليلة البارقة من رُعودٍ قاصفة ،  
 ورياحٍ عاصفة ، وصواعقٍ محرقةٍ ، وشهبٍ متطيرة ؟

بأية نعمةٍ من النعم ، أو صنعةٍ من الصنائع ، تمن يدُ  
الحياة على إنسان لا يفلت من ظُمة الرِّحم إلا إلى ظُمة  
العيش ؛ ولا يفلت من ظُمة العيش إلا إلى ظُمة القبر ؛  
كأنما هو « يونسُ » الذي التَقمه الحوتُ فمضى في ظلمات  
بعضها فوق بعض ، وأية يدٍ من الأيادي أسدتها الأيامُ  
إلى رجلٍ يظلُّ فيها من مَهْدِهِ إلى لَحْدِهِ حائرًا مضطربًا ،  
يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويشلج  
صدره ، فلا يعرف لها مذهبًا ، ولا يجد إليها سبيلًا ؛  
إن كان غنياً اجتمعتْ حوله القلوبُ الضاغطة ، واصطلحت  
عليه الأيدي الناهبة ، فاما قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً  
عدَّ الناسُ فقره ذنباً جنته يداه ، فتتناوله إلا كُفٌّ بالصَّفْعِ ،  
والأرجلُ بالركل ، والألسنُ بالقذف ، حتى يموتَ الموتَ  
الكبرى ، بعد أن مات الموتَ الصغرى ، وإن كان عالماً  
ولع الحاسدون بدمه وهجوه ، وتفننوا في تشويه سمعته ،  
وتسويد صحيفته ، ولا يزالون به حتى يعطيهم العهدَ  
والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل ، وحيًا كميت ،

وأن يكتم علمه في صدره ، فلا يفضي به إلى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلاً اتخذهُ العالمون مَطِيَّةً يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم ، من حيث لا يهادونها ولا يرفقون بها ، حتى يعقروها ، وإن كان بخيلاً ازدرته القلوب ، واقتحمته العيوب ، وتقلصت له الشفاه ، وبرزت له الأنياب ، وانقبضت له الأسرة ، والتهبت له الأنظار ، وأرسلت إليه الاضغانُ ألسنةَ نيرانها حتى تحرقه ، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شرّاً الذين أحسن إليهم ، إما لأنه أذاقهم جرعةً باردةً فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يُخَيِّلُ إليهم أن المحسنَ يُريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدى وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الاحسان بلا مقابل ، فهم ينقمون عليه أن عرف كيف يفلت من أيديهم

لا سعادةَ في الحياة إلا إذا نشر السلامُ أجنحته



البيضاء على هذا المجتمع البشرى ، ولن ينتشر السلام إلا  
إذا هدأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل  
والانصاف ، فعرف كل ذى حق حقه ، وقنع كل بما فى يده  
عما فى يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ،  
ولا محدود مجدوداً ، ولا جاهل عالماً ، واشعرت القلوب  
الرحمة والحنان على البؤساء والمنكوبين ، فلا يهلك جائع  
بين الطاعمين ، ولا عار بين الكاسين ، وامتلات النفوس  
عزة وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال  
أموال الناس باسم الدين مرة ، والانسانية أخرى ، ولا ترى  
طبيباً يدعى علم ما لم يعلم ليسلب المريض رُوحه وماله ، ولا  
محامياً يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب  
منه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر  
بعد ذلك أنه لص خبيث ، ولا كاتباً يضرب الناس بعضهم  
ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها ، كما يضرب القادح  
الزند بالزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما

وما دامتْ هذه المطالب أحلاماً كاذبة ، وأمانى باطلة ،  
 فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا  
 هناءة ، ولا فرق بين أمسِ الدهر ويومه ، ولا بين يومه  
 وغده ، ولا فرق بين مخفلات أيامه ، ومعلمات أعياده ،  
 فليهنأ بالعيد مَنْ عرف من أيامه غيرَ ما عرفتُ ، وذاق  
 من نعمائه غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمدِ  
 ما مضى من أيامه ، وسالفِ أعوامه



## سحر البيان

رأيتُ في إحدى روايات شكسبير وهي الروايةُ المعروفة برواية ( يوليوس قيصر ) موقفاً لبطلين من أبطال الفصاحة ، وفارسين من فرسان البيان ، قد وقف كلٌّ منهما من صاحبه موقفَ اللاعبِ من اللاعب ، ووقف الشعبُ الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين ، تعلو بها حيناً ، وتسفلُ أحياناً ، فلا تثبت صاعدةً ، ولا تستقر هابطةً ، فعلمتُ أن العامةَ عامةٌ في كل عصر ، والشعبُ شعب في كلِّ مصر ، وأن سواد الأمة نحت صرّح فرعون ، مثله تحت عرش قيصر ، وأنه في رأس التاريخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريخ المحمدي ، تدنو به كلمة ، وتنأى به أخرى ، وتجذبُه دمةٌ ، وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريرات

والخيلالات طيرانَ الريح الهوجاء، بذرات الهباء  
علم بروتسُ الشريفُ الرومانى أن يوليوس قيصر  
قد استعبد الشعبَ الرومانى وأذل نفسه ذلاً ملك عليه  
حواسه ومشاعره حتى ما يكاد يشعر بمرارته، وكذلك  
الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله  
فيها، وعلم أن حياة ذلك الشعب، فى موت ذلك القيصر،  
فهان عليه أن يقتلَ صديقه وسيده، افتداءً لأمته ووطنه،  
فطعنه طعنةً نجلاءً سلبته نفسه فى لحظة واحدة، فهاج الشعبُ  
الرومانى على القاتل وأعوانه هياجَ الأمواج الثائرة، على السفن  
الماخرة، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب الهاج المحتدم  
وقفه المستبسل المستعيت، وكان لابد له فى هذا الموقف  
من أحد المصيرين، إما نصرته يعلو به الى مدار الافلاك،  
أو خذلانه يهوى به الى مقر الاسماك، ومن أحد المخرجين،  
إما مخرجه مرفوعاً على محفة الابطال، أو محمولا على أعناق  
الرجال، فبعد لأى مما استطاع بعضُ الزعماء أن يسكن

ثائرةً الثائرين ، ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته

### الخطبة

بروتس ( وهو على منبر الخطابة ) — أيها الرومانيون .  
أتعدونني بالصبر قليلا على سماع ما أقول من حلول الكلام  
ومره ، إكراما لموقفي ، وإكراما للعدل ؟

أنا لا أريدُ أن أخدعكم ، ولا أن أعثَ بعقولكم  
وأهوائكم ، بل أريدُ منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظر  
الحذر المتيقظ الذي لا يعطى هوادة ولا يلقى قياداً ،  
لأنني لا أعتقد أن في زاوية من زواياها كميناً أخاف أن  
تقع عليه العيون

أيها الرومانيون : ان كان بينكم صديقٌ أقصر يحبه  
ويذوبُ حزناً عليه فليسمح لي أن أقول له : أيها الصديقُ

الكريم ، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر منك

أيها القوم ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم فاعلموا أني ما قتلت قيصرَ لأنني كنت أبغضه ، بل لأنني كنت أحب روما أكثر منه

كان قيصر عظيماً فأحبيته ، وكان شجاعاً فاحترمته ، ولكنه كان طماعاً فقتلته ، ففي ساعة واحدة منحته دمي وقلبي وخنجرى

أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر ، فأنتم رومانيون ، والروماني لا يحب أن يعيش ذليلاً

من منكم يكره أن يكون رومانياً ؟ من منكم يكره أن يكون حراً ؟ من منكم يحتقر نفسه ؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه ؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم ، لأنه هو الذى يحق له أن يثارَ لنفسه منى ، لأننى لم أسيء إلى أحد سواه

الشعب — لا ، لا ، ليس فينا واحدٌ من هؤلاء

بروتس — إذن أنا لم أسيء إلى أحد منكم

وهنا دخل انطونيوس صديقُ قيصر ورأس الناقين

على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على أيديهم

جثة قيصر لتأيينه في هذا المجمع الحاشد ، فاستأنف

بروتس الكلام وقال :

ها هي جثة قيصر ، وهاهو صديقه أنطونيوس

قد جاء ليؤنبه فاستمعوا له ، واعلموا أن قيصر المذنب ،

غير قيصر الماحد ، وقد سمعتم ما قيل عن الأول ، فاسمعوا

ما قيل عن الثاني ، واسمحوا لي أن أقول كلمة أختم

بها خطابي :

أيها الرومانيون ، إن الخنجرة الذي ذبحت به قيصر

في سبيل روما لا يزال باقياً عندي لذبج بروتس في سبيل

قيصر إذا أرادت روما ذلك

## تأثير الخطبة

الشعب - ليحي بروٲسُ  
أحد الناس - أنا أقترحُ أن نحمّله على الأ كُفّ  
إلى منزله

آخر - انصبوا له تمثالا  
آخر - امنحوه عرشَ قيصر  
آخر - إنه أفضلُ من قيصر  
آخر - إن قيصر كان ظالماً  
آخر - إنه كان الظلم بعينه  
آخر - لنهنا روما بالخلاص منه  
آخر - ألا نسمعُ تأييدَ انطونيوس ؟  
آخر - نعم نسمعه لأن بروٲس أمر بذلك  
وهنا نزل بروٲسُ والقلوبُ طائرةٌ حوله ، والعيون  
حائمةٌ عليه ، ثم وقف على أثره انطونيوس فرمقه الشعب  
بعين الغضب والحقء ، ولولا إشارةٌ من بروٲس ما استطاع



أن يثبتَ في موقفه لحظةً واحدةً ، ثم أخذَ يتلو كلمةَ  
التأبين المشهورةَ التي هي آياتُ الآياتِ في اللغة الانكليزية  
فصاحةً وبياناً

## القصيدة

أنطونيوس - أيها الرومانيون :  
أحد الناس - اسمعوا ما يقول أنطونيوس  
آخر - لا ، لا نسمعه  
أنطونيوس - اسمعوني إكراماً لبروتس  
أحد الناس - ماذا يقولُ هذا الرجلُ عن بروتس  
آخر - لا يقولُ شيئاً  
آخر - إذن نسمعه  
أنطونيوس - أيها الأصدقاء ، إنني ماجئتُ هنا  
الساعةَ لأرثيَ قيصر ، بل لأدفنَ جثته  
أيها القوم : ما من أحدٍ من الناس إلا وله في حياته  
أعمالٌ حسنةٌ ، وأخرى سيئةٌ

أما حسنائه فتموتُ بموته ، وأما سيئاته فتبقى من بعده  
إلى يوم يُبعثون

كذلك كان قيصرُ في حياته ومماته ، وكذلك كانت  
حسنائه وسيئاته

أيها القوم : ما كنتُ لأستطيعَ أن أقفَ موقفي هذا  
بينكم ، ولا أن أقول كلمةً مما أريدُ أن أقول ، لولا أن  
بروتس قاتلُ قيصرِ أمرني بالوقوف ، وأمرني بالكلام ،  
وهاءنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنتُ له ، لأنه  
رجلٌ شريف

أيها القوم : يقول الشريفُ بروتسُ إن قيصرَ كان  
رجلاً طماعاً ، وأنا لا أستطيعُ أن أخالفه فيما يقول لأنه  
رجلٌ صادق لا يكذب

أنا لا أستطيعُ أن أقول إن قيصرَ كان رجلاً قانعاً  
معتدلاً ، لأن الشريفَ بروتسَ يقول غير هذا

كلُّ ما أستطيعُ أن أقوله إن الفديةَ التي اقتدى بها

أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم قيصرُ إلى روما قد ملأت  
الخزانة العامة حتى فاضت بها

كل ما أستطيعُ أن أقوله إني رأيتُ قيصرَ بعيني  
يبكى لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبست الليالي  
ذوات العدد ساهراً لا يفتنضُ له جفن ، حدباً بهم ،  
وعطفاً عليهم

كل ما أستطيعُ أن أقوله إني عرضتُ بنفسى تاجَ  
الملك على قيصر في لوبركال عدة مرات فأباه زهداً فيه ،  
وتعففاً عنه

كنت أستطيعُ أن أقول إن الطمعَ لا يسكنُ قلباً  
مثلَ هذا القلب ، ولا يخالطُ فؤاداً مثلَ هذا الفؤاد ، لولا أن  
بروتسَ يقولُ إن قيصرَ رجل طماع ، وأنا لا أستطيعُ  
مخالفته ، لأنه رجل شريف

أيها الرومانيون ، انكم أحببتم قيصرَ قبل اليوم حباً  
جماً ، فما الذى يمنعكم اليومَ من البكاء عليه ؟

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لأنكم  
 كنتم تحبونه ، إبكوه لأنه كان بالألمس ينطقُ بالكلمة  
 فتدوى في صدور العظماء ، دوى الرعد في آفاق السماء ، فأصبح  
 اليوم مطرًا حاميًا مهينًا في ظلِّ هذا الحائط ، لا يجدُ بين الناس  
 من يأبه له ، ولا من يعطفُ إليه

أيها العقلُ الانساني ، كيف حالتُ حالك ، وتغيرت  
 آيك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الانسية ، إلى الصدور  
 الوحشية ؛ وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبُك ،  
 فحسبت الخير شرًّا ، والشر خيرًا ؟ واختلط عليك الأمرُ ، فلم  
 تستطع أن تميز بين الحسنات والسيئات ، والمكارم والجرائم ؟  
 أيها الرومانيون : عفواً إن هذيتُ بينكم ، أو أسأتُ  
 إليكم ، واعلموا أن الحزن قد قسم فؤادي قسمين ، قسم  
 على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش

أيها الأصدقاء ، إن بين جنبي قلباً يخفق بحبكم ،  
 والعطفِ عليكم ، والرافةِ بكم ، ولولا مخافة أن تنفجرَ

صدوركم حزناً وجزعاً لقلتُ لكم إن قيصرَ قُتلَ مظلوماً  
 إننى أعتقدُ أن بروتس ورفاقه قومٌ شرفاء عظماء ،  
 لذلك أحب أن أسىءُ إلى نفسى وإلى قيصر وإليكم قبل أن  
 أقولَ إنهم أخطؤا فى قتل قيصر  
 (وهنا صمتَ أنطونيوسُ وأرسل من جفنيهِ بضعةَ  
 قطراتٍ من الدموع )

### الانقلاب

أحد الناس ( يقول لصاحبه ) يلوحُ لى أن فيما يقول  
 الرجلُ شيئاً معقولاً  
 آخر — إنك إن أنعمتَ النظرَ وجدتَ أن قيصر  
 قد أسىءَ إليه  
 آخر — لقد أثرَ فى نفسى زُهدُهُ فى تاج الملك  
 آخر — لقد أحزننى عليه أنه كان يبكى رحمةً  
 بالفقراء

آخر - ان الذى يرثى لبؤس البؤساء لا يكون  
طماعاً ولا ظالماً

آخر - إذا فسيكون لمقتل قيصر شأنٌ غيرُ الشأن  
الأول

آخر - لا بدّ من عقاب القاتل  
آخر - ( يقول لجليسه ) انظر إلى أنطونيوس فهو  
يبكى وينتحب

آخر - ليس فى رومة رجلٌ أشرف من انطونيوس  
انطونيوس - أناذنون لى أن أفارق موقفى هذا لحظة  
لأقف قليلا بجانب جثة القتيل ؟

الشعب - نعم نعم  
( فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر  
وهو لا يزال فى ملابسه التى قُتل فيها ولا تزال طعناتُ  
الخناجرِ ظاهرةً فى قبائه ثم قال )

انطونيوس - من كان يملكُ منكم دموعا فليعدّها

لهذا الموقف العظيم ، فانه موقفٌ يحتاج إلى كل في عيونكم  
من دموع

إنكم تعرفون جميعاً هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون  
من تاريخه شيئاً ، أنا أعلمُ أن قيصرَ لبسه أول ما لبسه  
في مساء اليوم الذي انتصر فيه على ( الدقي ) ذلك الانتصار  
العظيم الذي نالت به روما نخر الأبد

( ثم وضع يده على أحد الثقوب التي في القباء وقال )  
في هذا القباء الشريف مزقتُ جثةُ هذا الفاتح العظيم ،  
ومن هذا الثقبِ مرَّ خنجرُ بروتس إلى صدر قيصر ،  
ومن هذا الثقبِ أطل دمُ قيصر ليرى بعينه وجهَ الضارب ،  
وأحسب أن جميع أفراد النوع الانساني قد مروا بمخاطر  
قيصر واحداً فواحداً قبل أن يمر بمخاطره صديقهُ بروتس  
عرف قيصرُ أن قاتله هو صديقه ، وصنيعه إحسانه ،  
ففترت همته ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنة التي أصابته  
في جسمه ، لم تكن بأقل من الطعنة التي أصابته في قلبه ،

ولم يكن منظرُ المَدَى والخناجر، أبشعَ في نظره من منظر  
الخيانة والغدر، هنالك عجز قيصرُ عن أن يقولَ شيئاً  
غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداعَ الأخير :  
(وأنت أيضاً يابروتس ؟)

وهنالك تحت تمثال « بومباي » وجد قيصر قتيلاً وقد  
ألف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظرِ كُفْرِ  
النعمة، ونكران الجميل

هؤلاء تبكون على قيصر فشكراً لكم على هذه  
لدموع الكريمة التي طهرتم بها مالوثت به يدُ الظلم تربةَ  
هذه الأرض من الدماء

انكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم  
لو شاهدتم مآتمزق من جسده

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه وقال )

إن في كل جرح من هذه الجروح لساناً يشكو اليكم ،  
فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء



أحد الناس — ياله من منظرٍ فظيع !!

آخر — وارحمته لقيصر !

آخر — ان يوماً يقتل فيه قيصر ليومٌ شرُّه مستطير

آخر — ياللدناءة والسفالة ! !

آخر — ياللغدر والخيانة ! !

آخر — الانتقام الانتقام

الشعب (وهو يضح ضحيجاً عظيماً) أحرِّقوا القتلة ،

مزقوهم ، لا تبقوا على أحد منهم

أنطونيوس — مهلاً مهلاً ، أنا لا أريد أن أشعلَ بينكم

فتنةً عمياء ، ولا أريد أن تطالبوا القتلةَ بالدماء التي

أراقوها ، فإنني لا أزال أعتقد أنهم قومٌ شرفاء ، وربما

كانوا يعرفون أسباباً لقتله لانمرقها ، وإنما أريد أن أقول

لكم أن قيصر كان يحبكم حباً جماً ، فهو يستحقُّ رثاءكم له ،

وبكاءكم عليه

لولا أنني أوثر الإبقاء عليكم ، ولولا أنني أحب تخفيفَ

ما ألم بقلوبكم من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصيته ،  
لتعلموا أن الرجل كان يحبكم ، وأنه ما كان خليقاً أن يُقتل  
بينكم ، وفيكم عينٌ تطرف ، وعرق ينبض

الشعب — اقرأ الوصية

أنطونيوس — إني أخاف على صدوركم أن تنشق  
حزناً على القتل الشهيد

الشعب — نريد سماع الوصية

أنطونيوس — انه يعطى كل فردٍ من أفراد الشعب  
الرومانى خمسةً وسبعين فرنكا ويوصى بجميع غاباته  
ومتنزهاته للأمة

أحد الناس — ياله من رجلٍ كريم !

آخر — ياله من رجل شريف ! !

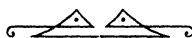
آخر — ويل للقتلة !

آخر — الثورة ، الثورة

آخر — سنحرق منزل بروتس

ثم خرج الشعبُ يتدفقُ في شوارع روما تدفقَ  
 الأمواجِ الثائرةِ في القاموس المحيط  
 أنطونيوس ( في موقفه وحده ) — أيتها الفتنةُ  
 العمياء ، قد أيقظتكِ من مرقدكِ فارفعي رأسكِ ، وامضي  
 في سبيلكِ ، واشتعلِ حتى يحرقَ لسانكِ أديمَ السماء ،  
 ووجه الغبراء ، اهـ

وهكذا استطاع أنطونيوسُ في موقفٍ واحد أن  
 يستعبدَ الشعبَ الروماني لنفسه قبل أن يفيق من استعباد  
 قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لامفر لها من  
 إحدى العبوديتين ، إما العبودية لجملة التيجان ، أو لجملة البيان



## الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لى فى البلدة التى أسكنها كرامة الحاكم لانى أشغل  
وظيفة عالية فيها ، وقد بدا لى أن أختلف إلى المسجد لصلاة  
الجمعة فاختلفت حتى فاجأنى يوماً من الأيام ما لم يكن  
فى الحسبان

حدث أن صعلوكاً يعرفنى ويعرفُ مقامى تمالى  
فى وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجاني فى الصلاة، فاشمأزتُ  
نفسى من هذا الأمرِ اشمزأزاً عظيماً ، وحاولتُ أن أحتمله  
فلم أستطع ، وخفتُ إن اناظر دته أن يؤاخذنى الناسُ به ،  
فهل تعرفُ مسوغاً شرعياً يفرقُ بين درجات الناسِ  
فى مواقف الصلوات ؟ ؟  
( سائل )

يامولانا الحاكم :

رُحماك بهذا الصعلوكِ المسكينِ الواقفِ بجانبك ،  
لا تَضُنَّ عليه بمذقةٍ من ظِلِّك الظليل أن تمتدَّ إليه فتقيَه  
أشعةَ التَّصَعُّكِ الحارةِ التي يتلظى فيها ، ولا تحرمه نفحةً  
من نفحاتك العطرةِ التي تهبُّ من بين أردانك علَّه يجد  
فيها رُوحَ الحياة ويتنسَّم منها نسيمَ السعادة والهناءة فيهدأ  
ساعة من الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه ، وأحسنُ  
كما أحسن اللهُ إليك ، إن الله يُحِبُّ المحسنين

ليفرخ رُوعك ، وليشاج صدرك ، واعلم أن هذا  
المسكين الواقفَ بجانبك لا يستطيعُ مها نال منه العدم ،  
وبرح به الشقاء ، أن يقطع قطعةً من سعادتك ، أو يفتلذ  
فليذة من شرفك ، فشرُّك كالمصباح تستمدُّ منه المصابيح ،  
ونوره نورُه ، وبهاؤه بهاؤه

لا تظلم الرجلَ ولا تقل إنه وقاح الوجه ، أو سىء  
الأدب فاني بما أعلم من أخلاق هؤلاء البؤساء وطبايعهم ومآلهم

التي تعتلجُ بها صدورهم ، وتهتف به أحلامُهم ، أعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتكَ منازلَ العظماء ، أن تدورَ به كذلك ، فتزله منزلتك ، وتعلو به إلى مقامك ، فاغفرْ له جهله وقصوره ، فثلك من يقيل العثرة ، ويستر الزلة

إنك تريدُ مني أن أتمس لك في أبواب الشريعة الإسلامية باباً يسوغُ لك طردَ هذا الصعلوكِ المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك فاسمعْ ما أُلقي عليك :

إن الذي وقفتَ بين يديه في مصلاك أعظمُ شأنًا ، وأجلَّ خطراً ، من أن يحفلَ بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقيصكِ المخبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما يعرفُ لصاحبك ، فما كان له أن يأمرَكَ بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره أن يقف منك موقفَ العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم

إنَّ للْجُمُعَةِ والْجَمَاعَةِ فضائلَ كثيرة، وحقماً جمة، أرادها  
الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم، وتلك  
الفضائل، حكمةً أغلى، ولا فضيلةً أنفس، من خُلِقَ التواضع  
الذى يشعر به العظيمُ عند ما يرى أنه قد وقف من الفقير  
فى ذلك الموقفِ المقدسِ موقفَ الأخ من أخيه، والكفىء  
من كفىئه

إن كنتَ تريدُ يا مولانا الحاكم من اختلافك إلى  
المسجد ألا تترك للفقير موقفا من المواقف يملك فيه الخيارَ  
لنفسه، حتى موقفه بين يدي ربه، فخير لك أن تستصحب  
معك عند ذهابك شرطتك وأعوانك، لتأمرهم فيه بما  
يرضيك من طرده وإقصائه والتنكيل به جزاء له على  
وقاحته وسوء أدبه، فإن تم لك من ذلك ما أردتَ فاحذرُ  
أن تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية، بعد ما نطقت بكلمة  
الألوهية، حتى لا تجمعَ على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء  
فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أن الله لا يقبلها منك،

ولا يَجْزِلُ لَكَ ثَوَابَهَا ، حَتَّى تَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفَ مَنْ خَالَطَتْ  
الْخَشْيَةُ قَلْبَهُ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، فَلَمْ يَعُدْ  
يَبْصُرُ شَيْئًا مِمَّا حَوْلَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ أَوْاقِفُ هُوَ فِي صَفْوَفِ الْمُلُوكِ ،  
أَوْ فِي زَمْرَةِ الصَّعَالِيكِ

أَيُّهَا الْعِظَمَاءُ :

لَيْسَتْ الْعِظَمَةُ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا لِأَنْفُسِكُمْ إِلَّا مَنَحَةٌ  
مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَيْكُمْ ، فَلَوْلَا تَوَاضُعُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مَا عَلَوْتُمْ ،  
وَلَوْلَا تَصَاغُرُهُمْ فِي حَضْرَانِكُمْ مَا اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَلَا تَجْزُومَ  
بِالْإِحْسَانِ سُوءًا ، وَلَا تَجْعَلُوا الْكُفْرَ مَكَانَ الشُّكْرِ ،  
تَسْتَدْفِعُوا النِّقَمَ ، وَتَسْتَدْعِيوُا النِّعَمَ

أَيُّهَا الْعِظَمَاءُ :

مَا هَذِهِ الْقُصُورُ الَّتِي تَسْكُنُونَهَا ، وَلَا هَذِهِ الدُّورُ  
الَّتِي تَعْمُرُونَهَا ، وَلَا هَذِهِ الْأَرْدِيَّةُ الَّتِي تَجْرُدُونَ أَذْيَالَهَا ،  
إِلَّا أَلْوَانًا وَأَصْبَاغًا لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَقَائِقِ نَفُوسِكُمْ ،  
وَلَا صِلَةَ لَهَا بِجَوَاهِرِ أَفْئِدَتِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ ، وَمَا هُوَ



إِلَّا أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهَا شَمْسُ الْحَقِيقَةِ حَتَّى تَذْهَبَ بِهَا، ذَهَابَهَا بِالْوَانِ  
السَّحَابِ، وَأَصْبَاغِ الثِّيَابِ، فَاذَا أَنْتُمْ عُرَاةٌ مُجْرَدُونَ،  
لَا تَشْفَعُ لَكُمْ إِلَّا فُضَائِلُكُمْ، وَلَا تَنْفَعُكُمْ إِلَّا مَوَاهِبُكُمْ وَمَزَايَاكُمْ  
أَيُّهَا الْعِظَمَاءُ

لَا عِذْرَ لَكُمْ فِي الْكِبَرِيَاءِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ،  
فَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَرْبَابِ الْفُضَائِلِ فَخَرِيْتُ بِالْفَاضِلِ أَنْ لَا يَشُوَّةَ  
وَجْهَ فَضِيلَتِهِ بِرَذِيلَةِ الْكِبَرِيَاءِ، أَوَّلًا، فَمَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ عَلَى  
ظَهْرِهَا أَسْمَاجَ وَجْهًا، وَلَا أَصْلَبَ خَدًا، مِنْ جَهْلَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ،  
فَانْظُرُوا أَيْنَ تَنْزِلُونَ، وَفِي أَيِّ مَقَامٍ تُقِيمُونَ



## الانتحار

قرأتُ في بعض الصحفِ أن رجلاً من تجار المسلمين  
انتحر لا لضيقٍ يدٍ ، أو شدةٍ مرضٍ ، أو بؤسٍ حالٍ ، بل  
لأنه حزن على وفاة صديقٍ له فقتل نفسه

إن الرجلَ مؤمنٌ يُعتقدُ ولا شك بسوء عاقبةِ المنتحر ،  
فكيف هان عليه وهو في آخرِ يومٍ من أيام حياته أن  
يضمَّ إلى خسارةِ دنياه ، خسارةَ آخرته ، وهي العزاء الباقي  
له عن كل ملاقاه في حياته من شقاء وعناء

إن الانتحارَ نزعةٌ فاسدةٌ ، وعادةٌ مستهجنةٌ ، رمتنا بها  
المدنيةُ الغربيةُ فيما رمتنا به من مفسدها وآفاتِها

ولقد كنا نعجبُ قبل اليوم من تهالك الشرقيين  
على حبِّ تقليدِ الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم

وكرامتهم ، وكنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهلكِ قلنا  
يوشِكُ أَنْ يَقْتُلَ الشَّرْقِيُّ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ عَادَةٌ  
مِنَ الْعَادَاتِ الْغَرِيبَةِ ، فَقَدْ صَارَ قَرِيبًا مَا كَانَ بَعِيدًا ، وَأَصْبَحَ  
مَأْلُوفًا مَا كُنَّا نَعُدُّهُ فَرَضًا مِنَ الْفُرُوضِ

الانتحارُ منتهى ما تصل اليه النفسُ من الجبنِ والخورِ ،  
وما يصل اليه العقلُ من الاضطرابِ والخبَلِ ، وأحسَبُ  
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُقَدِّمُ عَلَى الْإِنْتِحَارِ فِي رَأْسِهِ ذَرَّةٌ مِنَ  
العقلِ والشعورِ

حب النفس غريزةٌ رَكَّبَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ  
لِتَكُونَ يَنْبُوعَ حَيَاتِهِ ، وَعِمَادَ وَجُودِهِ ، وَالْمُنْتَحَرُ يُبْغِضُ  
نَفْسَهُ أَشَدَّ مِمَّا يُبْغِضُ الْعَدُوَّ عَدُوَّهُ ، فَهُوَ شَاذٌ فِي طَبِيعَتِهِ ،  
غَرِيبٌ فِي خَلْقِهِ ، مُعَانِدٌ لِأَرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَقَاءِ الْكَوْنِ  
وَعُمْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَانَهُ كَانَ بِلَا قَلْبٍ وَلَا عَقْلٍ

لَا عَذْرَ لِلْمُنْتَحَرِ فِي إِنْتِحَارِهِ مِمَّا أَمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْهَمِّ ،  
وَنَفْسُهُ بِالْأَسَى ، وَمِمَّا أَلْتَبَهَ كَوَارِثُ الدَّهْرِ ، وَأَزَمَتْ

به أزمات العيش ، فان ما أقدم عليه أشد مما فر منه ،  
وما خسره أضعاف ما كسبه

لو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تجمع في لحظة  
جميع ما تفرق من آلام الحياة وشدائدِها في الأعوام  
الطوال ، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه  
من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه وما يكابده  
من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة

ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أحزانها ، لا يفيق المرء  
فيها من هم إلا إلى هم ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها ،  
ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ،  
وعز وذل ، وسعادة وشقاء ، فاذا صح لكل مهموم أن يمقت  
حياته ، ولكل محزون أن يقتل نفسه ، خلت الدنيا من  
أهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود إليها ،  
وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

ما سُمي القاتل مجرماً إلا لأنه قاسى القلب ، متحجراً

الفؤاد ، وأقصى منه قاتلُ نفسه ، لانه ايس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول فهو أكبرُ المجرمين ، وأقصى القاتلين

يخدع المنتحرُ نفسه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة ، وأنه إنما يفعلُ فعلته عن روية وبصيرة ، فانه لا يكاد يضعُ قدمه في المآزق الأول من مآزق الموت حتى يتوبَ اليه رشده وهداه ، ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلا

إن ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يده إلى من يرجو الخلاصَ على يده وود لو يفتدى نفسه بكل ما تملك يمينه ، وإن حبس نفسه في غرفته ليموتَ مختنقاً بالغاز ودّ لو سقط عليه سقفُ الغرفة ليستنشقَ نسمةً من نسَمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسيرَ اليد والرجل ، فاقد السمع والبصر إن فكرةَ الانتحار نزغةٌ من نزغات الشيطان ، وخطرةٌ من خطرات النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسهُ بقتل نفسه فليترث ريثماً يتبين كيف يكون صبرُه على

احتمال سكرات الموت ، وآلام النزع ، وماذا يكونُ  
حديث الناس عنه بعد موته ، وهل يمكن أن يوجد بينهم  
عاذر له ، أو مشفقٌ عليه ، أو مقتصد في النيل منه ،  
والسُّخْرية به ، وليَعْرِضْ على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب  
 وأنواع العقاب ، التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله  
إني لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشاً  
في ثوب إنسان ، أو بطلا من أبطال المارستان



## الحياة الشعرية

لولا الحياةُ الشعريةُ التى يحياها الناسُ أحياناً لسمع  
فى نظرهم وجهُ الحياةِ الحسيةِ ، ومرُّ مذاقها فى أفواههم ،  
حتى ما يفتبط حتى<sup>١</sup> بنعمة العيش ، ولا يكره ميت  
طلعة الموت

لذلك نرى كلَّ حى يهرب من الحياة الحسية جدًّا  
الهرب ، لاجئًا إلى الحياة الشعرية من أى باب من أبوابها ،  
لأنه يرى فى هذه مالا يراه فى تلك مما يريح فؤاده ، ويشلج  
صدره ، وينقى عن نفسه السامة والضجر ، من صنوف  
المناظر ، وأفانين المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب  
المختلفات

لولا حبُّ الحياة الشعرية ما وُجد فى الناس كثيرٌ من

المولعين بتخدير أعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيشة  
وآكلى الأفيون ، وهى وان كانت فى نظرهم حياة سعادة  
يتخللها شقاء ، إلا أنها خيرٌ عندهم من حياة شقاء لا تتخللها  
سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد فى الناس هذا  
الجمُّ الغفير من الشعراء المتخيلين ، والعابدين المتبتلين

لا يجد السكيرُ لذة العيش وهنائه إلا إذا أسلم نفسه  
إلى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود  
إلى عالمٍ واسع النطاق ، شاسع الأطراف ، يرى فيه كلَّ  
ما تشتهى نفسه أن تراه ، فان كان قبيحَ الوجه مُشوّه  
الخلقة تخيل أنه شركُ الأَبصار ، وفتنةُ النظار ، وأن  
القلوب مُحلّقةٌ على جماله تحليقَ الأَطيار على الأشجار ،  
وان كان فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس  
على عرش الملك والصولجان فى يمينه ، والتاجُ فوق رأسه ،  
واعتقد أن عبيد الله تعالى جميعاً عبيدُه ، وجنودَ المملكة  
بأسرهم جنودُه ، حتى ذلك الجندى الذى يسحبه على وجهه



إلى غرفة السجن ليَقْضَى فيها ليلته ، وجملة القول أن عينه  
لا تقع على ما يحزنه من المنظورات ، وأن أذنه لا تسمع  
ما ينفره من المسموعات ، حتى يرى الجمال الباهر في وجه  
العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء  
ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة إلا إذا جن الليل ،  
وأوى إلى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل أن له أجنحة  
من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء ، يرى  
الجنة والنار ، والعرش والكرسي ، ويسمع صرير القلم  
في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما  
يكون

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ،  
ومصائبها وأحزانها ، إلا إذا جلس إلى منضدته ، وأمسك  
بیراعه ، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار ، وتنقل به  
بين مسارح الأفلاك ، ومساحج الأسماك ، ووقف به  
تارة على الطلول الدوارس ، يبكي أهلها النازحين ، وقطانها

المفارقين ، وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها  
الباليات ، وأعظمها النخرات

ليس الأملُ إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا  
يوجد بين قلوب البشر قلبٌ لا يخفق بالآمال العظام ،  
والأمانى الحسان ، فالأملُ هو الحياةُ الشعريةُ العامة التي  
يعيش في ظلها الناسُ جميعاً أذكىاء وأغبياء ، فهما وبلداء ،  
والأملُ هو السدُّ المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترضُ  
سبيله أن يتسرب إلى القلوب ، ولو تسرب إليها لضاقت  
بالناس هذه الحياةُ وثقل عيها على عواقبهم ، فطلبوا  
الخلاصَ منها ولو إلى الموت ، طلباً للتغير والانتقال ، وشغفاً  
بالتحول من حال إلى حال

يقولون أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء ، ويقولون  
مالذة العيش إلا للمجانين  
أتدرى لماذا ؟

لأن نصيبَ الأولين من الحياة الشعرية أضعفُ من نصيب الآخرين ، وذلك أن عقل العاقل يحُول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية ، والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق المأموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها ، ومعرفة أن المصائب والآلام لازمٌ من لوازمها التي لا تفارقها ، أن يؤمل منها ما ليس في طبيعتها من دوام السرور ، واستمرار الهناءة ، فلا يطلب سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤمنين ، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين

والحق أقول ، لولا الحياة الشعرية التي أحيانا أحيانا في هذه الكلمات التي أكتبها لأحببتُ زهداً في هذه الحياة الحسية أن تطلع الشمس من مغربها إذاناً بانقضاء العالم وفنائه ، ولتمنيتُ حباً في الانتقال من حال إلى حال أن أنتقلَ ولو إلى رحمة الله

## رباعيات الخيام

وقفتُ رباعيات عمر الخيام<sup>(١)</sup> يوماً من الأيام كما يقفُ  
 مسافرٌ ضلَّ به سبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بوادٍ مُعشِبِ  
 أريض في وسط فلاةٍ جرداء ، عند منقطع العمران ، فما  
 خطوط فيه بعضَ خطوات حتى رأيتُ ما شاء الله أن أرى  
 من أنوار بيضاء ، وورودٍ حمراء ، وألوان من النبات ،  
 مشتهات ، وغير مشتهات ، وغدران مطردة متسلسلة  
 تبسطُ في تلك الديباجة الخضراء ، تبسطُ النجوم البيضاء ،  
 في الديباجة الزرقاء ، وأسرابٍ من الحمام والعصافير ، والبلابلِ  
 والشحارير ، تتطاير من فرع إلى فرع ، وتنتقلُ من غصن إلى  
 غصن ، وتجتمع لتفترقَ ، وتفترقُ لتجتمعَ ، وتقاتلُ مرةً ،

(١) عمر الخيام شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة ورباعياته  
 هذه مترجمة الى أكثر لغات العالم

وتتلاثم أخرى ، وتصعدُ حتى تلامس بأجنحتها جلدةَ السماء ،  
ثم تهبط حتى تصافح صفحةَ الماء ، ولا تزال تغردُ في صعودها  
وهبوطها تغريداً مختلفَ النغمات ، متنوعَ النبرات ، فيتألف  
من ذلك الاختلافِ والتنوعِ نغمٌ لذيدٌ لا أعرفُ له شبيهاً  
إلا تلك الصورةَ الخياليةَ التي أتخيلها في نغم الحُورِ الحِسانِ ،  
في فراديس الجنان

فلم أزل أقلبُ في أعطاف تلك الغلائلِ الخضراء ،  
وأجر ذبول تلك الجداولِ البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى  
رائحاً ولا غادياً ، وأسمعُ فلا أسمعُ هاتفاً ولا داعياً ، حتى  
وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلةً على رأس بعض  
الجداول ، قد اضطجع في ظلها على قطيفه من ذلك العُشبِ  
الناعمِ رجلٌ هانىءٌ باسمٌ ، يقرأ تارةً سورةَ الجَمالِ في وجه  
فتاةٍ جالسةٍ بين يديه ، ويقبل أخرى تُغر الكأس التي تتلأأُ  
في يمينه ، ويترنم فيما بين هذا وذاك بمقطوعاتٍ شعريةٍ بديعةٍ ،  
يمثلُ فيها جمال الطبيعة وهدهدها ، وسعادة الوحدة وهناءتها ،

ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركاً هذا العالم الحافل بالهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كلَّ خاطِرٍ من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه ، وكأسه وفتاته

فإنَّ مرَّ بمخاطره ذكرُ الملوك والأمرء وما ينعمون به من عز وسلطان ، ولذة واستمتاع ، قال مالى وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور السماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنة والشقاء ، والفتنةُ الشعواء والهموم والارزاء ، والدماء والاشلاء ، والعويلُ والبكاء ، وهنا الراحةُ والسكونُ في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لاسيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين ، ثغر الفتاة ، وثغر الكاس ، وذئبِكَ الصديقَيْن ، هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الفصنِ المطل ، كلُّ ما يتمنى السعداء لا نفسهم من غبطة في الحياة وهناءة

وإن ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين

على أنفسهم ، قال إن من العجز أن أبيعَ عاجلَ السعادة  
المعلومَ ، بأجلها المجهول ، أنا اليوم موجودٌ ، فلا بد أن أستمتعَ  
بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به ، ولا بما قدّر لي فيه ،  
وعسيرٌ عليّ أن أتصور أننا معشر الأحياء الناطقين قطعٌ من  
المعدن الصامت نُدفنَ اليوم في باطن الأرض لينبشَ عنا  
الناباشون غدًا

ثم يعود إلى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه  
وارتيابه فيقول : اللهم إنك تعلمُ أني ما كُفرتُ بك مذ  
آمنتُ ، ولا أضمرتُ لك في قلبي غير ما يُضمرُ المؤمنون  
الموحّدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فإنّي ما أذنبتُ عناداً  
لك ، ولا تمرداً عليك ، ولكنّها الكأس غلبتني على أمري ،  
وحالتُ بيني وبين عقلي ، وأنت أجَلُّ من أن تقاضيني مقاضاةَ  
الدائنِ غريمه ، لأنك كريمٌ ، والكريمُ يمنحُ العطيةَ منحاً ،  
ولا يُقرضُها قرضاً ، ويسبغُ نعمته الوارفة الظليلة حتى على  
العصاة والمجرمين

وأحياناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم  
وأمواتهم ، ويقول مخاطباً فتاته : رُويَداً أيتها الفتاة في خطاك  
على هذه الأعشاب النابتة ، فلعل جذورها ممتدة إلى  
كبد فتاة مثلكِ كان لها قلبٌ مثلُ قلبكِ ، ووجدانٌ مثل  
وجدانكِ ، وجمال ورُواء مثل جمالكِ ورُوائكِ ، ثم ضرب  
الدهرُ ضرباته فإذا أنتِ في غلالة هذه الأشعة البيضاء ،  
وإذا هي في دُجنة تلك الأعماق السوداء ، فارفتي بها ،  
واسكبي هذه الفضلة من كأسكِ على تربتها ، عليها  
تتسرب إليها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يحتاجُ بين جوانحها  
ثم يتخيل أحياناً كأنه واقفٌ بين يدي رجل خزاف  
يحرق حماته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه  
الحماة التي تقلبها في هذه النار ، فقد كانت بالأمس إنساناً  
مثلك ، وستكونُ أنتِ في مستقبل الأيام حمأة مثلها ،  
وربما ساقك القدرُ إلى يد خزافٍ يحتاج إلى رحمته ورفقه ،  
فارفتي بها اليوم يرفق بك خزافك غداً  
وآونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينمى على السعداء



سعادتهم ، ويزكروهم بما آلت إليه حالُ الملوك السالفين ،  
والأقوال الماضية ، من خراب دُورهم ، وعُمران قبورهم ،  
وعروبِ شمسهم ، وعفاء آثارهم

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه وترقب ذلك  
اليوم الذى تصوح فيه زهرته ، وتنطفئ جذوته ، وتضعف  
مُنته ، ويمحو نهارُ مشيبه ليلَ شبابه ، فيزحف إلى قبره  
خطوةً خطوةً حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سرّاً مكتوماً  
في ضمائر الأقدار ، وذرةً هائلةً فى مجاهل الأكوان

وهكذا مازال يتنقلُ من عبرة بليغة ، إلى عِظة  
بديعة ، ومن خيال جميل ، إلى تشبيه رقيق ، ومن وصفٍ  
ناطق ، إلى تمثيل صادق ، حتى أصبحتُ أعتقد أن هذه  
النفَسَ التى تشتملُ عليها بردةُ هذا الشاعر الجليل مرآةً  
صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسماؤه ، وليله  
ونهاره وناطقه وصامته ، وصاحبه وباغمه ، وأن فخار الأعرابِ  
بمُتنبئيهَا ومُعربيهَا ، والفرنسةِ بلا مرّتينها وفكتورها ،

والسكسون بشكسبيرِها وملتونها ، والطلليان بدانتها ،  
والالمان بجيتِها ، والرومان بقرجيلها ، واليونان بهوميرِها ،  
ومصر القديمة بنتتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحمدِها ،  
لا يقل عن نخار فارسَ بِنخيَّامِها



## إلى تولستوى<sup>(١)</sup>

قف ساعةً واحدةً نُودِّعُكَ فيها قبل أن ترحلَ  
 لِطِينِكَ ، وتتخذَ السبيلَ إلى دارِ عزْلِكَ ، فقد عشنا  
 في كَنَفِكَ على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط المزار ،  
 عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك وإن لم نرك ، وأبناءك وإن  
 كان لنا آباءك من دونك ، وعزيرٌ علينا أن تفارقنا قبل أن  
 نقضى حقَّ عشرتك بدفعةٍ نذرفها بين يديك في موقفِ  
 الوداع

حدَّثنا الناسُ عنك أنك ضِقتَ بهذا المجتمعِ الانسانى  
 ذُرْعاً ؛ بعد أن أعجزك إصلاحه وتقوُّمه ، فأبغضته ، وعفت  
 النظرَ اليه ، وأبغضتَ لبغضه كلَّ شَيْءٍ حتى زوجك

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الاخبار أن تولستوى الفيلسوف  
 الروسى المشهور ترك منزله هائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الاديرة  
 أو في إحدى الغابات

وولداك ، ففردت بنفسك منه إلى غاب تسمع زئير سباعه ،  
أودبر تانس برنة ناقوسه ، وأسجلت أن لا تعود إليه ،  
وأن تقطع كل صلة بينك وبينه إلى الأبد ، فمذرناك ولم  
نعتب عليك ، ولم نسمعك جباناً ولا رعيدياً ، ولا مولياً  
ولا مذبراً ، لأنك قاتلت فأبليت ، حتى لم يبق في غمدك  
سيف ، ولا فوق عاتقك رُمح ، ولا في كِنانتيك سهم ،  
والعدو كثير عدده ، صعب مراسه ، وافر قوته ، والشجاعة  
في غير موضعها جنون ، والوقوف أكثر من ثمانين عاماً  
أمام عدو لا أمل في براحه ، ولا مطمع في زياله ، عناد ، وهل  
يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت  
قتيلاً في المعركة إلا مصير أولئك الفلاسفة العظماء من قبلك  
الذين قاتلوا حتى قتلوا فهَدَرَت دماؤهم ، واغتمضت عيونهم  
قبل أن يروا منظراً من مناظر الصلاح والاستقامة  
في المجتمع البشري يُعزُّون به أنفسهم عن أنفسهم ، وبروحون  
به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ، وفي أفواههم  
من مرارة الموت ؟

ماذا لقيتَ من الدنيا؟ وماذا أفدتَ منها؟ وأين وقعَ  
علمُك وفضلُك؟ ولسانُك وقلَمُك؟ وقوةُ عارضتِكَ، ومضاء  
حجبتِكَ، من آثامِ الناسِ وشرورِهِمْ، وقسوةِ قلوبِهِمْ  
وأفئدتِهِمْ، وظلمِ ألسنتِهِمْ وأيديهِمْ؟

قلتُ للقيصر أيها الملك إنك صنيعَةُ الشعبِ وأجيرُهُ،  
لا إلهَ ومعبودُهُ، وإنك في مقعدك فوقَ عرشِكَ لا فرق  
بينك وبين ذلك الأكارِ في المزرعة، وذلك العاملِ في المصنعِ  
كلاكِما مأجورٌ على عملٍ يعملُهُ، وكلاكِما مأخوذ  
باتقانٍ ما يعملُ، فكما أن صاحبَ المصنعِ يسألُ العاملَ  
هل وفي عمله ليوفي له أجرُهُ، كذلك يسألكَ الشعبُ هل  
قمتَ بحماية القانونِ الذي وكلَ إليك حراسته فأنفذتَهُ كما هو  
من غيرِ تبديلٍ ولا تأويلٍ؟ وهل عدلتَ بين الناسِ وآسيتَ  
بين قويهِمْ وضعيفِهِمْ، وغنيهِمْ وفقيرِهِمْ، وقريبِهِمْ وبعيدِهِمْ؟  
وهل استطعتَ أن تستخلصَ عقلَكَ من يدي هوائِكَ فلم  
تدعَ للحبِّ ولا للبغضِ سلطانًا على نفسك يعدلُ بك عن

منهج العدل ومحجته ؛ وهل أصممت أذناك عن سماع كلمات الملق والدهان ، والمدح والثناء ؛ فلم تفسد على الناس فضائلهم ، ولم تقتل عزة نفوسهم ، ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، أو الطمع في ضعفك ، مذهب الزاني إليك بالكذب والنيمة ، والتجسس ، والتسقط ، وذلة الأعناق ، وضرع الحدود ، فان وجدك الشعب عند ظنه ، وراك أميناً على العهد الذى عهد اليك به ، أبقي عليك ، وأبقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التى اصطنعتها عنده ، وأحسن إليك كما أحسنت إليه ، أولاً ، كان له معك شأنٌ غيرُ هذا الشأن ، ورأى غير ذلك الرأى

فما سمع منك هذه الكلماتِ حتى أكبرها وأعظمها ، لأنه لم يجد بين الكثير الذين يعاشره من يُسمعه مثلها ، ففقد عليك ، وأضررك من الشر ما يضر أمثاله لا مثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمة وجور من قبل ليُعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في مواقفِ خوفه وقلقه

وقلت للغرن دوق الروسى ليس من العدل أن تملك  
 وحدك وأنت نائم فى سريرك ، بين روضك ونسيمك ، وظلمك  
 ومائك ، هذه الارض التى تضم بين أقطارها مليون فدان ،  
 ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين الذين يفلحونها ويحرقونها ،  
 ويبذرون بذورها ، ويستنبطون نباتها ، ويسوقون ماشيتها ،  
 ويتقلبون بين حرها وبردها ، وأجيجها وثلجها ، شهر أو واحداً  
 فيها ، فاعرف لهم حقهم ، وأحسن القسمة بينك وبينهم ،  
 وأشعر قلبك الخجل من منظر شقايتهم فى سبيل سعادتك ،  
 وموتهم فى سبيل حياتك ، واعلم أن الأرض لله يؤورها  
 من يشاء

ثم لم تنفع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت  
 له مثلاً من نفسك فعمدت إلى أرضك فجعلتها قسمة بينك  
 وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت إلى فأسك  
 فحملتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، ولم تنزل سائراً حتى  
 بلغت مزرعتك الصغيرة التى استبقيتها لنفسك ، فضربت مع

الضاربين ، وخضت مع الخائضين ، لتعلم ذلك الجبارَ بفعلك ،  
 ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثي  
 لعقلك ، وألف من حادثتك روايةً غريبةً يروِّحُ بها عن نفسه ،  
 في مجتمعات أنسه ولهوهِ ، ما يساورهُ من السَّامة والضجر  
 وقلتَ للكاهن إن المسيح عاش معذباً مضطهداً  
 لأنه لم يرض أن يُقرَّ الظالمين على ظلمهم ، وإنه أبى أن يخفى  
 المصباحَ الذى فى يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه ، غير  
 مبالٍ بنقمة الملوك على ذلك النور الذى يكشفُ سواهم ،  
 ويهتكُ أستارهم ، وأنت تزعمُ أنك خليفة ، وحاملُ أمانته ،  
 والقائمُ بنشر آياته ، والمتروكُ مواقع أقدامه فى خطواته ،  
 فما هذه الجلسة الذليلة التى أراك تجلسها تحت عروش  
 الظالمين ؟ وما هذه اليدُ التى تبسطها اليهم بالمودة والأخاء  
 كأنما تريدُ أن تعقد بينك وبينهم عهداً أن يظلموا ما شاءوا  
 ويسلبوا ما أرادوا ، باسمك وباسم الكتاب الذى تحمله  
 فى يدك ؟ وما هذه السلطة التى تزعمها لنفسك أن تدخلَ



الجنة من تشاء، وتُخرجَ منها من تشاء؟ وما هذه القصورُ  
التي تسكنُها، والديباجُ الذي تلبسه، والعيشُ الباردُ الذي  
تنعم به؟ وأنت الراهبُ المتبتلُ الذي كتبَ على نفسه الانقطاعَ  
عن الدنيا وزُخُرفِها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته

ذلك ماقلتَ للكهّان، فكان جوابه أن أرسل اليك  
كتابَ الحرمان، وهو يعلمُ أنك لا تعترفُ له بالقدرِ على  
إعطاء ولا منع، ولكنه أراد تشويهَ سُمعتِكَ، والنقضَ  
من كرامتك، واغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت  
من نصيحتك وعظمتك

وأبكاك منظرُ المنفيين في سيبيريا، وما يلاقون من  
صنوف العذاب، ويعالجون من أنواع الآلام، فصرختَ  
صرخةً دوى بها الملائكةُ الأعلى والأدنى، وقلتَ أيها الناسُ  
إن الشرَّ لا يدفعُ الشرَّ، وإن الأشقياءَ مرضى فعالجوهم،  
ولا تنتقموا منهم، فالتربيةُ الصالحة تمحو الجرائم، والانتقامُ  
يلهب نارها، واجعلوا المدارسَ مكانَ السجونِ، والمعلمين

مكان السجانين ، فلم يسمع صرختك سامعٌ ، ولا بكى  
لبكائك باكٌ ، وما زال القضاة يحكمون ، والجندُ يصادرون ،  
والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون

وأزعجك منظرُ الدماء المتدفقة في معارك الحروب ،  
وبكاء النساء المعوياتِ خلف أزواجهن وأولادهن واخوتهن  
وهم سائرون إلى حربٍ لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ،  
وقد حمل بعضهم لبعض ضغائنَ وسخائمَ لا سبب لها  
إلا ذلك الوم الذي غرسه في قلوبهم قساةُ السياسة ، نخيل  
إليهم أنهم أعداء ، وهم أصدقاء ، فخلعوا ثوبَ الانسان ، ولبسوا  
فروةَ السَّبُع ، وأنشب كلٌّ منهم ظفره في صدر أخيه كأنه  
يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو  
شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً عالياً ، لولا جورُ  
السياسةِ وضلالها

فأغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا أجدى عليك

عويلك وأينذك ، فالحربُ لم تزل باقيةً ، ومصانع الموتِ لم  
تكتفِ بما أعدتْ من المهلكات لمعارك الارض ، حتى  
أصبحت تُعد مثلها لمعارك السماء

فهنينَّا لك أيها الرجلُ العظيمُ ما اخترتَ لنفسك من  
تلك العزلة الهادئة المطمئنة ، فقد نجوتَ بها من حياة لا سبيل  
للعاقل فيها إلا أن يسكتَ فيهلك غيظاً ، أو ينطقَ  
فيموت كمداً

ربما الحكيمُ استطاع أن يحيل الجهلَ علماً ، والظلمةَ  
نوراً ، والسواد بياضاً ، والبحرَ برأ ، والبرَ بحراً ، وأن يتخذ  
نفقاً في الأرض ، أو سُلماً في السماء ، ولكنه  
لا يستطيعُ أن يحيل رذيلة المجتمع الانساني فضيلةً ،  
وفساده صلاحاً

مادام الانسان لا ينتهي عن ظلم الانسانِ حتى يخافه ،  
وما دام لا يحسن اليه إلا إذا أراد أن يتخذَه عبداً يعبدُه من  
دون الله ، وما دام للأثرة هذا السلطانُ الأَكْبَرُ على أفراد

المجتمع من أ كبر كباره ، إلى أصغر صفاره ، فأنسان  
اليوم هو بعينه إنسانُ الغابات والأحراش بالأمس ،  
لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروده ومفاسده  
الى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج  
شفاف لا يكتم ما وراءه



## وارحمته<sup>(١)</sup>

في ذلك الاقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة  
 طائفة من فقراء المسلمين وبؤسائهم لا يملكون من الحول  
 غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به ، ولا من الحيلة  
 غير السنة تهتف في صباحها ومساءها ، وبكورها وأصائلها ،  
 بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرها ، ويسدد خطاها ،  
 وييسر لها السبيل إلى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل  
 بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن  
 يسلبها ما أبت الأيام في يدها ، وما أبت في يدها سوى  
 لقيمات غير سائفة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل  
 وارحمته لجماعة المسلمين في طرابلس ، انهم عاجزون  
 عن أن يعدوا العدو المزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير

(١) كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب

أجسام سُنْصَبِحُ عما قليل أشلاء مبعثرةً تحت كل كوكب ،  
 وقلوبٍ لا تزال تنبضُ حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق  
 فتسكن ، وأرواح ستطيرُ في آفاق السماء ، طيرانَ ذلك  
 الدُّخانِ في أجواز الفضاء

وارحمته لهم إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ،  
 ويستصرخون فلا يسمعون مجيباً ، قد تقطعت بهم الأسباب ،  
 وأعوزتهم الوسائل ، وسدت في وجوههم السبل ، فلم يبق  
 لهم منها إلا سبيلُ الموت ، وفي الموت راحةُ البائسين  
 والمنكوبين من شقاء الحياء وبلائها ، لولا أنهم يتركون من  
 بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أراملَ ضعفاء ، وأيتاماً  
 صفاراً ، وشيوخاً كباراً ، لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدرُ  
 في صدره من نعيم أو شقاء

كأنى أراهم وقد غلت في صدورهم حميةُ الدين  
 والوطن ، ودارت في رؤوسهم سكرةُ العزة العريية ، فأبوا  
 إلا أن يزحفوا إلى الموت الأحمر زحفَ المستقتلِ المستبسلِ

الذى يعلم أن باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين  
يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدرتها، فتجردت  
من أثوابها الرثة البالية وألقها من ورائها، وكأني أرى  
الرجل منهم وقد دخل إلى بيته ليعد عدهته، ويودع أهله الوداع  
الآخر، فبكت أمه، وناحت زوجته، وصاح ولده، فبكى  
لبكائهم، ورن لرينهم، لاجزعا من الفراق، لأنه فراق  
يعزيه عنه لقاء الله تعالى، ولا خشية من الموت، لانه  
يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يرضن بها صاحبها، بل  
مخافة أن تستبد بأعراض بيته وحرمايه تلك الأيدي الظالمة  
التي لا ترحم صغيرا، ولا تعطف على كبير، أو أن يهلكوا  
من بعده جوعا وفقرا، لأنه لم يترك لهم قوتا يتبلمنون به،  
ولا عمادا يعتمدون عليه، فاذا علم أن موقفه بين أهله موقف  
جلل يكاد يغلب فيه على صبره نظر نظرة في السماء أرسل  
فيها إلى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة،  
وبكاء وحنين، وأمل ورجاء، ثم انفتل من بين أيديهم،

ومضى لسبيله لا يلوى على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ  
ساحة الحرب ، فلا يزال يقرعُ بابَ الحياة الأخرى حتى  
يُفتَحَ له

هناك تنوحُ النائماتُ ، وتبكي الباقيات ، وتطيرُ  
النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنازل والدُّور بالنحيب  
والتعداد ، وهناك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم تر  
في حياتها وجهَ الشمس الا من كوة بيتها بززة الوجه ،  
عارية الرأس ، حيرى مولهة ، هائمةً في الطرق والمذاهب ،  
تسائلُ الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها  
أو أخيها ، فإما بقيت في حيرها بياض يومها وسواد  
ليلها ، وإما عادت إلى بيتها بالثكل القاتل ، والحزن الدائم ،  
وهناك ترى الشيوخ الكبار ، والأطفال الصغار ،  
والعاجزين والضعفاء ، لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون  
أن يتقوا بها صواعق الحرب وشهْبها ، فلا تقيهم ، أو عائذين  
بالمضايق والشعاب يفرون اليها من وجوه الخيل وسنابكها



فلا تحميمهم ، وهنالك ترى أولئك القومَ الذين يُسمون  
أنفسهم مجاهدين ، أو فاتحين ، أو قُوَاداً عظاماً ، أو سواساً  
كباراً ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشيةَ الفرح  
المختال ، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم  
واستقلالهم ، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم ، نظرَ السيد إلى  
مولاه الذي ملك ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ،  
وربما رَمَوْا إليهم في تلك الساعة بَلَقِيَّاتٍ كَتَلَك التي يليقها  
سيدُ السكابِ إلى قلبه أو الراعي إلى ماشيته ، ليشهدوا العالم  
الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ،  
وأنهم ماسفكوا الدماء ، ولا قطعوا الأوصالَ ، ولا  
أَيَّمُوا النساء ، ولا يَتَمَوْا الأَطْفَالَ ، ولا انتهبوا الحرماتِ ،  
إلا خدمةً للإنسانية العامة ، واجلالاً لشأنها

لأَحْسَبُ أن مسلماً دخلَ الإيمانُ قلبه فمَلَأَهُ رَحمةً  
وإحساناً ، وعطفاً وحناناً ، يستطيعُ أن يتخذَ لجنبه في ظلمة  
الليلِ مضجعاً ، أو يجدَ لنفسه في ضحوة النهارِ قراراً ، حزناً

على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدرون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو مُنْجِداً يدفع عنهم عادية البلاء ، فلا يجدون إلا أمماً إسلاميةً قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها ، فأحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ، ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رحمته وإحسانه ، وأجاب لمغفرته ، ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسليحون أعزهم ، وتعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده

إِنَّكُمْ إِنْ تَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ يُحْسِنُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ  
تَنْقُذُوهُمْ مِنْ كَرْبِهِمْ ، تَنْقُذُوا جَامِعَتَكُمْ وَمِلَّتَكُمْ ، فَاَنْ يَنْبَغِي  
وَيَنْبَغِي لِحِمَّةٍ أَقْوَى مِنْ لِحْمَةِ النَّسَبِ ، وَوَشِيحَةً أَوْثَقَ مِنْ  
وَشِيحَةِ الْقُرْبَى ، وَإِنَّكُمْ جَمِيعًا تَصْلُونَ إِلَى قَبْلَةٍ وَاحِدَةٍ ،  
وَتَهْتَفُونَ فِي الْغَدَاةِ وَالْعَشَى بِذِكْرِ وَاحِدٍ ، وَتَتَوَجَّهُونَ  
بِقُلُوبِكُمْ فِي نِعْمَائِكُمْ وَبِأَسَائِكُمْ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ ، وَتَقْفُونَ فِي بَيْتِ  
اللَّهِ وَحَرَمِهِ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ مَوْقِفًا وَاحِدًا

### أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ

إِنَّكُمْ إِنْ اجْتَمَعْتُمْ الْيَوْمَ لَنْ تَفْتَرِقُوا غَدًا ، وَإِنْ  
هُدِيتُمْ لِرَشْدِكُمْ فِي مَوْقِفِكُمْ هَذَا لَنْ تَضَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ،  
وَإِنَّكُمْ إِنْ قَدَّمْتُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ هَذَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ أَحْسَنَ اللَّهُ  
جَزَاءَكُمْ ، وَأَعَانَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ ، وَوَفَّى لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنْ نَصْرِهِ  
وَمَعُونَتِهِ ، وَإِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ

## خطبة الحرب

يَا أَبْطَالَ بَرْقَةٍ ، وَلِيُوثَ طَرَابِلِسَ وَحُمَاةَ الثَّغُورِ ،  
وَذَاةَ الْمَعَاقِلِ وَالْحَصُونِ ، صَبْرًا قَلِيلًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ ، فَهَاهُنَا  
نَجْمَةُ النُّصْرِ تَلْمَعُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، فَاسْتَنْبِرُوا بِنُورِهَا ، وَاهْتَدُوا  
بِهَدْيِهَا ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ النُّصْرَ ، وَوَعَدْتُمُوهُ الصَّبْرَ ، فَأَنْجِزُوا  
وَعْدَكُمْ ، يُنْجِزْ لَكُمْ وَعْدَهُ  
لَا تَحْدُثُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْفِرَارِ ، فَوَاللَّهِ إِنْ فَرَرْتُمْ لَا تَقْرُونَ  
إِلَّا عَنْ عَرَضٍ لَا يَجْدُ لَهُ حَامِيًا ، وَشَرَفٍ لَا يَجْدُ لَهُ ذَائِدًا ،  
وَدِينٍ يَشْكُو إِلَى اللَّهِ قَوْمًا أَضَاعُوهُ ، وَأَبْصَارًا خَذَلُوهُ  
إِنَّكُمْ لَا تَحَارِبُونَ رِجَالًا أَشَدَّاءَ ، بَلْ أَشْبَاهًا تَتَرَاءَى  
فِي ظُلَالِ الْأَسَاطِيلِ ، وَخِيَالَاتٍ تَلُوذُ بِأَكْنَافِ الْأَسْوَارِ  
وَالْجُدْرَانِ ، فَاحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حِمْلَةً صَادِقَةً تَطِيرُ بِمَا بَقِيَ مِنْ

ألبابهم ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ، ولا لأسيافهم ساعداً  
 إنهم يطلبون الحياة ، وأنتم تطلبون الموت ، ويطلبون  
 القوت ، وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمةً يملأون بها  
 فراغ بطونهم ، وتطلبون جنةً عرضها السموات والأرض ،  
 فلا تجزعوا من لقاءهم ، فالموت لا يكون مرّاً المذاق  
 في أفواه المؤمنين

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمته ،  
 فتَقَدَّمُوا إلى الموتِ غير شاكين ولا مرتابين ، فما  
 كان الله ليخْذِلَكُمْ ، ويكَلِّمَ إلى أنفسكم ، وأنتم من  
 القوم الصادقين

إن هذه القطراتِ من الدماء التي تسيلُ من أجسامكم  
 ستستحيلُ غداً إلى شهبٍ ناريةٍ حمراء تهوى فوق رؤوس  
 أعدائكم فتحرقهم ، وإن هذه الأتاتِ المتصاعدة من صدوركم  
 ليست إلا أنفاس الدعاء صاعدةً إلى إله السماء أن يأخذ  
 لكم بحقكم ، وبُعْدِيَكُمْ على عدوكم ، والله سميعُ الدعاء

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم ، وبقروا بطون نساءكم  
وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء ، فساقوهم إلى حفائر  
الموت سوقاً ، فإذا تنتظرون بأنفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم ، وأصدقوا حملتكم  
عليهم ، وجمعوا بهم ، واقتلوهم حيث تُقِفْتُمُوهم ، واطلبوهم  
بكل سبيل ، وتحت كل أرض ، وفوق كل سماء ، وأزعجوهم  
حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب  
الموت في سبيل تنغيص الظالمين

أحفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبر الذى  
يُحفر بالسيف لا يكون حُفْرَةً من حُفَرِ النار

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الواسطة بين  
الطرفين ، ولا العيش الذى هو بالموت أشبه منه بالحياة ،  
بل اطلبوا إمّا الحياة أبداً ، وإمّا الموت أبداً

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ، ويمسكون  
عليكم نساءكم وأولادكم ، ويطأون بحوافر خيولهم مساجدكم

ومعابذكُم ، وَينظُمون في ثُقب آنافكم مقاوَدَ يقودونكم  
بها إلى مواقف الذل والهوان ، كما تَقادُ الإبلُ المَحشوشةُ إلى  
معاطنها ، فافقدوا أنفُسكم من هذا المَصيرِ المِهينِ بِجولةٍ  
تَجولونها في سبيلِ اللهِ ثم تموتون

موتُ الجبانِ في حياتِه ، وحياةُ الشجاعِ في موته ،  
فوتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليلٌ ، ولا مات كريمٌ

إن هذه الأَساطيلَ الرابضةَ على شواطئكم ؛ والمدافعُ  
الفاغرةَ أفواهها إليكم ، والبنادقُ المسددةُ إلى صدوركم  
ونحوركم ، لا يمكن أن يتألفَ منها سورٌ مَنيعٌ يعترضُ  
سبيلَكم في رحلتكم من هذه الدارِ إلى تلك الدارِ ، فسيروا  
في طريقكم إلى آخرتكم ، فإن الأعداءَ إن ملكوا عليكم  
طريقَ الحياةِ ، لا يملكون عليكم الموتَ

المستमितُ لا يموت ، والمستقلُ لا يُقتل ، ومن يهلكُ  
في الإِدارِ ، أكثرُ ممن يهلكُ في الإقدامِ ، فإن كنتم لا بد  
تطلبون الحياةَ فانزعوها من بين ما ضَعَى الموتُ

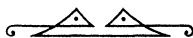
إن كُتِّبَ التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ،  
 ووضعوا صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تملون عليهم  
 من حسنات أو سيئات ، فأملوا عليهم من أعمالكم  
 ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم  
 تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك  
 الأبطال العظام

موتوا اليوم أعزاء ، قبل أن تموتوا غداً أذلاء  
 موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه  
 فيعجزكم

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تُكفّنكم  
 ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم ، وتصلّي عليكم ملائكة الرحمن ،  
 قبل أن يسبق قضاء الله اليكم فيموت أحدكم فلا يجد  
 بجانبه مسلماً يصلّي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه  
 إلى قبره حتى يودعه حفرة ، ويخلى بينه وبين ربه  
 إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ،



والاسدين حمزة والزبير ، والفائحين سعداً ، وأبا عبيدة ،  
والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع ، وجميع ثمة الإسلام  
وذاته ، من السابقين الأولين ، والمجاهدين الصابرين ،  
يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء لينظروا ماذا تصنعون  
بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ،  
واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ،  
وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وإنا على آثاركم لمهتدون  
إن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم إلى  
أعدائكم ، فانكم إن فعلتم لن يُعبد الله بعد اليوم على  
ظهر الأرض أبداً



## الانسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى  
 كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة ، أو نزلت به  
 نازلة ، وهي المطلع الذي تشرق منه شمس الرحمة الإلهية  
 على هذا الكون فتنير ظلماءه ، وتكشف غمّاءه ، وهي  
 الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين  
 تنفصم عُرْوَتُها ، ويدبّ ديبّ العداوة والبغضاء بين  
 أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسى عظمتِه  
 وجلاله فتعز له الجباه سجداً ، وتبتدرُ يديه الأفواه  
 لنمّاً وتقبيلاً

الجامعة الانسانية هي الجامعة الأساسية الثابتة التي  
 رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نفخة إسرافيل آخرأ ، والتي

تسيرُ مع الانسان حيث سار في بَرِّه وبحره ، وسهله وحزنه  
وحياته وموته ، وتدورُ معه حيث دار في إيمانه وكفره ،  
وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ،  
ولا يتحول ظلُّها ، ولا تستحيل مادَّتها ، ولا تبطل جِدَّتُها  
على كرِّ الليالى ومرِّ الأيام

مامن جامعةٍ من الجامعات القوميةِ أو الجنسيةِ  
أو الدينيةِ أو العائليةِ إلا وهى تعتمدُ على الجامعة الانسانيةِ  
فى سيرها ، وتستظلُّ بظلها ، وتهتدى بهديها ، فالمجاهدُ  
الوطنى يقولُ إنى أدافعُ عن وطنى ، وأحمى حوزته ، وأقومُ  
على ثغوره وعوراته مقامَ الذائدِ المناضل ، لأننى أعتقدُ أننى  
إن أغفلتُ ذلك وأغفله فى وطنه كلُّ ممنوٍّ بمثل ما أنا ممنوٌّ به  
فى وطنى تساقطت الحواجزُ القائمةُ فى وجه المطامع البشريةِ  
فجرى سيلُها متدفِّعاً لا يقوم له شئٌ حتى يأتى عليه ، والمجاهدُ  
الدينى يقولُ إنى أعتقدُ أن الانسانيةَ لا تزالُ معذبةً يا كل  
قويها ضعيفها ، ويغتال كبيرُها صغيرها ، ويستضعفُ حاكمها

محكومها ، حتى تدين بالدين الذى أدين به ، فأنا إن حاربتُ  
البلاد ، وقاتلت العباد ، فانما أريد بخوض هذا البحر الاحمر  
من الدماء أن أصلَ إلى سفينة الانسانية المُشرقة على الفرق  
فأستخلصها من يد الموت الذى يحيطُ بها

هكذا يقول دعاة الدين ، ودعاة الوطن ، ودعاة كل  
جامعة ، وهكذا يجبُ أن يقولوا ، فان لم يفعلوا ، وأبوا إلا  
أن يُغفلوا ذكرَ الجامعة الانسانية فى دعائهم الى جامعاتهم التى  
يدعون اليها فسد عليهم أمرُهم فى كل ما يقولون وما يفعلون  
ليس لصاحب وطنٍ من الأوطان ، أو صاحب دين  
من الاديان ، أن يقولَ لغيره ممن يسكنُ وطنًا غيرَ وطنه ،  
أو يدينُ بدين غير دينه ، أنا غيرك ، فيجب أن أكون عدوك ،  
لان الانسانية وحدة لا تكثرُ فيها ولا غيرية ، ولأن هذه  
الفروق التى توجد بين الناس فى آرائهم ، ومذاهبهم ، ومواطن  
إقامتهم ، وألوان أجسادهم ، وأطوارهم وأعراضهم ، انما هى  
اعتباراتٌ ومصطلحاتٌ ، أو مصادفاتٌ واتفاقاتٌ ، تعرضُ

لجوهر الانسانية بعد تكوينه ، واستتمام خلقه ، وتوارد  
 عليه توارد الأعراض على الاجسام ، ففي كل بلد ، وفي  
 كل عصر ، يستعجمُ العربي ، ويستعربُ الأعجمي ، ويسلمُ  
 المسيحي ، ويتمسحُ المسلم ، ويلحدُ المؤمن ، ويؤمنُ الجاحد ،  
 ويستشرقُ المغربي ، ويستغربُ المشرقي ، ولو شئتُ أن  
 أقول لقلتُ إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال  
 يمسكُ حتى اليوم بطرف سلسلةٍ ، ينتهي طرفها الآخرُ بوطن  
 غيرِ وطنه ، ودينٍ غيرِ دينه ، وأمةٍ غيرِ أمته

إذا جاز لكل اقليم أن يتنكر لغيره من الاقاليم ، جاز  
 لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد ، بل جاز لكل بيتٍ  
 أن ينظر تلك النظرةَ الشذراء إلى البيت الذي يجاوره ،  
 بل جاز للأب أن يقول لولده ، وللولد أن يقول لأبيه ،  
 إليك عني لا تمدّ عينيك إلى شيء مما في يدي ، ولا تطمع أن  
 أوثرُك على نفسي بشيء مما اختصاصتها به ، لانني غيرك ،  
 فيجب أن أكون عدوك المحارب لك ، وهنالك تنحلُّ

كلُّ عُقْدَةٍ ، وتنقسمُ كلُّ عُرْوَةٍ ، ويحمل كلُّ إنسانٍ  
 لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغضِ والمقت ما يرنقُّ  
 عيشه ، ويطيل سهدَه ، ويقلق مضجعه ، ويحببُ اليه  
 صورة الموت ، ويبغض اليه وجه الحياة ، وهناك يُصبح  
 الانسانُ أشبه شئً بذلك الانسانِ الأولِ في وحشته  
 وانفراده ، يقلبُ وجهه في آفاق السماء وينبشُ يديه  
 طبقاتِ الأرض فلا يجد له في الوحشة مؤنسًا ، ولا  
 على المموم مُعينًا

الجامعةُ الانسانيةُ أقربُ الجامعاتِ إلى قلب الانسان ،  
 وأعلقها بفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف  
 وإن كان ذلك المصابُ تاريخًا من التواريخ ، أو أسطورة  
 من الأساطير ، ولأنه لا يرى غريقًا يتخبطُ في الماء ، أو حريقًا  
 يتلظى في النار ، حتى تحمته نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف  
 وقفةَ الحزين المتلفٍ ، إن كان ضعيفًا ، ويندفعُ اندفاعَ الشجاعِ  
 المستقتلِ ، إن كان قويًا ، ويسمعُ وهو بالشرق ، حديثَ النكباتِ

بالمغرب ، فيخفق قلبه ، وتطير نفسه ، لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه في الانسانية ، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا أن ستاراً من الجهل والعصبية يسبله كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء السذج لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ، ولا ضعيف بلا معين

لا بأس بالفكرة الوطنية ، ولا بأس بالحمية الدينية ، ولا بأس بالعصبية لهما ، والذود عنهما ، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الانسانية وتحت ظلالها ، أي أن تكون دوائر الجاهات كلها داخلة في دائرة الانسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لاتزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الانسانية فاذا هي خيالات باظلة وأوهام كاذبة ، والدين لايزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الانسانية وينابذها فاذا هو شعبة من شعب الجنون

فإن كان لابداً للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله  
 فليحارب به مدافعاً لا مهاجماً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً ، وليكن  
 موقفه أمامه في جميع ذلك موقف العادل المنصف ، والشفيق  
 الرحيم ، فيدفنه قتيلاً ، ويعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ،  
 ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم  
 أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شأنه معه شأن  
 تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها  
 تذكرت القرّبي ففاضت دموعها





## أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمةً هائلةً متبذيةً على  
 الفِطْرَةِ النقيةِ البيضاء لا تعبثُ الحضارةُ بِجمالها ، ولا تعبثُ  
 المدنيةُ في صورتها ، تطلعُ شمسُها في آفاقها فتبتسِّطُ أشعتها على  
 سهولها وحزونها ، ونجادِها ووهادِها ، من حيث لا يعترض  
 سبيلها من الظُّلِّ سحبٌ ، ولا من السقوفِ حُجُبٌ ،  
 وينبتُ نباتها حيثُ يجري ماءؤها ، لا تعبثُ فيه الأيدي بترييعٍ  
 ولا تدويرٍ ، ولا تقويسٍ ولا تعريجٍ ، ويجري ماءؤها في سبيله  
 حيث ينسابُ به تَسْلُسُلُهُ واطِّرادُهُ ، لا تَلَوِي به عن  
 قصده الحفائرُ ، ولا تنتصبُ في وجهه القناطرُ ، ويهيم  
 وحشها في جبالها ، وطيرها في أجوائها ، من حيث لا يحبس  
 الأول عرينٌ موصودٌ ، ولا الآخرَ قفصٌ محدودٌ ؛ والشعر

من وراء ذلك كله مرآة صافية<sup>١</sup> تتمثل فيها تلك المناظر  
الفطرية على طبيعتها وفطرتها

ينطق العربى بما يعلم ، ويقول ما يفهم ، ويصور ما يرى ،  
ويحدث عما تمثل فى نفسه حديثاً صادقاً لا تكأف فيه ولا  
تعمل ، لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء ، وأرض وسماء ،  
وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات ، على الفطرة السليمة  
الخالصة ، فأحرى أن يكون شعره كذلك

ذلك كان شأن الشعر العربى والعرب على فطرتهم ،  
وذلك معنى قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم  
الاجتماعية والأدبية ، ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية ،  
فان ظن ظان أن التماثيل والنصب ، والصور والتهاويل ،  
وبقايا الآثار ، وقطع الأحجار ، التى نراها فى خرائب  
اليونان والرومان ، والفينيقين والفراعنة ، أدل على تواريخ  
أولئك الأقوام من الشعر العربى على تاريخ العرب قلنا له

بما من ديوانٍ من دواوين الأُمِّ الماضيةِ إلا وقد تحدث  
المؤرخون لعبث الأيدي به، ولعبها بسطوره وسجلاته،  
أما الديوانُ العربيُّ فصورةٌ صحيحةٌ، وآيةٌ ثابتةٌ، لا تغيّر  
فيها ولا تبدل

ثم جرتْ بعد ذلك جوارٍ بالسعد والنحس فاتتقلت  
الامةُ العربيةُ من بداوتها إلى حضارتها، وهاجر معها شعرُها  
بهجرتها، فطلع جيشُ المولدين يحمل لواءه الشعراءُ الجليلان،  
بشارٌ وأبونواس، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة، ونهجوا  
مناهج لم تكن معروفة، فقلنا لا بأس، فالشعرُ العربيُّ أوسعُ من  
أن يضيق بمحاجات أُمِّه وضروراتها، في جميع شؤونها وحالاتها،  
حتى جاء أبو تمام شيخُ الصناعةِ اللفظيةِ فسلك إلى كثير من  
معانيه البديعةِ طريقَ اللفظِ المصنوع، والأسلوبِ المتكافئ،  
فغفر في الشعر العربي ثغرةٌ ألحَّ عليها السائرون على أثره من  
بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها فوهةً واسعةً لا تمنعُ  
ماوراءها، ولا تدفعُ إمامها، فأصبح الشعرُ على عهد

ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدى والسراج الوراق  
وأبى الحسن الجزار والصفى الحلى وأمثالهم أشبه شئ بتلك  
الآنية الفضية أو الصينية التى يضعها المترفون فى زوايا مجالسهم  
وعلى أطراف موائدهم ، ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفى  
غلةً ، ولا نبض بقطرة ، ولا تُسمن ولا تُغنى من جوع ، ثم  
جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة ،  
فجاءوا بشئ هو أشبه الأشياء بتلك التفاعيل التى وضعها  
الخليل ميزانا للشعر ، لا يروق لفظها ، ولا يفهم معناها

وعلى هذا المورد الويل وقف الشعر العربى بضعة قرون  
وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى أنزل الله اليه من  
ملائكة البيان رسلاً فى هذا العهد الأخير أخذوا بيده ، ونشروه  
من قبره ، ونفضوا عنه غباره ، فأصبحنا نرى فى أبراد الكثير  
منهم أجسام امرىء القيس والنابغة ومسلم وأبى نواس وأبى عبادة  
والشريف ومهيار ، لا فرق بينهم وبينهم سوى أن هؤلاء  
مقلدون يتبعون الآثار ، وأولئك مبتدون يفترون الأبتكار

## حوانیت الاعراض

أنا لا أستطيع أن أتصورَ الفرقَ بين رجلٍ يمدُّ يده  
إلى خزانة بيتي فيسرق مالى ، وبين آخرٍ يمدُّ لسانه أو قلمه  
إلى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرمٌ فأتك ، وكلاهما لصٌ مغتال ،  
وإن كان أولهما فى نظر القانونِ وفى عرف الناسِ أكبرهما  
إثماً ، وأسوأهما أثراً

المال خادمٌ من خدام الشرفِ ، وحاجبٌ من حجابهِ  
الوقوف على بابهِ ، ولولا مكانُ الشرفِ ، والكافُ بصيانتِهِ ،  
والضنُّ به أن يعبتَ بجوهره عابت ، ما كان لامرئٍ فى هذا  
المعدنِ الصامتِ أربٌ أكثر من أن يقيم به صلْبُهُ ، ويمسك  
به حوباءهُ ، فإن كان سارقُ المالِ مجرمًا من حيثُ كونه  
هاتكاً لذلك الحجابِ المسبلِ دون الشرفِ ، فجديرٌ بمن يسرق

الشرفَ نفسه أن يكون رأسَ الجانبين وأكبرَ المجرمين  
يكون للرجل من الصنفين مثلاً عند الرجل من  
كرام الناس وسراهم وذوى السيرة الصالحة فيهم مأربٌ  
من المآرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقاً ولا يمت إليها  
بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة ، فما هو إلا أن  
يبتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات  
يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده  
إلا أنه لم يمتكنه من لحيته يلف عُشُونَهَا على يده ، ثم  
يقوده بها إلى حيث يشاء ، كما تقاد السائمة إلى مصرعها  
يحب الرجلُ المجدَّ حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به  
حتى يصبح أثرُ عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضى  
لكلفه به وحرصه عليه سوادَ ليله يساهرُ الكوكبَ حتى  
ينحدرَ إلى مغربه ، وبياضَ نهاره يساير الشمسَ حتى تغرب  
في حماها ، ويقبم بينه وبين شهوات نفسه وزعاتِ قلبه  
حرباً عواناً يحملُ في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشرٌ ،

حتى إذا أمكنه المقدارُ منه وبدأ ينهل أول نهلة من مورده  
الباردِ العذبِ رآها ممزوجةً بذلك العلقمِ المرّ الذي صبه له  
في إنائه ذلك المجرمُ الأثيم

إن بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها «إدارات»  
قوماً مفاليك قد دارت عليهم الأيامُ دورتها ، وسلبتهم  
المواهبَ التي يعيشُ بها أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ، ونشأ  
منشأهم ، فضاقت بهم سبلُ العيش التي ما كانت تضيقُ بهم لو أن  
اللهُ أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلةَ الفهمِ والعلمِ فضيلةَ العملِ  
الصالحِ والسيرةِ المستقيمة ، فلما لم يجدوا بين أيديهم منفذاً  
ينفذون منه إلى القوت ، فتحوا حوانيتَ للتجارة بأعراض  
الناس وكرامتهم سموها صحفاً ، وأكثر مشتملاتها أعراض  
الأشرافِ والعظماء ، وأربابِ الجدِّ والعمل ، الذين سبقوهم إلى  
فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظاً لحرمانهم  
مما أفاض الله عليهم ، فهم إن فتشت عنهم ، وكشفت عن  
دخائلِ نفوسهم ، علمتَ ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين

الذين يدينون بقتل الملوك والأمرء ، وأستغفرُ الله  
 فللفوضويين رأى في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة  
 يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون  
 الغادين والراحمين ، ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون ،  
 وهم مقفرو الأبدى من الزاد

ولقد كان يكون خطبهم سهلا ، ومصائبهم محتملا ،  
 لو أنهم صرحوا عن أنفسهم ، وأبدوا للناس صفحات  
 وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدبة الواضحة  
 البينة ، ولكنهم مراؤون مخادعون ، يشتمون باسم الموعظة ،  
 ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء  
 باسم الغيرة الدينية أو الأدبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا  
 دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محدودون ، قد  
 بلغت الفلاكة منهم مبلغا ، وضائق بهم الأرض الفضاء  
 على رحبها ، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف  
 الشرفاء ، وتنغيص لذة السعداء ، ويطلبون قوتهم فيما بين



هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوم معوجاً ، أو يصلح مختلاً ، أو يرفع بدعة باطلة ، أو يكشف عن حقيقة خافية ، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفارقها ، والذي لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجاً بدم ، والله ما أدري من الذي أقامهم هذا المقام ، وعهد إليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل إليهم النظر في شؤون الناس ، والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم ، وماهم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلةً حسنة في منازلهم ، فيكونوا قدوةً صالحة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فهدي بهداهم ، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فتعبد بإجلالهم وإعظامهم ، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه ، أو التاجر في حانوته ، أو العامل في معمله ، فيصلح أن يكون حكماً في قضايا الأشراف والنبلاء ، وميزاناً لحسناتهم وسيئاتهم ،

وعندى أن لوُجِعتْ عيوبُ الناس جميعها في كفة ميزان ،  
 ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة  
 والكذبِ والنميمة والتجسس ، وهتكِ الأعراض ، واتهام  
 الأبرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة  
 الذين يزعمون أنهم يقوّمون معوجهم ، ويشقفون مُنَادَهم ،  
 ويصلحون مافسد من شؤونهم



## الثناء

ما أنس لا أنسى رجلاً كان خيرَ من لقيتُ من الرجال، وكان يعجبني منه أدبه وفضله، وعفته وحيأؤه، وشرفُ نفسه، وطهارة قلبه، وأنه كان صبوراً محتملاً، تفرعُ الخطوبُ صفاةَ قلبه فتردعنها نايية، كما ترد الكرة عن الحائط إذا قرعتها

كان فقيراً لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيمُ صلبه، ويمسك حوباءه، ويستتر سوءته، فزوجه أبوه بابتة عم له لم يكن مثلها في دمايتها، وسوء خلقها، وجفاء طبعها، ممن يطمع في مثله في جمال خلقه، ولين حاشيته، وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه، لأنّه كان برّاً به، مطيعاً له، نازلاً عند أمره ونهيهِ، وعن مجافاة زوجه واطراحها

ولا تقباض عنها لأنه كان واسعَ الصدر ، فسيحَ رقعةِ الحلم ،  
 رفيقاً بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض  
 والألم ما يلهبُ الجوانحَ ، ويذيبُ لفائفَ القلوب

وأذكر أنني على طول عشريني له ، ولصوقِ نفسي بنفسه ،  
 ما سمعته يشكو إلى يومٍ من الأيام ما كان يعالجه من  
 سوء عشرينها ، ويكابذه من شرورها التي لا تغبُّ ليلها  
 ونهارها ، ثقةً بالله ورحمته ، وإيثاراً لفضيلة الصبرِ والجلد ،  
 وسكوناً إلى ما جرت به الأقلامُ في ألواحِ المقادير ،  
 فكنتُ أرحمُ صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن  
 البكاء ، لأنني أعلم أن نيرانَ الأحزانِ لا يسكن  
 اضطرامها ، ولا يهدأ اعتلاجُها ، إلا باطرادِ العبرات ،  
 وتصاعدِ الزفرات

وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياةِ وأطايها  
 أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه  
 في الريف فيقضى عنده يومين أو ثلاثة ثم يعودُ وفي ثفره

ابتسامةٌ تَلَأَلَتْ لَوْنُ نَجْمَةِ الصَّبْحِ قَبْلَ انْحِدَارِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا ،  
 ثُمَّ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَتَلَاشَى ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى جُودِهِ الْأَوَّلِ ،  
 لَا يَحْزَنُ فَيَبْكِي ، وَلَا يَفْرَحُ فَيَبْتَسِمُ ، حَتَّى يُخَيِّلَ لِلنَّاظِرِ إِلَيْهِ أَنَّهُ  
 يَعِيشُ فِي عَالَمٍ غَيْرِ هَذَا الْعَالَمِ ، لَا يَظْلُهُ لَيْلٌ ، وَلَا يَضِيئُهُ نَهَارٌ  
 قَضَيْتُ فِي صَحْبَتِهِ عَلَى حَالِهِ تِلْكَ بَضْعَ سَنِينَ أَعْلَمُ مِنْ  
 دَخِيلَةٍ نَفْسِهِ مَا يَحْسَبُ أَنِّي أَجْهَلُهُ فَأُكَاثِمُهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ جَهْدِي  
 رَفَقًا بِهِ وَإِسْفَاقًا عَلَيْهِ ، حَتَّى زَرَّتْهُ فِي مَنْزِلِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَيْتُهُ  
 جَائِمًا فِي مَقْعَدِهِ الَّذِي كَانَ يَقْتَعِدُهُ مِنْ غُرْفَتِهِ وَقَدْ أَطْرَقَ  
 إِطْرَاقًا طَوِيلًا ذَهَلَ فِيهِ عَنِ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِدُخُولِي  
 حَتَّى أَخَذْتُ مَكَانِي ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَأَدْهَشَنِي مِنْ مَنَظَرِهِ  
 اصْفَرَّارُ وَجْهِهِ ، وَذَبُولُ عَيْنَيْهِ ، وَمَا كَانَ يُفَشِّي جَبِينَهُ مِنْ  
 دُخَانِ تِلْكَ النَّارِ الَّتِي تَشْتَعِلُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ  
 نَظْرَةً طَوِيلَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلِ وَقَالَ :

أَتَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ ؟

قُلْتُ نَعَمْ ، مُعَالَجًا نَفْسِي عَلَى كِتْمَانٍ مَا كَادَ يَذْهَبُ

بلبسى من تنكر حاله ، وتغير أطواره  
فقال وتعتقد أنه عادل ؟

قلت نعم

قال وراحم ؟

قلت نعم

فبسط يده إلى فعل الضارع المستصرخ وقال :  
هل لك أن تحدثني أيها الصديق عن نزول الصواعق ،  
وثورة البراكين ، وطغيان البحور ، وغرق السفن ، وانتشار  
الأوباء ، وفتك الأدواء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون  
التي لاتزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لاتزال ملتهبة  
بنيران الهموم والأحزان ؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل  
من الله ورحمة ؟

قلت نعم ، ان الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر  
لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا  
يقدرون لانفسهم من سعادة الحياة وهناءتها

قال إن الله أكرم من أن يجعل الشر طريقاً إلى الخير،  
وَأَلَّا يَحْسَنَ إِلَى عِبَادِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُسَلِّفَهُمُ الْإِسَاءَةَ

قلتُ ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل  
بعمله ، إن خيراً خيراً ، وإن شراً شراً فشر

قال إنه كتب على نفسه الرحمة

قلت نعم إنه أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء  
قال حدثني إذا عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه  
شر ، ولم يتسرب إلى قلبه كيد ، مالى أراه مفترشاً حَجَرَ  
أُمِّهِ وَقَدْ تَوَلَّى اللَّيْلَ إِلَّا أَقْلَهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى مِثْلِ جَمْرِ الْغَضَى  
مَمَا يَسَاوِرُهُ مِنَ الْآلَامِ ، فَيَنْتَفِضُ تَارَةً ، وَيَخْتَلِجُ أُخْرَى ،  
وَيَصْرُخُ صَرَخَاتٍ تَسْتَمِطِرُ الدَّمُوعَ ، وَتَحُولُ بَيْنَ الْعَيْنِ  
وَبَيْنَ الْمَجْجُوعِ ، وَمَالِي أَرَى أَمَّةً بَاكِئَةً مَوْهَةً ، ذَاهِلَةً  
اللَّبِّ ، مَوْجَعَةً الْقَلْبَ ، تَفْرَعُ لِفِرْعَانِهِ ، وَتَصْرُخُ لَصَرَخَاتِهِ ،  
وَقَدْ اخْتَبَلَ عَقْلُهَا ، وَالتَّاثَ أَمْرُهَا ، وَعَظُمَ يَأْسُهَا ،  
وَفِينَتْ حِيلُهَا ، وَقَلَّ مَسَاعِدُهَا ، وَضَعُفَ نَاصِرُهَا ، فَأَنْشَأَتْ

تقلبُ وجهها في السماء ضارعةً إلى الله تعالى أن يأخذَ بيدها،  
ويرحمَ نفسها برحمة ولدِها، وبيناهي تنتظرُ صوتَ الاجابة  
يرن في آفاق السماء إذا بها تسمعُ حشرجة الموت في صدر  
ولدها، وإذا به ينزعُ نزعاً مؤلماً يطيرُ باللب، ويذهبُ ببقية  
الصبر، حتى تفيضَ نفسه، فاذا جنى هذا الولدُ الصغير  
حتى أصبح لا يستحق رحمةً من الله ولا رافة؟

قلتُ وما يدريك لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت  
المعجل من حياةٍ علم أنه سيلقى فيها مثملاً تلقى أنت اليوم من  
الشقاء الممض، والعذاب الأليم

فنالت هذه الكلمة من نفسه، وجمد أمامها جوداً  
طويلاً، ثم قال أحسنت أيها الصديق، ليت الذين يشقون  
في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا وحقارة شأنها،  
فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم، ولم يكتب لهم سطرٌ واحد  
في لوح الوجود، وبعد فهل لك في سفرةٍ معي إلى ذلك  
الصديق الريني نقضى عنده يوماً واحداً ثم نعود؟ على أن



تكون معي كما كان فتى موسى مع مولاه ، لانسألني عن  
شيء حتى أحدث لك منه ذكراً

فوافيتُ رغبته ، وقبلتُ شرطه ، ثم قام وقت ،  
ولو أننى ملكتُ فى هذه اللحظة الدنيا بمحذافيرها لوهبتهأ  
لمن يكشفُ لى سرَّ صديق ، ويدلنى على مكان نكبته التى  
زعزعتُ نفسه ، وصهرتُ قلبه ، وملكته عليه لبه ،  
وكادتُ تعبثُ بيقينه ، وماهى إلا ساعاتٌ حتى بلغنا  
المنزل الذى أردناه ، وقد أظلم الليلُ بجناحيه ، فقضينا  
واجبَ التحية والسلام ، ثم خلا الصديقُ بصديقه خلوةً  
طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهما ، ثم خرجا إلى مجلسنا ساعة  
نتحدث ، ثم قننا إلى فراشنا ، فتمتُ نوماً متقطعاً مملوءاً  
بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليلُ حتى شعرتُ أن  
صديقى يتحرك فى فراشه ، ويطيلُ النظر إلى ليعلم أنام أنام  
مستيقظ ، فتناومتُ حتى رأيتُه قد قام من مكانه يختلسُ  
الخطى اختلاساً حتى وصل إلى المشجب فلبس أثوابه ، ثم

تسلَّلَ من الغرفة ، خفق قلبي خفقة الرُّعبِ والفرع ، وقلتُ  
لابدَّ أن الرجلَ يريدُ بنفسه شراً ، وإنى أكون الأُمُّ  
الناسِ إِنْ أنا تركتهُ يصنعُ بنفسه ما يشاء ، فقامت  
على أثره أتتبعُ خطواته ، وأسيرُ وراءه من مدرجة الى  
أخرى ، حتى بلغ مقبرةَ البلد ، فوقفُ هنيهةً يشرفُ على تلك  
النواويسِ العظام التي جثمت في أمكنتها جثوم الآبال  
في معاطنها ، ثم مشى يتصفحُ القبورَ قبراً قبراً نخيلَ الى أنه  
شبحٌ من أشباح الموتى يهيمُ في أرجاء تلك المقبرةِ الموحشة ،  
فلكني من الخوف والرُّعبِ ما كاد يحلُّ عُقدة لساني لولا  
إجلالي لهذا الموقفِ الرهيب ، وشعوري أننى واقفٌ على  
أبواب تلك الدُّورِ التي سَلَبَ خوفُها العاقلين عقولهم ، وأطار  
طائرَ الغمض عن أجفانهم ، ونفَّص عليهم ما يتمنون أن  
يصفو لهم من طعامهم وشرابهم ، والتي يقدُّ إليها كلَّ يوم  
وُقُودُ البشرِ محمولين على أيدي أهلهم ، وذوي أرحامهم ،

ليقدموهم بأنفسهم هديةً إلى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم، وتمتصّ دماءهم، وتتخذ من سواد عيونهم، وبياض نفورهم، مراتع ترتع فيها كما تشاء، من حيث لا يملك مالكٌ منهم عن نفسه دفعاً، ولا يعرف إلى النجاة سبيلاً

مرت بخاطري تلك الذكرى فلكت على نفسي حتى ذهبت عن موقفي، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة في أمر صديقي، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤن وعجائبها، ثم استفتت رأيته جائياً أمام قبر من تلك القبور جئى العابد بين يدي معبوده، فدلفت إليه حتى دنوت منه فسمعتَه يقول:

اللهم إني ما كفرتُ نعمتك، ولا خفرتُ ذمتك، ولا هتكت حرمةً من حرمانك، ولا نزلتُ عند سخطك وغضبك، ولا تبرمتُ بقضائك وقدرك، وأني أحسنت إلى بتلك الطفلة إحساناً عظيماً، لأنك أنقذت بها حياتي من هومها وآلامها، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكا

أهناً ما كنتُ بها ، وأرجى ما كنتُ إلى قضاء ساعات  
العمرِ بجانبها ، فاعفُ لي جزعى وحزنى ، فكثيرٌ على أن  
لا أجزعَ ولا أحزن

لقد تبدلت الأرضُ غيرَ الأرض والسموات ، وكأنما  
استحالتُ في نظرى حقائقُ الأشياء ، فأصبحتُ لأرى  
في النجمةَ لآلئها ، ولا في الزهرةَ جمالها ، ولا في السماءَ  
صفاءها ، فهل كانتُ فتاناً سرَّ هذا الوجود حتى إذا ذهبتُ  
ذهبَ بدَّها بها كلُّ شيء

لقد ذهبتُ بي الأيامُ فيما مضى كلَّ مذهبٍ ، وجرعتني  
من كؤوس الشقاء جرعاً ما احتملَ فمٌ قبل فمٍ مرارتها ،  
فاغتفرتُ لها كلَّ ذنوبها عندي حينما أسدتُ إلى تلك  
اليدِ التي أنستني جميعَ همومِ الحياة وآلامها ، أما اليوم وقد  
صَفَرَتْ منها يدي ، وأقفرَ بفراقها رَبعي ، وحالت تلك  
الصفائحُ بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى

مَنْ لِي بضربةٍ من ضربات الدهرِ تذهبُ بذكري

جملةً واحدة، فلا أعود إذ كُرُّ أيام حياتها معي، ومَقْعدها بجاني،  
وصوتها الرقيق، وحديثها العذب، وصفاء عينيها، ورونق  
وجهها، وصورة قُوَّمتها وقعدتها، وجيئتها وذهوبها، وضحكها  
وبكائها، ويقظتها ومنامها، وحزنها لفراقى، وسرورها ببلقائى،  
فانى كلما ذكرتُ ذلك شعرتُ كأن قلبي المحموم قد استحال  
إلى أفلاذٍ صغيرة تتطايرُ في أجواز الفضاء

اللهم إني أعلم أن الدنيا ليست بدار قرار، فلا أمل  
في البقاء فيها، والركون إليها، والاستمتاع بِلَذَّة العيش فيها،  
وأنها الجسرُ الذي يمرُّ به الأحياء إلى دارهم الأخرى، وكل  
ما كنتُ أطمعُ فيه منها أن يكون لى كما للناس جميعاً رفيقٌ  
يعيننى على قطع تلك الشُّقَّة البعيدة، ويهون على آلام وحشتها  
وكآبتها، فخرمتنى ذلك الرفيق المعين، فكيف أسيرُ؟ وأين  
أعيش؟

اللهم إنك سلبتني كلَّ شيء حتى الدموع التي يريح  
بها الباكون أنفسهم، ويطفى بها المحزونون لواعج قلوبهم،

فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليانَ الماء في القدر المحكَّمةِ  
 الغطاء ، فامنن عليّ بدمعةٍ واحدةٍ أطفئ بها غليلي ، ولا أحسب  
 أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمةُ العامة التي كتبت على نفسك  
 أن تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين

اللهم لا ريبة في عدلك ، ولا ظنة في كرمك ، ولا اعتراض  
 على قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك ،  
 ولكنك سلبتني عقلي ، بعد ما سلبتني راحتي وهناءتي ،  
 فخرج أمرُ نفسي من يدي ، وأصبحتُ لا أستطيع أن أبصر  
 ما بين يدي ، فاغفر لي سقطي وزللي

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من  
 الموت ، فاستردَّ إليك عاريتك التي أعرتنيها ، فقد عجزت عن  
 حملها ، وضقت ذرعاً بأمرها ، إنك بعبادك رهوف رحيم  
 وما أتم كلمته حتى صاح صيحةً عظيمةً ، ثم سقط على  
 صفائح القبر ، فعلمتُ أن الرجل قد انفجر ، وأن الله قد  
 استرد وديعته إليه ، واختار للرجل ما عنده ، فذُعرْتُ وارتعت

والتفتُ حولي فاذا صديقه واقفٌ ورأى يشهد المنظرَ الذى  
أشهدُه ، ويزدرفُ من الدموعُ أضعافَ ما أذرفُ ، فدنونامنه  
معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه إلى المنزل ، وبتنا  
حول سريرهِ نقضى حقَّ صحبته تارةً بالدموع ، وأخرى  
بالأطراق والخشوع ، وهنالك قص على ذلك الصديقُ قصته ،  
وكشف لى عن خبيثة أمرهِ ، فقال إنه قضى زمناً طويلاً  
يشكو إلى آلام نفسه التى يعالجها من سوء عشرة  
زواجه وخشونة طبعها ، وجفاء خلقها ، ثم اقترح على يوماً  
من الأيام أن أزوجه من أختى ، ففعلتُ رحمة به وإشفاقاً  
عليه ، من حيثُ لا يعلم أبوه ولا أحدٌ من أهله بذلك ،  
فكان يزورنا فى كل شهر مرة أو مرتين ، وظل على ذلك  
عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكةً ذهبت بها  
إلى ربها ، وتركت له فتاةً فى الخامسة من عمرها ، فكانت  
هى عزاءه الوحيد عن كل ما فاتهِ من نعيم الحياة وهناءتها ،  
وكان يختلفُ إليها كما كان يختلفُ إلى أمها ، وشغفَ بها شغفاً  
بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لى إننى أشعر أن

حياتينا أنا وهذه الطفلة حياةٌ واحدة ، وأنا إيمانٌ نعيش معاً ،  
 أو نموت معاً ، وكأنه ألهم بما سيكون ، ففضى الله أن تمرضَ  
 الفتاةُ مَرَضَةً شديدة لم تعملها أكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأماها  
 ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها اليه بكتابٍ أرسلته اليه  
 بالامس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون  
 دفنتُ صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع  
 جسرَ الحياة الطويلَ في لحظةٍ واحدة شوقاً اليها ،  
 ووجداً عليها ، ثم عدتُ إلى بلدتي صفرَ الكف من ذلك  
 الا نسان الذي كنت مائتاً منه يدي ، والذي كنت أجله  
 وأُعظمه حياً ، ولا أزال أبكيه ، وأذكره ميتاً ، واتخذ حياته  
 الشريفةَ الحافلةَ بمواقفِ الصبر والجلد ، والوفاء والكرم ،  
 عبرةً أعتبرُ بها حتى يجمعَ الله بيني وبينه  
 كفى حزناً بموتك ثم أنى

نفضتُ ترابَ قبرِكَ من يدياً

وكانتُ في حياتك لى عِظَاتٌ

وأنت اليوم أو عِظُ منك حياً



## الشعر

كتب إلى كاتب يقول عرفناك قبل اليوم شاعراً ماتكاد  
تكتب سطرًا، ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ماتكاد تنظم بيتًا،  
فلم لم تكتب في عهدك الأول، ولم لم تنظم في عهدك الثاني؟  
كأنما ظن عافاه الله أننى أكتب اليوم بقلم غير قلم الامس،  
أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادى، وهل الشعر إلا نثارة<sup>(١)</sup>  
من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً، وينثرها الكاتب إن  
شاء نثرًا، أو نعمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع  
مرة من أفواه البلابل والحمام، وأخرى من أوتار العيوان  
والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر  
بقادمتين<sup>(٢)</sup> من عروض وقافية، أو خافيتين<sup>(٣)</sup> من  
فقر وأسجاع

(١) النثارة ما تنثر من الشيء (٢) القادمة مفرد قوادم وهى عشر ريشات

في جناح الطائر (٣) الخوافى ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت

الكاتب الخيالي شاعرٌ بلا قافية ولا بحر ، وما القافيةُ  
والبحرُ إلا ألوانٌ وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له  
من شؤونه وأطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ،  
ولولا أن غريزةً في النفس أن يردّد القائل ما يقول ، ويتغنى  
بما يردّد ، ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لمألفته ، ما نظم ناظمٌ  
شعراً ، ولا روى عروضيٌّ بحراً

ما كان الرجلُ العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر ، ولا  
يعرفُ ما قوافيه وأعاريضه ، وما علله وزخافاته ، ولكنه  
سمع أصوات النواير ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ،  
وبكاء الحمام ، فلذَّ له صوتُ تلك الطبيعة المترنمة ، ولذَّ له أن  
يبكي لبكاؤها ، وينشج لنشيجها ، وأن يكون صداها  
الحاكي لرناتها ونغماتها ، فاذا هو ينظم الشعر من حيث  
لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة  
الخالبة ، ولا من أبجره وضروبه سوى أنها صورة من  
صوره ، ولون من ألوانه

ذلك منتهى نظرِ العربيِّ إلى الشعر ، وذلك مادعاه إلى  
أن يسمى النبيّ الذي بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم أنه  
ماقصَدَ في حياته قصيدةً ، ولا رجز أرجوزةً ، ولكنه  
سمع من كتاب الله وآياته المفصلاتِ أبلغَ الكلام وأفصحَه ،  
وأعلقَه بالنفوس ، وآخذَه بالألباب ، وأملسَه للعواطف  
والمشاعر ، وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعاراتِ  
الدقيقة ، والمجازات الرائعة ، والكنائيات المستطرفة ، وأمثال  
تيك مما لا ينطق به الناطقُ في أكثر مناحيه ومنازعه إلا  
عند ذهابه مذهب الخيال الشعري ، فشُبّه له فسَميَ ماسمعه  
شعراً ، وسَميَ الناطقُ به شاعراً ، وما هو بشاعرٍ ولا ساحر ،  
ولا كاهن ولا مجنون

ماكلٌ موزون شعراً ، ولا كل ناظم شاعراً ، فالوزن  
ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغنى به  
مقطّماً تقطيعاً يوازن تفاعيله ، فهو نعمةٌ موسيقية ، ولحنٌ

خاص من ألحان الغناء ، يتمثل في قول الملك الضليل <sup>(١)</sup>  
 ( قِفَا نَبِكَ مِنْ ذَكَرَى حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ ) كما يتمثل في قول  
 الخليل ( فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِلُنْ ) ويترآى في أوتار  
 الحلقى الناطق ، كما يترآى في أوتار العود الصامت

أما الشعرُ فأمرٌ وراء الأَنْفَامِ والأَوْزَانِ ، وما النظمُ  
 بالاضافة اليه إلا كالحلى في جِيدِ الغَانِيَةِ الحَسَنَاءِ ، أو الوشى  
 في ثوبِ الدِيْبَاجِ المَعْلَمِ ، فكما أَنَّ الغَانِيَةَ لَا يَحْزُنُهَا عَطْلُ  
 جِيدِهَا ، والدِيْبَاجَ لَا يَزِرِي بِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مَعْلَمٍ ، كذلك الشعر  
 لَا يَذْهَبُ بِحَسَنِهِ وَرُؤَاؤُهُ أَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُورٍ وَلَا مَوْزُونٍ

ذلك هو الفرقُ بين الشعرِ والنظمِ ، وهاءُ انتزِى  
 أَلَا صِلَةٌ بَيْنَهُمَا غَيْرُ تِلْكَ الصِّلَةِ الاصْطِلَاحِيَةِ الَّتِي لَا مَنَشَأَ لَهَا  
 سِوَى مَا عَتَادَهُ النَّاسُ مِنْ أَنَّهُمْ يَنْظُمُونَ مَا يَشْعُرُونَ بِهِ ، وَتِلْكَ  
 الصِّلَةُ هِيَ الَّتِي خَلَطَتْ بَيْنَهُمَا ، وَعَمَّتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أُمُورُهُمَا ،  
 وَهِيَ الَّتِي أَدْخَلَتْ النِّظَامِيْنَ فِي عِدَادِ الشُّعْرَاءِ ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِمُ

جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييزُ بينهما الا للقليل  
 من الناقدين ، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة  
 ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ، ونتصفحُ الديوان  
 ذا المائة قصيدة ، فلا نعثر بقصيدة ، وأصبحنا لانكاد نجد  
 بيننا قارئاً غير شاعر ، لأنه لا يوجد بين الناس من  
 يُعجزُه تصور تلك النعمة العروضية وتصويرها حتى  
 العامة والأُميين

ولقد كتب الكتّابون في تعريف الشعر وأمعنوا  
 في ذلك إمعاناً بعددَ به عن مكانه، وضل به عن قصده، وعندى  
 أن أفضلَ تعريف له أنه (تصوير ناطق) لان قاعدة الشعر  
 المطردة هي التأثير ، وميزانَ جودته ما يترك في النفس من  
 أثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكنُ ببراعة أسلوبه ،  
 وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك  
 الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسه على حقيقتها  
 حتى يكاد يلمسها بينانه ، فيُصبحُ شريكه في حسه ووجدانه ،

يبكى لبكائه، ويضحك لضحكه، ويفضِبُ لغضبه، ويطرب  
 لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال،  
 فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها  
 وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وياغمها<sup>(١)</sup>، وناطقها  
 وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً، أو يلاقى في سبيله  
 نصيباً

فان سمع قولَ القائل :

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ

سقاها مُضَاعَفُ الغيثِ العميمِ

نزلنا دوحَه فحنا علينا

حنوُ المرَضعاتِ على الفطيمِ

وأرشفنا على ظلاً زُلالاً

الَّذِ من المدامة للنديمِ

يصدّ الشمسَ أنى واجهتنا

فيعجُبُها ويأذنُ للنسيمِ

(١) يقال بغم الغزال اذا صوت بارخم صوته فهو باغم

يروغُ حصاهُ حاليةً <sup>(١)</sup> العذارى

فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيم

خيل إليه أنه يخطرُ في ذلك الروضِ البليل بين أنواره  
وأزهاره ، خطرَ أن النسيم بين ظلاله وأشجاره ، وأنه يرى  
بعينه أولئك العذارى السانحات وقد راعهنَّ منظرُ الحصباء  
اللامعُ فوق تلك الديباجة الخضراء فتولَّهنَّ وفزعنَّ إلى  
جوانب عقودهن يلمسُنها بأطراف بنانهنَّ يحسبنَّ أن قد  
وهت فانتثرت جواهرُها على بساط ذلك الروضِ الأريض  
وإن سمع قول الآخر :

ودارِ ندامى عطلوها وأدجلوا

بها أثر منهم جديد ودارس

حبستُ بها صبحي وجمعتُ شملهم

وإني على أمثالِ تلك الحابس

أقنا بها يوماً ويوماً وثالثاً

ويوماً له يوم الترحلِ خامس

تدار علينا الراحُ في عسجدية  
 حبتها بأنواع التصاوير فارس  
 قرارتها كسرى وفي جنباتها  
 مهانذريها<sup>(١)</sup> بالقسي الفوارس  
 فللراح مازرت عليه جيوبها  
 وللماء ما دارت عليه القلائس

تمثل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار  
 موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون<sup>(٢)</sup> ،  
 ويقرعون الكؤوس بأمثالها ، فاقرب منها ، وأطل من  
 خصائص<sup>(٣)</sup> بابها ، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دن من  
 الحمر قد تكاملت سنه ، وشيب الدهر فوديه<sup>(٤)</sup> ،  
 ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة  
 نقوشاً فارسية قد صورت في قرارتها صورة كسرى  
 فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم

(١) ادري الصيدخله (٢) قصف اقام في أكل وشر ولهو (٣) الحصص  
 بكل خلل وخرق في باب أو غيره (٤) الفودان ناحيتا الرأس



يطاردون بقر الوحش الهارب من بين أيديهم، وراهم يمشون  
الكؤوس خمرًا إلى ما يوازي أعناق أولئك الفرسان ثم يمزجونها  
بالماء إلى ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطًا بمجتمعهم ،  
وبما هي لهم من الهناءة والنعمة فيه ، ثم مرتلك الدار بعد أيام  
فراها مقفرة من أهلها لا تسمع بها نعمة ولا نامة <sup>(١)</sup> فدخلها  
فلم ير فيها إلا أعوادَ ربحان قد يبس أكثرها ، مبعثرة  
في جوانبها ، وخطوطاً كانت رسمتها زقاق الحمر فوق تربتها  
في غدوها ورواحها بين أولئك الندماء ، فانصرف حزينا  
مكتئبا يسمعُ صفير الريح الضاربة في جوانبها ، فيردد  
قول القائل :

رُبَّ ركبٍ قد أنأخوا حولنا

يشربون الحمرَ بالماء الزلال

عصف الدهرُ بهم فانقرضوا

وكذاك الدهرُ حالا بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

ويوم كتنثور الاماء سَجْرَنَه <sup>(١)</sup>

وأوقدن فيه الجزلَ حتى تضرَّما

رمىتُ بنفسى فى أجيجِ سموه

وبالعيسِ حتى بض منخرها دما

شعر كأن لهيبَ تلك الهاجرة يهبُ فى وجهه فيُشيع

عنه فراراً من لفحاته ، ويكاد يبكى رحمةً بذلك الشبح المصهور

الذى ملكت عليه تلك التنوُّفةُ الحمراء سبيله ، وحالتُ بينه

وبين نفسه ، فلا هو بصابرٍ إن دام صبراً ، ولا بناجٍ إن

أراد نِجاء

وإن سمع قول الآخر :

وارحمتاً للغريبِ فى البلدِ النَّا

زحـ ماذا بنفسه صنعاً

(١) سجر الرجل التنور ملاء وفوداً

فارق أحبَّاه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملتُ عيناه حزناً على ذلك الغريبِ الحائر، وتَمَنَّى أن  
لو التقى به في بعض مَذاهِبه فَعَطَفَ عليه، وأنس وحشته،  
ثم أخذ بيده فأنزله من يتيته منزلاً كريماً، وأبدله أهلاً  
بأهل، وجيراناً بجيران

وان سمع قولَ الآخر :

وإن الذي بيني وبين بني أبي

وبين بني عمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

فإن أكلوا لَحْمِي وفَرَّتْ لَحُومُهُمْ

وان هَدَمُوا مَجْدِي بنيتُ لَهُمْ مَجْدًا

وإن ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ

وإن هَمُّهُمُ هَوَا غَيْي هَوَيْتُ لَهُم رُشْدًا

وإن زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمَرُّ بِي

زَجَرْتُ لَهُم طَيْرًا تَمَرُّ بِهِمْ سَعْدًا

ولا أُحْمِلُ الحَقْدَ القديمَ عليهمُ  
 وليس رئيسُ القومِ من يحملُ الحَقْدَا  
 لهم جُلٌّ مالى إن تتابع لى غنى  
 وإن قلّ مالى لم أكلّفهم رِفْدَا  
 وإنى لَعَبْدُ الضيفِ مادام ثاوياً  
 وما شيمة لى غيرَها تُشبهُ العبدَا  
 أَكْبَرَ تلكَ المَكْرُمَةِ وأجلّها، ونظر اليها وهى فى علياء  
 سماءها ، نظرَ الفلكى إلى كوكبه السارى ، وشعر كأن  
 نورَها قد لمع فامتد شعاعه إلى نفسه فأضاءها  
 ولا غرو أن يبلغ الشعرُ من نفسه هذا المبلغَ فلطالما  
 كان للشعر السلطانُ الا كبرُ على النفوس العظيمة ، فقد  
 نَكَبَ الرشيدُ البرامكةَ عند ماداس له أعداؤُهم ذلك المغنى  
 الذى غناه هذا الصوت :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد  
 وشفّت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرةً واحدةً

إنما العاجزُ من لا يستبِد

وأمر السفاحُ بقتل وجوه بني أمية بعد ما قرَّبهم وأدناهم

عند ما دخل عليه سديف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمس عثارا

واقطعن كلَّ رَقْلَةٍ <sup>(١)</sup> وغراس

أنزِلوها بحيثُ أنزلها الله

هُ بدار الهوان والائتماسِ

خوفهم أظهر التوددَ فيهم

وبهم منكم كحزَّ المواسي

أقصمَ أيها الخليفةُ واحسم

عنك بالسيف شأفةَ الارجاسِ

فلقد ساءنى وساءِ رسوائى

قربهم من نمارق وكراس

(١) الرقلة النخلة التي تفوت اليد

بل عطف عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه على الخطيئة  
وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقولُ لأفراخِ بذى مرخ  
حمر الحواصلِ لا مائة ولا شجرُ  
ألقيت كاسبهم فى فعر مظلمةٍ

فاغفر عليك سلامُ اللهِ يا عمرُ  
بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قولَ قتيلة بنتِ  
الحِثِّ تماثبه فى قتله أخاها النضر بن الحِثِّ على ما بينه  
وبينه من صلة القرابة :

أحمدُ ياخيرِ ضنءٌ كريمٌ

فى قومها والفحل فحل مُعرق

ما كان ضرّك لو مننتَ وربما

منّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ

والنضر أقربُ من أصبت وسيلة

وأحقّهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوفُ بني أبيه تنوشه

لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال وهو من لا ظنّة<sup>(١)</sup> في عدله ، ولا ريبة  
في حكمه ، لو سمعها قبل اليوم ما قتلته

لامؤثرَ في نفس الانسان مثل الشعر ، وما خضع  
الانسانُ لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر ، وللشعر  
الفضلُ الأولُ في نبوغ الإنسان وارتقائه ، وبلوغه هذا المبلغ  
الباهر من التفوق والكمال ، ولقد أحب الانسان الشعرَ ناطقاً  
وصامتاً ، أما الناطقُ فقد عرفته ، وأما الصامتُ فالتمثيلُ التي  
يراد بنصبها تمثيلُ حياةِ عظماء الرجال شعرٌ ، وهذه النغماتُ  
الموسيقيةُ التي تصوّر خواطر القلوب ووجداناتها فهيج  
عاطفة الحب في نفس العاشق وعاطفة الحماسة في نفس  
الجندي شعرٌ ، وهديرُ الأمواج شعرٌ ، لأنه يمثلُ عظمة  
الجبارين ، وظلامُ الليل شعرٌ ، لأنه يطلق دموع الباكين ،

وحفيفُ الاوراق شعر ، لانه يمثل تناجيَ العشاق ، وبكاء  
الحماثم شعر ، لانه يمثل فجعةَ البين ولوعةَ الفراق ، تلك  
النغماتُ الشعرية التي نسمعها من فم الانسان مرة ، وفم  
الطبيعةٍ أخرى ، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة ،  
وألبستها ذلك الثوبَ الناعمَ الابيضَ حتى أحبيناهها ،  
وولعنا بها ، وحرصنا عليها ، وأعددنا العدةَ للبقاء فيها ،  
والسكونِ اليها ، فكتبنا ودوننا ، وألّفنا واخترعنا ،  
وتعلمنا فعلّمنا ، وبنينا فشيّدنا ، وغرسنا فجّيننا ، وعمِلنا  
فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا ، وأملنا فسمعنا ، وسمعنا فبلغنا ،  
فكأنّ الشعرَ سرُّ هذه الحياة ، وعلةُ هذا الوجود ، لا تطير  
الينا الحقائقُ الا على جناحه ، ولا يطيبُ لنا العيشُ إلا  
في جواره ، فلنمجّدُ الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل  
الاكبار ، فهم مشارقُ شمسِ الحكمة ، ومطالعُ كواكبِ  
الفضل ، وهم الينايبعُ الصافية التي يترقرق ماؤها ، ثم  
يتسربُ الى الافئدة فيملؤها سعادة وهناءة



## الشهيد تان

لم تفتحْ عيناى ليلة أمسِ لَأَنْنى بِتُ أسمعُ فى الدار  
 الملاصقة لىتى أنينَ امرأة متوجعةٍ، تعالجها ثقيلًا، وتشكو  
 مرضًا أليماً، ويخيل إلى أنى لَأسمعُ بجانبها معللاً يعملها،  
 ولا جليسا يتوجعُ لها، فلما أصبح الصبحُ ذهبْتُ إليها فاذا  
 قاعةٌ صغيرة مظلمة لا تشتملُ على أكثرَ من سرير  
 بال يتراءى فوقه شَبَحٌ مائل من أشباح الموتى، فترفقت  
 فى مشيتى حتى دنوت منها، وكأنها شعرتُ بمكانى، فحركتُ  
 شفيتها تطلب جرعةَ ماء، فأسعفتها بها، فاستفاقتُ قليلاً،  
 فوقفت بجانبها أسألها عن خطبها، فأنشأتُ تقص على  
 قصتها بصوتٍ خافت متقطع كنتُ كأنى أنزعه من  
 بين ماضئها انتزاعاً وتقول :

زوجنى أبى منذُ سنوات من رجلٍ مِزْوَاجٍ مِطْلَاقٍ .  
لا يكاد يصبرُ على امرأةٍ واحدةٍ عامًّا واحدًا ، ولو كان للفتاة رأىٌ  
فى نفسها من دون رأى أوليائها لعرفتُ كيفُ أحسنُ  
الاختيار لنفسي بل لولم يكن فى الأمر إلا أن أتبتل كما يتبتل  
الراهبات ، أو أتزوج زواجًا ينتهى بى الى هذا المصير ،  
لكان لى فى الرهبانية رأى غير ما يراه النساءُ جميعًا ،  
ولكننى عجزتُ فأذعنت ، وُحِمتُ اليه فاستقبلنى  
بأحسن ما يستقبل به الزوجُ الكريمُ أحظى نسائه لديه ،  
وأكرمهن عليه ، فكان يرينى من ذلك ما يريبُ الفريسةُ  
من ابتسامة الأسد ، وكنت أنتظرُ يومَ الفراق كما ينتظر  
المجرمُ يومَ القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى  
علمت أنه خطب فتزوج فبنى ، وأنى أصبحتُ فى المنزل  
وحيدةً منقطعة لا مؤنس لى الا طفلى الصغيرة ، فجزعت عند  
الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء الذى لا أملك رده ،  
ولا أعرف وجه الحيلة فيه ، واحتملتُ طفلى الى بيت أبى ،  
( ٤٠ - فى الظرات )

فوجدته مريضاً مشرفاً ، فبكي رحمةً بي ، واستغفرني من  
 ذنبه إلى فغفرته له ، وماهى الا أيامٌ فلائِلُ حتى مضى لسبيله  
 مفجوعاً برزئى الذى نزل بي ، فعلمت أن الدهر قد سجل على  
 فى جريدة الشقاء أياماً طوالاً لا أعلم متى يكون انقضاؤها ،  
 ولا أدرى ما الله صانعٌ فيها ، فظلمت أستكتبُ الناسَ  
 الكتبَ إلى ذلك الرجلِ أسأله القوت ، لأستعين به على  
 تربية طفليته ، أو التسريح ، عسى أن يُبدلنى الله خيراً منه زكاةً  
 وأقربَ رُحماً ، فضع بالأولى ، واستعظم الأخرى ، فلم أدرى  
 سبيلاً غيرَ سبيل العمل فلبثتُ بضع سنين ساهرة الليل ،  
 قائمة النهار ، أستقطرُ الرزقَ من سَمِّ الخياط ، فلا أبلغ  
 منه الكفاف ، حتى نال منى الجهد ، فدهيتُ بمعضلة من  
 الأَدواء خرجتُ لها عن كل مأملك من حلية وذخيرة ،  
 وكسوة وآنية ، وأصبحت لأملك درهماً أبتاعُ به قارورةَ  
 الدواء ، ولا أجد مزقةً أمسك بها قوائِمَ هذا السرير المتداعى ،  
 ولم يقنع الدهرُ منى بذلك حتى رماني بالدهية الدهياء التى  
 يصغرُ بجانبها كلُّ عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد

كتبتُ إلى ذلك الرجل منذُ شهرٍ أصف له حالتي ، وأُفْضِي  
إليه بذات نفسي ، وأسأله أن يُمدني وابنتي بقليل من القوت  
نمسيك به تلك الصُّبابة التي أبقتهَا خطوبُ الأيام وأرزأوها  
من أعظمنا وجلودنا ، ولبثت أترقب رجوعَ الكتاب كما  
يتربق الغريقُ سوادَ السفينة ، فاني لجالسة منذ أيام على هذا  
المقعد أعد على الدهر ذنوبه إلى ، وسيئاته عندي فلا أفرغ من  
عقد إلا إلى عقد ، ولا أنتهى إلا إلى حيث أبتدىء ، وقد  
جلست طفلي بين يديّ أتطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات  
تلك الخطوب ، كما يتطلع الملاحُ في ظلمات بحره إلى نجمة القطب ،  
اذ هجم على ذلك الظالمُ الجبار فاختطف ابنتي من بين  
يديّ من حيثُ لأملك دفعاً لما نابني ، ولا أجد مأذود به  
عن نفسي ، إلا زفراتٍ لا يسمعها سامع ، وعبراتٍ لا يرحمها  
راحم ، فشمرتُ كأن سهم الدهر الذي كان يروغُ قبل اليوم  
ههنا وههنا ، قد أصاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي تلك كما  
يجب أن تبين امرأة بائسة مُعْدمة قد فجعها الدهرُ بكل ماتملك  
مدها ، وبكل ماتعلق به آمالها ، فأصبحتُ لا تجد

أمامها يداً تنبسط اليها، ولا عينا تبكي عليها، وقد مربى على ذلك نيف<sup>١</sup> وعشرون ليلة لا يرقأ لى دمع، ولا يهدأ بى مضجع، حتى اذا اختلست<sup>٢</sup> من يد الظلام نعسة<sup>٣</sup> تراءت لى تلك الفتاة فى نومى كأنها صارخة باكية تهتف باسمى، وكأن أباهما يؤسعا ضرباً وتمذيباً، وكأننى أحاول استنقاذا مما هى فيه فلا أجد إليها سبيلا، وهأنذا أشعر أن سحابة الموت تُغشى على بصرى، وأنى مفارقة هذا العالم قبل أن ألقى على ابنتى نظرة أتزود بها منها قبل أن أفارق هذه الدار

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى جرحنت<sup>٤</sup> بريقها، وتتابعت أنفاسها، وشطَرَ<sup>٥</sup> بصرها، فجتوت عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها على أمرها، ويمدّها برحمته وإحسانه، فانى لكذلك وقد استغرقت<sup>٦</sup> فى هذا المشهد الذى بين يدى استغراق العابد فى هيكله، اذ رأيت من خلال الدموع التى كانت تزدحم فى عيني<sup>٧</sup> شبحاً منتصباً عند باب الغرفة فتأملته فاذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة،

فتقدمتُ نحوه فرأيتُه خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته  
نظراتِ الوجد والرحمة ، والفتاةُ كأنها خرقَةٌ بالية لا يتحرك  
لها عضو ، ولا ينبض بها عرق ، فقلتُ من أنتَ  
وماذا تريد ؟ قال أنا زوج هذه المرأة ، ووالد هذه الفتاة ،  
قلتُ لملك جئتَ تستغفرُها من ذنبك إليها في التفريق  
بينها وبين ابنتها ، قال ياسيدي ما زالت الفتاةُ مذ فارقتُ  
أُمها تبكي عليها بكاءً مرّاً ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ،  
حتى سقطتُ مريضةً لا ينفعُها طب ، ولا ينجمُ فيها دواء ،  
فلما رأيتُ أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئتُ بها  
الى أمها أرجو أن تجدَ بين ذراعيها شفاءً من داءها ، قلتُ  
ذلك موكول إلى القضاء ، ولا يعلم الغيبَ إلا الله ، ثم  
تقدمتُ نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملُها برفق  
حتى وضعها بين ذراعي أمها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاةُ  
بأمها ، والأمُ بفتاتها ، حتى فاضتُ نفساهما معاً ، كأنما كانتا  
من الردي على ميعاد !!

الآن وقد عدتُ من دفنَ تينك الشهيدتين ، وجلست

لكتابة هذه السطورِ أشعر أن نفسي تسيلُ من بين جنبي  
 حزناً على تلك المرأة المسكينة ، لابلُ حزناً على جميع  
 البائسات من النساء اللواتي يقتلُهنَّ الرجالُ كل يوم  
 صبراً بسيف الطلاقِ الماضي ، من حيثُ لا يجدن راحماً  
 يرحمهن ، ولا نائراً يثارُ لهن



## الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفيلسوف هيجو :

قومي يا بنيةُ إلى الصلاة ، فقد نزل ستارُ الليل ، ودب  
الشفقُ الأحمرُ في حاشية الأفق ، وأطلت عيونُ الكواكب  
من فروج السحب ، وأجرى البدرُ المنيرُ ليقته الفضية  
البيضاء على صفحة النهر ، ومسحتُ أيدي النسائمِ المبتلةِ  
بندى الليلِ عن أوراق الاشجار ، غبارَ النهار

قومي يا بنيةُ الى الصلاة ، فقد مات النهار ، ومات بموته  
الآلامُ والاحزان ، والآحقادُ والاضغان ، والمظالمُ والمآثم ،  
ولم يبق من تلك الاعاصير والزوابع ما يعترضُ وفدَ الدعاء ،  
في طريقه الى أبواب السماء

قومي يا بنيةُ الى الصلاة ، فقد أوى الناسُ إلى منازلهم  
والطيورُ إلى وكناها ، والوحوشُ الى أوجرتها ، وأخذت



الطبيعة مكانها من مَرَقْدِهَا ، ولم يبق من أصواتها إلا أنينُ  
الراحة المتمثلُ في جمجمة هذه المركبة المقبلة ، وجوار هذه  
السائمة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك الرياح الضاربة  
في ذوائب الأشجار ، وأعلى الابراج

قوى يابنيةُ الى الصلاة ، فقد جاءت الساعةُ التي يحثو  
فيها الأطفالُ حول أسرهم حفاةً الأقدام ، عراة الرؤوس ،  
شواخص الابصار ، يطلبون الرحمةَ من الله تعالى لا بآههم  
وأهياتهم وللناس أجمعين ، فترنُّ أصواتهم في علياء السماء ،  
رنينَ نغماتِ الموسيقى في أجواز الفضاء ، فيرددوها الملائكةُ  
طائرَين بها الى عرش الرحمن ، فاذا فرغوا من دعائهم ، وقضوا  
حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ، ذهبوا الى مضاجعهم ،  
وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطايرُ فيه الاحلامُ الجميلة حول  
أفواههم الباسمة ، كما تتطايرُ أسرابُ النحل حول أحواض  
الأزهار

قوى يابنيةُ الى الصلاة ، واطلبي الرحمةَ لتلك التي التقطت

ذَرَّتْكَ الْاُولَى مِنْ عَالَمِهَا ، ثُمَّ اتَّخَذَتْ لَكَ مِنْ حَنَائِيَا ضُلُوعَهَا  
سَرِيرًا قَبْلَ سَرِيرِكَ ، وَمِنْ أَحْشَائِهَا مِهَادًا قَبْلَ مِهَادِكَ ، وَآتَى  
قَدَمَ لَهَا الدَّهْرُ كَأَتَى شِقَاثَهُ وَنَعِيمَهُ ، فَشَرِبَتْ الْاُولَى  
وَأَثَرَتِكَ بِالْآخِرَى

اطلبي لها الرحمة فانها كانت طيبة القلب ، طاهرة  
النفس ، نخبٌ حتى من لا يحبها ، وترحمٌ حتى من لا  
يرحمها ، وتبتسمُ ابتسامةً عذبةً صافية لا يُمازجُها ذلك  
الريبُ الذى يمازج ابتسامات النساء ، وتمديدُها الى اجتناء  
كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهى عنها ، وكانت تقف أمام  
مسرح الحياة الخافل بالزخارف والتهاويل وقفة المترث  
المتهمل الذى يهتم سمعه وبصره ، وتنظرُ اليه نظرة الحكيم  
العاقل الذى يعلم أن السعادة الكاذبة أمرٌ مذاق فى الافواه  
من الشقاء الصادق ، وأن الذين يضحكون سروراً  
بهذه الصُّورِ الخيالية إنما يكونون من حيث لا يشعرون ،

وَأَنْتَ الْجَالِسِينَ حَوْلَ مَائِدَةِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَائِدِ إِنَّمَا  
يَقَامِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا بَدَّ أَنْهُمْ خَاسِرُونَ ، فَتُحَوَّلُ بَصَرُهَا ،  
وَتُشَيِّحُ بَوَاجِهَا ، وَتَعُودُ أَدْرَاجَهَا ، بِقَلْبٍ غَيْرٍ مُخْدُوعٍ ، وَفُؤَادٍ  
غَيْرٍ مُصْدُوعٍ

اِذْ كَرَى يَا بَنِيَّةُ أَنْ تَطْلُبِي الرَّحْمَةَ لِأَيِّكَ كَمَا تَطْلُبِينَهَا  
لَأُمِّكَ ، فَهَوَّأَ حُجُومُ الْيَهِامِنَا ، لِأَنَّ الْخَطِيَايَا قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ  
فَأَصْبَحَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَغُلَّتْ يَدُهُ ،  
فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْدَهَا إِلَى اللَّهِ بِالدَّعَاءِ

إِنِّي أَشْعُرُ يَا بَنِيَّةُ حِينَما أَسْمَعُ نَشِيدَ دَعَائِكَ أَنِّي أَسْمَعُ  
صَوْتَ انْفِصَامِ الْقِيُودِ عَنْ قَدَمِي ، وَأَنَّ تِلْكَ السَّحَابَةُ السُّودَاءُ  
الَّتِي تَغْشَى عَلَى عَيْنِي تَنْقَشُ عَنْهَا قَلِيلًا قَلِيلًا ، وَكَأَنَّ جَنَاحِي  
الْمُهِيبِضَ قَدْ نَبَتَ لَهُ رِيشٌ نَاعِمٌ جَمِيلٌ أَحَاوِلُ أَنْ أَطِيرَ بِهِ  
فِي أَعَالَى السَّمَاءِ

أَطْلُبِي الرَّحْمَةَ لِلْآبَاءِ الْعَائِدِينَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ تَحْتَ جَنَاحِ  
الظَّلَامِ بِدُمُوعٍ مِنْهَلَةٍ ، وَقُلُوبٍ وَاجِمَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَايَرُوا الشَّمْسَ

من مشرقها الى مغربها ، فلم يجدوا ما يمسحون به دموع  
أبنائهم الذين ينتظرونهم فى منازلهم

أطلبى الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة أبنائهن  
المرضى وقد رجفت قلوبهن ، وحارت أبصارهن ، مخافة  
أن يذوقن مرارة الشكلى ، والشكلى كثيرٌ على قلوب  
الامهات

أطلبى الرحمة للبخیل الذى یجمع بطنه ، ویشبع صندوقه ،  
والأحمق الذى یبتسم للمعان الحریر فى صدره ، والذهب  
فى أصابعه ، والمملک الذى یشعل نار الحرب فى أمته ،  
لیطفی نار غضبه ، والزوج الذى لا یحاسب نفسه على  
لیلة سوء یقضیها خارج بیته ، ویحاسب زوجته على ابتسامة  
رحمة تبسمها الرجل غیره ، وسائر البؤساء الذین لا یشعرون  
بیؤسهم ، والأشقیاء الذین یظنون أنهم سعداء

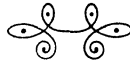
أطلبى الرحمة لأولئك الذین عمروا الارض ، وبنوا  
دورها ، وشادوا قصورها ، وزخرفوا سهولها وجبالها ،

وأغوارها وأتجادها ، فجازتهم سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم  
 في أعماق جوفها ، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة  
 الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالأقدام ، والنعال  
 بالتيجان ، والتي ينطوى فيها كل قديم ، تحت كل حديث ،  
 انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط ، يتألمون ولا  
 ينطقون ، ويستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم ،  
 أو يلبي دعاءهم

أطلبى الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم  
 إلى روضة غناء تزهّر فوق أجداثهم ، واركب فوق  
 التربة التي يثنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة  
 تبل غلتهم ، وتطفى جذوة الحزن الملهبة في أحشائهم ،  
 إنهم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون

أطلبى الرحمة للآبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ،  
 والمليدين والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل  
 ساجدة في السماء ، ولا تيأس أن يستجيب الله دعاءك ،

فلكلُّ بدايةٍ نهايةٌ ، ولكل سائلةٍ قرار  
 كما أن النهرَ يصبُّ في البحر ، والطائرَ يقعُ على  
 الغصن ، والشمسَ تجرى لمستقرها ، والنفسَ تصعدُ الى  
 عالمها ، كذئكَ أبوابُ السماء ، مفتحةٌ لخالص الدعاء



## الكوخ والقصر

أنا إن كنتُ حاسداً أحداً على نعمة فاني أحسدُ  
صاحبَ الكوخ على كوخه ، قبل أن أحسد صاحب القصر  
على قصره ، ولولا أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما  
تضاءل الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنفُ الأغنياء  
أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله

أنا لا أغبطُ الغنيَّ الا في موطن واحدٍ من مواطنه ،  
إن رأيتُه يشبعُ الجائع ، ويواسي الفقير ، ويعودُ بالفضل من  
ماله على اليتيم الذي سلبه الدهرُ أباه ، والارملة التي فجعها  
القدرُ في عائلها ، ويمسح بيده دمةَ البائس والمحزون ، ثم  
أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى

أرثي له إن رأيتُه يتربص وقوعَ الضائقة بالفقير  
ليدخلَ عليه مدخل الشيطان من قلب الانسان فيمتص

التمالةَ الباقيةَ له من ماله ليسدَّ في وجهه بابَ الامل ، وأرثى له إن رأيتَه يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانسانى ، فلا يطمعُ في فضيلة ، ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثى له وأبكى على عقله إن مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يَحْزُرُ بعينيه خِزْرًا ليرى هل سجد الناسُ لمشيته ، أو صعدوا من هيئته ، وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا جَعْدًا مقترأً على نفسه وعياله ، بغيضًا إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطنون ساعة حَتْفِهِ

أما الفقيرُ فهو أسعدُ الناس عيشًا ، وأروحهم بالًا ، إلا اذا كان جاهلًا مخدوعًا يظن أن الغنى أسعدُ منه حظًا ، وأرغد عيشًا ، وأثلجُ صدرًا ، فيحسده على النعمة التى أسبغها الله عليه ، ويجلس فى كسر بيته جلسة الكئيب المحزون ، يُصعدُ الزفرةَ فالزفرةَ ، ويرسل العبرةَ فالعبرةَ ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبَّ



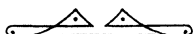
صاحبِ قصرٍ يتمنى كوخَ الفقير وعيشه ، ويرى أن  
 ذلك السراجَ الضعيف الذى لا يكاد ينيرُ نفسه أَسْطَعُ  
 ذبالا ، وأكثرُ لآلآءَ ، من تلك الشموع الباهراتِ  
 التى تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشيشة من الشعر أو الوبر  
 أنعمُ ملمسًا ، وألين مضجعًا ، من وسائد الحرير ، ونضائد  
 الديباج

لقد بلغ الضعفُ وصغرُ النفسِ بكثيرٍ من الناس أنهم  
 يحفلون بالاغنياء لأنهم أغنياء ، ، وإن كانوا لا ينالون منهم  
 ما يبيل غلة ، أو يُسَيِّغُ غصّة ، وليت شعري ان كان لا بد لهم  
 من إجلال المال وإعظامه حيث وجد فلم لا يقبلون أيدي  
 الصيارفة ولا ينهضون إجلالا للكلاب المطوقة بالذهب ،  
 وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء

لو عامل الفقراءُ بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا  
 به لوجدوا أنفسهم فى وحشةٍ من أنفسهم ، ولشعروا أن  
 بدرات الذهب التى يكتزونها إنما هى أساودُ ملتفةٌ على

أقدامهم ، وأغلال<sup>١</sup> آخذة بأعناقهم ، ولعلموا أن الشرف  
 في كمال الأدب ، لافي رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ،  
 لافي أحمال المال

فليعظم الناس الكرماء ، وليحتقروا الاغنياء ،  
 وليعلموا أن الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وأن السعادة  
 أمر وراء الكوخ والقصر



## على سرير الموت

مرتُ يوماً من الأيام على باب منزلٍ صغيرٍ في أحد  
الازقة الضيقة فرأيتُ حوله مجماً حافلاً تصطك فيه الأقدامُ  
بالأقدام ، وتمتزج فيه الأنفاسُ بالأنفاس ، وقد تخلله قوم  
من رجال الشرطة ، وسمعتُ قائلاً يقول « قبح الله الانتحار »  
وآخر يقول « أحسبه شاباً غريباً لأنني لم أر عيناً تدمعُ عليه »  
فعلمتُ أن هناك شاباً منتحراً ، وأن هذا الحادث سببُ  
هذا الاجتماع

لم أقنع بالاجمال ، فأحببتُ معرفة التفصيل ، فحاولت  
الدخول إلى المنزل فما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً ، فترثتُ  
حتى لمحت رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه  
وهناك رأيت على سرير الموت فتىً في نحو العشرين  
من عمره ، رقيقَ الجسم ، أصفرَ اللون ، لم تستطع يد

الموت أن تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك  
 البقية من الطيب التي يشتشقها الانسان في الزهرة الذابلة  
 اهتم الضابطُ بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ،  
 واهتم الطبيبُ بجُمته ليعرفَ علةَ موته ، أما أنا فجلستُ  
 بجانبه جلسةَ الكئيب المحزون أفكر في مصيبتة ، وأندبُ  
 شبابه وجماله ، فلمحت حول سريرهِ أوراقًا متشورةً فجمعتها  
 ووضعتها في محفظتي من حيثُ لا يشعر الضابط ولا الطبيبُ  
 بما أفعل ، علني أجد فيها عبرةً من العبر

وما هي الا ساعةٌ حتى قرر الطبيبُ أنه متتحرُّ بشرب  
 مادةِ الزرنيخ ، وقرر الضابطُ نقلَ جثته الى المستشفى ؛  
 فنُقِلَت الجثةُ ، وانفض الجمعُ المزدحمُ ، ثم لم أعد أعلم بعد  
 ذلك من أمره شيئًا

خلوتُ بنفسى والأوراقِ فنثرتها فرأيتها بمجموعةٍ  
 خواطرٍ عاشق تناول كأسَ الحب بيده فارتشف منها  
 الرشفةَ الأولى ، فوجدها حلوةَ المذاقِ ، فألصق الكأس

بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعرُ بالمرارة المتجددة  
 في جرعاتها ، حتى أتى على الجرعة الأخيرة ، فاذا هي السمُّ  
 الناقع الذي قتله وذهب بحياته

قرأتُ تلك المذكراتِ فبكيتُ بكاءً رحمتُ نفسي منه ،  
 ثم طويتها وألقيتُ بها بين أوراقى ، وظلتُ على ذلك  
 أعواماً طوالاً

وينأ أنا أقلبُ أوراقى ليلة أمسِ اذ عثرتُ بها فى سَفَطِ  
 صغير قد اصفر لونه لتقدم العهد عليه ، كما يصفرُّ الكفنُ  
 حول الجثة البالية ، فشعرت برِعدةٍ تتمشى فى أعضائى ،  
 ونخيلتُ أنها فى هذا السَفَطِ ، شَبَحُ كَاتِبِها فى ذلك القبر

ثم عدت الى نفسى فنشرتها للمرة الثانية وأعدتُ  
 قراءتها ، فرأيت قلبَ العاشق مرسوماً فيها رسماً صحيحاً  
 فى حالى سعادته وشقاقه ، وهأنذا أنشرها فى الناس  
 لتكونَ عبرةً يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم فى هذا السبيل ،

سبيلِ الحب القاتل : —

## ١

رأيتها فأحببتها وما كنت أعرفُ الحب من قبلها  
 كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق  
 فيه الحبُ أشرقت فيه شمسٌ ساطعة منيرة لها من الشمس  
 نورُها وجمالها ، وليس لها منها حرارتُها ولذاعتها  
 كنت أشعرُ قبل اليوم كأن قلبي في صحراء هذه  
 الحياة وحيدٌ موحشٌ لا يعرف القلوب ، أو يعرفها ثم  
 ينكرها ، فلما أحبيتُ رأيت بجانبه قلباً يؤنسه ويزيل  
 وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة مالو  
 قسم على القلوب جميعها ماخالطها حزنٌ ، ولا مسها ألم  
 كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها ، غير أني  
 كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصرَ والحديقة ،  
 والفضةَ والذهب ، والسلطةَ والجاه ، والشهرة والصيت ،  
 فلما أحبيتُ اعتقدتُ ألا سعادة في الدنيا غيرُ سعادة الحب ،  
 وأيقنت أن الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الأقسام ،

لإسعادة النفوس ، فثلهم كمثل الدفين المكفن بالحريير  
والديباج، وباطنه مسرحُ الدود ، ومرتعُ الهوام والحشرات

## ٣

أحببتها قبل أن أعرف عنها شأنًا من الشؤون  
سوى أنها تحبني ، فكأنني مامنحتها قلبي إلا لأنها منحتني  
قلبها ، وهو ثمنٌ قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت  
أحدثُ نفسي بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني  
خواطرُ الأمانى ، ولا سوانحُ الأحلام

عشتُ دهرًا بين أقوام لا يعينهم أمرى ، ولا يهمهم  
شأنى ، وذقتُ من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع  
أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسألنى كيف حالك ، ومن  
يقول لى ما أشدَّ جزعى لمصابك ، ومن يتباكى رحمةً بى  
وإشفاقًا علىّ ، ولكنى لم أر بجانبى يومًا من الأيام عينًا تدمع ،  
ولا قلبًا يخفق

رأيتُ من يحب جمالى كما يُحبُّ تمثالًا مُتقن الصنع ،  
ومن يحبّ مالى كما يحبه فى كيسه أو خزانته ، ومن يعجب

بحدِيثِ إعجابه بروايةٍ بديعة ، ولكنى لم أَرَ فى حياتى  
من يُحِبُّنى

أما اليوم فقد وجدتُ بجانبِ القلبِ الذى يحقق لاجلى ،  
والعين التى تبكى فى سبيلى ، والنفس التى تحبُّنى لالشئِ سِوَاى ،  
فقليلٌ لها منى أن أَمْنَحها حياتى ، فكيف أبْجُلُ عليها بقلبي ؟

## ٣

جلستُ إليها للمرة الأولى فحدثتني نفسى أن أمدَّ يدي  
إلى يدها فأضعها على صدرى لأطْفِئَ بها غلتي ، فمالستها  
حتى نظرتُ إلى نظرة العاتبِ اللأم ، وقالت كن رجلاً  
فى حبك ، واترك الطفولةَ لغيرك

إن كنتَ تُحِبُّنى لنفسي فها أنت قد ملكتها على  
وأحرزتها من دونى ، وإن كنتَ تحبُّنى لهذه الصورة الجثمانية  
فما أضعف همتك ، وما أصغر نفسك

أتذرفُ دمعك ، وتسهرُ ليلك ، وتذيبُ حبةَ قلبك ،  
من أجل عظمةٍ تلمسها ، أو جلدة تلمسها ؟

أنت شريف فى نفسك ، فكُن شريفاً فى حبك ، واعلم



أُننى ما أُحببتُ غيرَ نفسِكَ ، فلا تحبّ غيرَ نفسى  
وما وصلتُ من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتنى قد  
صغرتُ فى عينِ نفسى ، وتمنيتُ أن لو عَجَلَ إلىَّ أجلي قبل  
أن يمرَّ هذا الخاطرُ الفاسدُ فى ذهنى ، ثم استوهبتها ذنبى  
فوهبته لى ، وما عدتُ من بعدها إلى مثلها

## ٤

الاّن عرفتُ مبلغَ عِظمتها ، وفضلَ هدايتها ، ومقدار  
ما يبلغه الحبُّ الشريفُ من النفس ، فها نذا أشعر كأن نفسى  
مرآةٌ يفساها الصدا ، وكأن الحبَّ صَيْقَلٌ يصقلها فيجلا  
صفحتها شيئاً فشيئاً

كنتُ أحملُ بين جوانحي لأعدائى ضغفناً وحقدًا ،  
فأصبحتُ لأشعر بما كنتُ أشعر به من قبل ، لأن  
الحب ملك على قلبى ، واستخلصه لنفسه ، فلم يترك فيه  
مجالاً لشيء سواه

كنتُ ضيقَ الصدر ان مسنى ألم ، سريعَ الغضبِ  
إن فاتنى مأرب ، فأصبحتُ فسيحَ رقعةِ الحلم ، لا يستفزنى

غضبٌ ، ولا يخرُجُنِي مُخرجٌ ، لأنِّي قنِيتُ بِسعادةِ الحبِّ ،  
فلم أحفِلْ بعدها بشيءٍ سواها

كنتُ شديدَ القسوةِ ، متحجراً القلبِ ، لا أعطفُ على  
بائسٍ ، ولا أحنو على ضعيفٍ ، فأصبحتُ أشعر بالمصيبةِ  
أراها تصيبُ غيري ولا تصيبني ، وأتألم لبؤس كلِّ بائسٍ ،  
وحزن كلِّ محزونٍ ، لأنَّ الحبَّ أشرق في قلبي فلاهُ نوراً ،  
فارتفع ذلك الستارُ الذي كان مُسبِّلاً بينهُ وبين القلوبِ  
وجملةُ القولِ أنِّي كنتُ وحشاً ضارياً أعيا العالمين  
رياضتهُ وتذليلهُ ، فصرتُ بين يديَّ الحبِّ الشريفِ إنساناً  
شريفاً ، ومملوكاً كريماً

## ٥

خرجتُ بهما الليلة إلى ضفةِ النهر وكان الماء رائقاً ،  
والسماء صافية ، وفي كل منهما نجومٌ وكواكبٌ تتلألُ  
في صفحته ، فاختلط علينا الامرُ حتى ما نفرق بين الأصلِ

والمرأة ، ولا ندرى أين مكانُ الماء ، من مكان السماء ، فشيئنا  
ظويلاً لا ينبس أحداً بكلمة كأن سكونَ الليل قد سرى  
إلى أفئدتنا ، وملاً ما بين جوانحنَا ، فأمسكنا عن الحديث  
هيبةً واجللاً

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفةٍ في جسمي ، وصفاء  
في نفسي ، حتى كان يخيلُ إلى أني لو شئت أن أطير  
لطرتُ بغير جناح ، وأن في استطاعتي أن اخترقَ بنظري  
حُجُبَ السماء وأنفذ إلى الملاء الأعلى ، فأرى هنالك ما هو  
محجوب عن نظر الناس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن  
يُضِلَّ النجمُ سبيله فلا يهتدي إلى مغربه ، وأن يختبيءَ الليل  
في بُردته فلا يثرُّ به فجرُه ، وأن تستمر مشيتنا هذه ماضل  
النجم ، وما دام الظلام

فالتفتُ إليها وسألتها هل تشعرُ بالسعادة التي أشعرُ

بها ؟

قالت لا ، لاني أعرفُ من شؤون الأيام وأحوالها

غيرَ ما تعرفُ ، ولانى لا أنظرُ الى الدنيا بالعين التى تنظرُ  
بها إليها

أنت سعيدٌ بالامل ، وأنا شقيةٌ بالحقيقة الواقعة  
إنك سعيدٌ لأنك تظن أن سعادتك دائمةٌ لا انقطاع  
لها ، وأنا شقيةٌ لانى أتوقعُ فى كل لحظة زوالها وفناءها  
إن استطعتَ أن تقفَ الشمسَ فى كبد السماء ، وأن  
تحوّلَ بين الارض ودورِتها ، وأن تمنعَ الساكنَ أن يتحركَ ،  
والمتحركَ أن يسكنَ ، فاضمن لنفسك استمرارَ السعادة  
وبقاءها

وهنا أمسكتُ عن الكلام وأطرفتُ برأسها طويلا ،  
فرأيتُ مدامعها تنحدر على خديها بيضاء صافية كاللؤلؤ  
المكنون ، فبكيتُ لبكائها ، وقلتُ لم تبكين ؟ قالتُ خوف  
الفراق ، قلتُ فراق الحياة ؟ أوفراق الموت ؟ قالتُ أما فراقُ  
الحياة فأننى لأخافه ، لأنه لا توجد قوةٌ فى العالم تستطيعُ  
أن تحوّلَ بينى وبينك ، إنما أخاف فراقَ الموت ، لانه

الفراق الذى لا حيلة لى فيه ، ولا مُنتَدَح عنه ، قلتُ هل لك  
أن تتعاهد على أن نعيشَ معاً ونموتَ معاً ؟ قالتُ ذلك ما يهون  
علىّ ألى ، فتعاهدنا ، ثم رجعنا أدراجنا ، والليلُ يُشمّرُ أذيا له  
للفرار ، من وجه النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كلٌّ  
منا لسبيله

٦

ألا يستطيعُ هذا الدهرُ الغادرُ أن ينام ساعةً واحدة  
عن هذا الانسان ؟  
ألا يستطيعُ أن يسقيه كأساً واحدة لا يخالطها كدر ،  
ولا يمازجها شقاء ؟

الا يستطيعُ أن يحرمه السعادةَ بتاتاً فلا يذيقه من  
كأسها فطرةً واحدة مادام يريدُ أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً  
إن الانسان لا يعجزُ عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه  
يعجزُ عن احتمال السعادةِ المتقطعة

يقولون إن الاملَ حياةُ الانسانِ ، وما قتل الانسان  
ومزق شملَ حياته إلا الاملُ

ليتني ماسعدتُ ، لاني ماشقيتُ إلا بسعادتي ، وليتني  
ما أملتُ ، لان اليأس القاتلَ ، ماجاني إلا من طريق الأمل  
الباطل

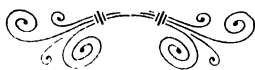
ماتت الفناء التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ،  
وينبوع سعادتي وهناءتي

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالا وبهاء ، فأت  
بموتها كلُّ حيٍّ في هذا الوجود

أرى الأرضَ غيرَ الأرض ، والسما غير السماء ، وأرى  
الطيرَ صامتةً لا تغرد ، والغصونَ ساكنةً لا تتحرك ،  
وأرى النجومَ آفلةً ، والازهارَ ذابلةً ، والطبيعةَ واجمة حزينة ،  
لا يفتُرْ ثغرها ، ولا يتلأأ جمالها ، وأرى الدنيا كأنما عادت  
الى عهدِها الاول ، لا يسكنها إنسان ، ولا يخطرُ بها  
حيوان ، وكانني فيها آدمُها الوحيدُ المسكينُ يندب جنته ،  
ويشكو وحدته

أيها الدهرُ الغادر ، ان غلبتني عليها ، فإنك لن تستطيع

أَنْ تَغْلِبَنِي عَلَى نَفْسِي ، لَكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ الدُّنْيَا مَنْ تَشَاءُ ،  
 وَلَكِنْ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهَا مَنْ يُخْرِجُ مِنْهَا  
 وَيَأْتِيهَا النَّفْسُ الْهَائِمَةُ فِي سَمَائِهَا ، لَا تَجْزَعِي وَلَا تَعْجَلِي ،  
 فَوَاللَّهِ لَا أُفِينُ بِعَهْدِكَ ، وَلَا أَذْهَبُ عَمَّا قَلِيلٍ وَحِشْتِكَ ،  
 وَلِيَكُونَنَّ عَهْدُنَا فِي مُسْتَقْبَلِنَا ، كَعَهْدِنَا فِي مَاضِينَا ، فَاتَعَارَفْنَا  
 فِي الْعَالَمِ الْأَوَّلِ إِلَّا بَارِوَا حَنَا ، فَلْنَكُنْ كَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ الثَّانِي



## غدر المرأة

يَقْصُّونَ فِي بَعْضِ الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ حَكِيمًا مِنْ حُكَّامِ  
 الْيُونَانِ كَانَ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبًّا مَلِكٌ عَلَيْهِ عَقْلُهُ وَقَلْبُهُ ، وَأَحَاطَ  
 بِهِ إِحَاطَةً الشَّعَاعِ بِالصَّبَاحِ الْمُتَقَدِّدِ ، وَكَانَ يَمَازِجُ هُنَاءً تَهَ الْخَاضِرَةَ  
 شَقَاءَ مُسْتَقْبَلٍ يَسُوقُهُ إِلَى نَفْسِهِ الْخَوْفُ مِنْ أَنْ تَدُورَ الْأَيَّامُ  
 دَوْرَهَا فَيَمُوتَ وَيُفْلِتَ مِنْ يَدِهِ ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي كَانَ مُغْتَبِطًا  
 بِاعْتِلَاقِهِ إِلَى صَائِدٍ آخَرَ يَمْتَلِكُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَ كَلَّمَ أَبَتْ  
 زَوْجَتَهُ سِرَّهُ ، وَشَكَا إِلَيْهَا مَا يَسَاوِرُ قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ الْهَمِّ ،  
 حَنْتَ عَلَيْهِ ، وَعَلَّلْتَهُ بِمَعْسُولِ الْأَمَانِيِّ ، وَأَقْسَمْتَ لَهُ بِكُلِّ  
 مُحَرِّجَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّهَا لَا تَسْتَرِدُّ هَبَّةَ قَلْبِهَا مِنْهُ حَيًّا وَمَيِّتًا ،  
 فَكَانَ يَسْكُنُ إِلَى ذَلِكَ الْوَعْدِ سَكُونَ الْجَرَحِ الذَّرِبِ تَحْتَ  
 الْمَاءِ الْبَارِدِ ، ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى هَوَاجِسِهِ  
 وَوَسَاوِسِهِ ، حَتَّى مَرَّ فِي بَعْضِ رَوَّاحَاتِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي إِحْدَى



الليالى المقمرة بمقبرة المدينة ، فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شاربُ الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعدُ فرقا الاصغاء إلى حديث المردة والجان ، فرأى فى بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأةً متسليةً جالسةً أمام قبرٍ جديد لم يحفُ ترابُه ، ويدها مروحةٌ من الحرير الأبيض مطرزةٌ بأسلاك الذهب ، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب ، فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه ، ثم أنست به حينما عرفته ، فسألها ما شأنها ، وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ، وما هذا الذى تفعل ؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها ، فجلس إليها وتناول المروحة منها ، وظل يساعدها فى عملها حتى جف التراب ، فحدثته أن هذا الدفين زوجها ، وأنه مات منذ ثلاثة أيام ، وأنها جالسةٌ منذ الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاءً يمين كانت قد أقسمتها له فى مرض موته ألا تزوج من غيره حتى يحف

تراب قبره وأن هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنثَ يمين أقسمتها له ، أو تخيسَ بما عاهدته عليه ، ثم قالت له هل لك ياسيدى أن تقبل هذه المروحة هدية منى إليك ، وجزاء لك على حسن صنيعك معى ؟ فقبلها منها شاكرًا بعد أن هناها بزواجها الجديد !! ثم انصرف وليس وراءه ما به من الهم غاية ، ومشى فى طريقه مشيةً الرائحة النشوان يحدثُ نفسه ويقول : إنه أحبها وأحسن إليها ، فلما مات جلست فوق قبره لالتبكيه ، ولالتذكر عهدَه ، بل لتتحلل من يمين الوفاء التى أقسمتها له ، فكانها وهى جالسة أمام زوجها الاول تُعد عدد الزواج من زوجها الثانى ، وكانما اتخذت من صفائح قبره مرآةً نصقلُ أمامها جبينها ، وتصففُ طرثها ، وتلبس حليتها ، للزفاف الى غيره ومازال يحدثُ نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه

فى منزله من حيثُ لا يشعره، ورأى زوجته ماثلةً أمامه مرتاعةً لمنظره المؤلم المحزن، فقال لها إن امرأةً خائنةً غادرةً أهدتْ إلى هذه المروحةَ فقبلتها منها لأهديها إليك، لأنها أداةٌ من أدوات الغدر والخيانة، وأنتِ أولى بها منى، ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبتْ وانتزعت المروحة من يده ومزقتها إرباً إرباً، وأنشأت تسبُّ تلك المرأة وتشتُمها، وتنعى عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها، ثم قالت ألا يزالُ هذا الوسواس عالقاً بصدرك مادمت حيا؟ وهل تحسب أن امرأةً فى العالم ترضى لنفسها بما رضىتْ به لنفسها تلك المرأةُ الغادرة؟ فقال لها إنك أقسمتِ لى ألا تتزوجى من بعدى فهل تفين بعهديك، قالت نعم ورماني الله بكل ما يُرمى به الغادر إن أنا فعلت، فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت، فدعا

زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت ، فما غربت  
شمسُ ذلك اليوم حتى غربت شمسُه ، فأمرت أن يسجى  
بردائه ويُترك وحده في قاعته حتى يحتفلَ بدفنه في اليوم  
الثاني ، ثم خلت بنفسها في غرفها تبكيه وتندبه ماشاء  
الله أن تفعل ، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادمُ وأخبرتها  
أن فتىً من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعودَه حينما  
سمع بخبر مرضه ، فلما سمع حديثَ موته دُعر دُعرًا شديدًا وخرَّ  
في مكانه صَعِقًا وأنه لا يزال صريعًا عند باب المنزل لا تدرى  
ما تصنع في أمره ، فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف ،  
وأن تتولى شأنه حتى يستفيقَ ، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها ،  
فلما مر الهزيعُ الثاني من الليل دخلت عليها الخادمُ مرة  
أخرى مدعورةً مرتاعة وهي تقول : رحمتك وإحسانك  
ياسيدتي ، فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا ،  
وقد حرتُ في أمره ، وما أحسبُه إن نحن أغفلنا أمره إلا  
هالكا ، فأهمها الأمر ، وقامت تتحاملُ على نفسها حتى

وصلت إلى غرفة الضيف ، فرأته مسجى على سريره ، والمصباح  
عند رأسه ، قاقربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت أبداع  
سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيل إليها أن  
المصباح الذى أمامها قبس من ذلك النور المتلألئ فى ذلك  
الوجه المنير ، وأن أنينه المنبعث من صدره نعمة موسيقية  
محزنة ترن فى جوف الليل البهيم ، فانسأها الحزن على  
المريض المشرف الحزن على الفقيدهالك ، وعناها أمره ، فلم  
ترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى  
استفاق ، ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة  
الشكر والثناء ، ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من  
أمره كل ما كان يهمها أن تعرفه ، فعرفت مسقط رأسه ، وسيرة  
حياته ، وصلته بزوجها ، وأنه فتى غريب فى قومه ، لأب له ولا  
أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة  
عاجلت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عاجلت ، ثم رفعت  
رأسها وأمسكت يده ، وقالت له إنك قد نكثت أستاذك ،

وأنا نكلتُ زوجي ، فأصبح ههنا واحداً ، فهل لك أن تكون  
عونا لي وأن أكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك  
لنا مساعداً ولا معيناً ، فألمَّ بحبيثة في نفسها ، فابتسم لها  
ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها من لي ياسيدتي أن  
أظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني  
ولا يكاد يهدأ عني قد نغص على عيشي ، وأفسد على شأن حياتي ،  
وقد أُنذرتني الطبيبُ باقتراب ساعة أجلى ان لم تدركني  
رحمةُ الله ، فاطلبي سعادتك عند غيري ، فأنتِ من بنات  
الحياة ، وأنا من أبناء الموت ، فقالت له إنك ستعيشُ ،  
وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحري ونحري ، قال  
لا تصدق مالا يكون ياسيدتي ، فأنا عالم بدوائى ، وعالم  
بأنى لا أجدُ السبيلَ إليه ، قالت وما دواؤك ؟ قال حدثني  
طبيبي أن شفاى في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك  
يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدتُ وشحَبَ لونُها  
وأطرقت إطفرةً طويلة لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحبها  
نفسها فيها ثم رفعت رأسها وقالت كن مطمئنا فدواؤك

لا يعجزني ، ثم أمرته أن يعود إلى راحته وسكونه ، وخرجت من الغرفة متسللةً حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها ، فأخذت منها فأساً قاطعة ، ثم مشيت تحتلّس خطواتها اختلاسا حتى وصلت إلى غرفة المبيت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريحا مزعجا ، فجمدت في مكانها رعبا وخوفا ، ثم دارت بعينها حولها فلم تر شيئا ، فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تزوج من بعده ، ولم تكدهوى بها حتى رأت المبيت فأتحما عينيه ينظر إليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف والخادم واقفين يتضاحكان ففهمت كل شيء

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس في يدك ! أليست التي تجحف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ! فصارت تنظر إليه نظرا غريبا ، ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها

الضاد<sup>(١)</sup>

كان العربُ الاولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل ما يخطرُ ببالهم من المعاني ، ما يريدون من الالفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عربٌ مثلهم تجرى في عروقنا دماؤهم ، كما تجرى في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسَهَمْنَا في الضاد سَهْمُهُمْ ، وحقنا فيها حقهم ، فلم يضعون الالفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا ، وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا أوفرُ عدداً من مرافقهم ، وأوسع فصولاً وأنواعاً

أين باديئهم الخلاء المقفرةُ التي لا يَعْمُرُها الا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطنِ الابل ومرابضِ الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة ، الحافلة بصنوف الموجودات ؟



وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، وأكثرها  
مستحدث مستطرف لم تتداوله السنون والايام ، ولم  
تعصف به عواصفُ القرون والأعوام

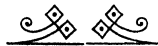
أليس من الظلم المبين ، والغبن الفاحش ، أن تضيق  
حاجاتهم عن لغتهم ، فيتفكها بوضع خمسمائة اسم للأسد،  
وأربعمائة للدهاية ، وثلاثمائة للسيف ، ومائتين للحية، وخمسين  
للناقة ، وتضيق لغتنا عن حاجتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة  
من آلاف الادوات التي يضمها المعمل الواحد اسماً عربياً  
واحداً ، اللهم إلا القليل التافه من أمثال المسبر والمبرد ،  
والمشمار والمسمار ؟

أيكون لسفينة البر وهي لا تحمل إلا الرجل أو  
الرجل ورديفه مائتا اسم لها ، ومئين من الاسماء لاعضاءها  
وأوصالها ، ورحلها وكورها ، ولا يكون لسفينة البحر وهي  
المدينة المتنقلة في الدأماء القليل من ذلك الحظ الكثير  
كان لعرب الجاهلية الاولى مؤتمر لغوى يعقدونه

في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم  
 وخطباؤهم ، يتناشدون ويتساجلون ، ويتحاورون  
 ويتطارحون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون  
 بينهم ، ويحكمون لمبرّزهم على مقصّرهم ، حكما لا يُردّ ولا  
 يعارض ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عند  
 ما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة  
 لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها ،  
 فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع  
 شتاتها والرجوع بها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات  
 وأقربها مأخذاً وأسهلها مساغاً وأحسنها بياناً

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على  
 مانعجز عنه نحن ، ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه ، لأن  
 تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغه  
 في عصرنا بين لغة الأدباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة  
 المتصوفين ولغة المترجمين ولغات العامة التي لا حصر لها

ان كان الجاهليون في حاجةٍ إلى مجتمعٍ لتوحيد اللغات  
 المتشعبة فنحن في حاجةٍ إلى مجتمعاتٍ كثيرة ، مجتمعٌ لجمع  
 المفرداتِ العربيةِ المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية  
 والمجازية في كتابٍ واحد يقع الاتفاق عليه والاجماعُ  
 على العمل به ومجتمعٌ دائمٌ لوضع أسماء للمسميات الحديثة  
 بطريق التعريب أو النحتِ أو الاشتقاق ، وآخرُ  
 للإشرافِ على الأساليب العربية المستعملة وتهذيبها  
 وتصفيها من المبتذل الساقط ، والمستغلق النافر ، والوقوف  
 بها عند الحد الملائم للعقول والأذهان ، وآخرُ للمفاضلة بين  
 الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرز منهم والمقتصر ،  
 إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ



## سياحة في كتاب

أعجب ما أعجب له من أمر نفسي أننى أحبُّ الجمالَ  
خيالا ، أكثرَ مما أحبه حقيقة ، فيعجبني وصفُ الروض ،  
أكثرَ مما يعجبني مرآه ، ولا أطربُ لمنظر الفتيات الجميلات ،  
طربى لمنظر القصائدِ الغزليات ، وأحب أن أقرأ وصفَ  
المدنِ الجميلة ، وما كتبه الكتاتون على قصورها  
ودُورها ، وسهولها وبطاحها ، وأنهارها وجداولها ،  
وميادينها وتماثيلها ، وأنديتها ومجامعها ، ولا يهمنى أن  
أراها ، كأنى أريدُ أن أستديمَ لنفسى تلك اللذة الخيالية ،  
وأخاف أن تحول الحقيقةُ بينى وبينها ، وأحسبُ أنى لو  
كنت عاشقا لأصبحتُ أضحوكة العاشقين ، وأعجوبة  
الهازئين والساخرين ، ولكان مثلى مثلَ ذلك الرجل  
الذى أحبَّ امرأةً فاستزادها فثانته حيناً ثم زارته ، فلما

رأها تركها وذهب لينام ، فعجبت لشأنه وسألته ماباله ،  
فقال لها أريد أن أنام على أرى طيفك في المنام

جاء يوم ثم النسيم فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال  
الجيش المدجج ، للملك المتوج ، ويرحبون به ترحيب  
العشاق ، بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، ويسمون له  
ابتسام الرياض الزاهرة ، للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في  
شأنه المذاهب كلها ، فمن صاعد إلى رؤوس الجبال ، وسارب  
في سهول الرمال ، وواقف موقف الإعجاب والاحلال ،  
بين جمال الأنوار ، وأنوار الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن  
الزهرات ؛ وحسن الفتيات ، لا يعلم أشبه القامات  
الغصون ، أم الغصون القامات

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب ، وما كان لي  
أن أذهب مذهبه ، لأنني لأعجب بما يعجبون ، ولا أهتف  
لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي أفتش عن ضالة خيال  
أجد فيها من السعادة والهناء ، ما يجده الهائمون بين ثفر

الحسناء ، وثغر الصهباء ، فلمحتُ بجاني كتابَ بلاغة الغرب وهو الكتابُ الذي ترجمه الأستاذ كامل حجاج ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية ، وزبدة ما جادت به قرائحُ كتابها وشعرائها ، فقلت حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيتُ الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد ماج بعضهم في بعض ، حتى ضاقت بهم رقعة الأرض ، ورأيتهم يمدون أعناقهم الى تلك النافذة وينظرون اليها نظر الفلكي الى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وانهم لكذلك إذ أطل عليهم نابليون الأول من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق ، يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس ، وملك روما كما يسميه أبوه ، فضج الناس لطلعه ضجيجاً ملاً مسمع الخافقين ،

وابتسموا لمرآه ابتساما أضاء ما بين المشرقين والمغربين ،  
وهنا سمعتُ الشاعر الكبير <sup>(١)</sup> يخاطبُ ذلك الملك العظيم  
بصوتٍ يشبهُ صوتَ البحر الزاخر قائلا له :

رُويَدًا أيها الرجلُ المغرورُ بالتاج والسرير ، والملكِ  
الكبير ، والجيش الخاضع ، والشعب الطائع ، أنت تقدر  
لطفلك فى مستقبل الأيام مُدكا كملكك ، ومجداً كمجدك ،  
وعزاً وسلطاناً كمعزك وسلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر  
الأيام من الحوادثِ العظام ، والخطوب الجسام ، فهل  
أخذتَ على الأيام عهداً لنفسك ، فتأخذَه لولدك ؟ وهل  
وثقت بما فى يدك ، فتثقَ بما فى يد غيرك ؟

أيها الملكُ المغرور : انك ستفارقُ عما قليل هذا القصرَ  
الكبير ، الى ذلك الكوخِ الحقيقير ، وسيحيط بك الجنْدُ  
فى منفاك إحاطةَ الاخضاع والاذلال ، لإحاحةِ الاعظام  
والاجلال ، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذى

هياته له ، بل محروماً بضعة أشبار من تربة فرنسا يضطجع  
فيها ضجعة الموت

أيها الملكُ المغرور : لا تقل إن المستقبل لي ، فأنما  
المستقبلُ لله

تركتُ هذا الموقفَ الفخمَ الجليل وقد امتلأت نفسي  
عبرةً بمصائر الأيام ، ومصارع الكرام وتقلبات الدهر  
ما بين رفع وخفض ، وإبرامٍ وتقض ، ومشيتُ حتى وصلت  
إلى برية جرداء ، ودوية قفراء ، لا يطرُقها إنسان ، ولا يدب  
بها حيوان ، فامحتُ على البعدر جلايمشي على بعض الشواطئ  
فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب  
ماؤها في أحشائها ديب الصبياء ، في الأعضاء ، ويمكن  
في صدرها كون الأسرار ، في صدور الاقدار

فما هي إلا بضعة خطوات حتى وقع نظري على رجل  
مسكين قد غاصت قدماه في الرمل ، فحاول نزعهما فغاص إلى  
ركبتيه ، فتحلحل ، فغاص إلى صدره ، وما زال يساعدُ



على نفسه بنفسه ، ويهبط شبراً كلما حاول أن يرتفع فتراً ،  
حتى لم يبق منه على ظهر الأرض غيرَ فمٍ يصرخ بالنداء ،  
وعينٍ تذرِف بالبكاء ، ثم مالبتا أن غطاهما الرمل فرفع يديه  
بالدعاء ، فلم يجد من رحمةٍ في الارض ولا في السماء

وقفت أمام هذا المشهد المؤثرِ المحزن وقفةً أرسلتُ  
فيها بضع قطراتٍ من الدمع على هذا البائس المسكين ،  
وقلت في نفسي إنني قد عجزت عن اسعاده في نكبته ،  
ومعونته في شدته ، فلا أقلُّ من أن أسعده بقليل من  
الأسف على مصيره المحزنِ الأليم

ثم فارقتهُ ومشيتُ حتى بلغت منزلَ الشاعر لمارتين ،  
فرايته جالساً في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير  
كلبه المقعِي على عتبة بابهِ فسمعتهُ يخاطبه ويقول له .

أيها الكلبُ الأمين: قد هجرني الناسُ وبقيتَ بجاني ،  
وخانني الأصدقاء ووفيتَ لي ، فأنت في نظري أوفى الأوفياء ،  
وأصدق الأصدقاء ، ولولا أنك كريمُ الأخلاق متواضعٌ

تأبى إلا أن تعرف لسيديك منزلته من السيادة عليك ،  
 وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة اليك ، لأ كبرت  
 جلستك هذه عند عتبة الباب ، ولا جلستك بجانبى  
 على فراشى ، لأنك صديق ومؤنس ، ولأنك أحق  
 بالأكرام من كثير من أولئك الذين يفترشون الطنافس ،  
 ويتمسدون الوسائد ، وحسبى منك هذه النظرات التى  
 تلقىها على يهدوء وسكون ، كأنك تقرأ بهافى صفحة وجهى ،  
 ما غاب عنك من دخيلة أمرى ، وكأننى أسمعك تقول  
 ما باله ؟ وما شأنه ؟ وما الذى يبكيه ؟ ليتنى أعرف دخيلة  
 أمره ، وليتنى أستطيع أن أكون فداؤه ، فحسبى منك ذلك ،  
 وهل يطمع الإنسان أن يجد من أوفى أصدقائه أكثر مما  
 أجده فى لفتاتك ، وألمحه فى نظراتك

سمعتُ لامارتينَ يناجى قلبه بهذا النجاء الرقيق  
 فتسللتُ وذهبت لشأنى ، وأنا أقول فى نفسى إذا كان

لامارتينُ وهو أشعرُ شاعرٍ في فرنسا ، وفرنسا مهبطُ وحي الشعرِ ، لم يجد له صديقاً وفيّاً غيرَ كلبه المقي على عتبة غرفته ، فأين يذهبُ سائرُ الشعراء ، ومتى يجدون الاصدقاء

تركتُ منزلَ لامارتين وذهبتُ الى منزل «دى موسيه» فرأيتُه معزلاً في غرفة من غرف منزله يبكي بكاء مرأً، ويزفر زفيراً شديداً تكاد تنقطعُ له أحشاؤه ، فقلتُ ليت شعري ما أبكاه ؟ وما الذي دهاه ؟ فسمعتُه يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخَ جده وهو اشر حاكمٍ وثرأ مؤلماً حتى كان يخيل الى أن كلَّ بيتٍ من أبياتها جذوةُ نارٍ ملتهبة ، وسمعتُه يشكو فيها من خيانة حبيبته ( جورج صاند ) ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهداً و ذمامها ، فلا يجد الى ذلك سبيلاً ، وما هو الا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه ، وشخص بصره ، واضطرب اضطرابَ الاغصان اليابسة ، بين أيدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيانَ المحموم ، ويخلطُ في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمتُ أن الرجل قد جن ، وأن العالم الشعري

قد فُجِعَ فيه الى الابد ، فمضيتُ لسبيلي ، وأنا أسأل الله العافية ،  
وأقول إن جمال المرأة أحقرُ من أن يقتلَ أو فرَع عقلٍ ، وأعجزُ  
من أن يطفئُ أكبر قريحة :

ولكنها الافدارُ تجري بحكمها

علينا وأمرُ الغيبِ سرٌّ محجب

تركْتُ منزلَ دى موسيه ومشيتُ في شارع من شوارع  
باريسَ فرأيتُ شيخاً رثَّ الثيابَ زرى الهَيْئَةَ يمشي مَشِيَّةً  
هادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعلاً بالية ، قد أطلتْ أصابعه  
من خروقتها ، كما تطل الحياتُ من أجحارها ، فأتبعته نظري ،  
فرأيتُه لا يرفع طرفه سكوناً وإطراقاً ، ولا يكاد يحرك عُضْواً  
من أعضائه رزانة ووقاراً ، فقلت في نفسي إن لهذا الرجل شأنًا ،  
فمشيتُ وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكاف ،  
فلم يجد صاحبَ الحانوت في مكانه ، فجلس على الأرض  
ينتظره حتى يعودَ فيخصف له نعله ، فسألتُ بعض المارة  
عنه فقال هذا ( كورنى ) شاعر فرنسا ، فأخذتني الدهشة ،

وما لكني العجبُ ، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي ، وقلتُ  
 في نفسي : وبيح لكم معشرَ الناس ، أأُتْضَنُونَ بقطعةٍ من الجلد  
 الاسمر ، على رجل يقلدُ أعناقكم الدرَّ والجوهر ، أعجزتم  
 عن أن تُجمعوا أمركم على أن تمسحوا هذه الغضونَ عن  
 تلك الجبهة التي تجودُ عليكم كلَّ يوم بما يفرجُ كربتكم ،  
 ويخففُ محتكم ، ثم رجعت أدراجي ، وأنا أقول كان  
 قضاء حتما على الدهر ألا ينيلَ هؤلاء الأدياء من دهرهم  
 ما يريدون ، ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون

ان في جلسة لامارتين منفرداً في منزله لامؤنس له  
 غير كلبه ، وفي عُزلةٍ دى موسيه في غرفته بين دموعه  
 وأحزانه ، وفي جلسة كورنى أمام حانوت الاسكاف  
 ينتظرُ ترفيع نعله ، لآية المتفكرين ، وعبرة للمعتبرين  
 الآن عدتُ من سياحتي في ذلك الكتاب أشكر  
 للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم ، وأقول من لى في كل  
 يوم بسياحةٍ مثل هذه السياحة ، في كتابٍ مثل هذا الكتاب

## دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي ، وإمام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع ، ماسكبنا ، ثم كفكفنا من تلك الدموع ، وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : إن في الباقي عزاءً عن الفاني ، وإن في الأبناء ، خلفاً من الآباء ، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد ، لم يُبعث من مرقده بعد ما قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه ، فتساءلنا أين الباقي الذين يزعمون ، والخلف الذي يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الأدبية ، لا السياسة ، وأرباب الأقلام العربية ، لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجي لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما ، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير ؟ ؟

ما مات منهم أحد ، وانما كانت حياة ذينك الرجلين ،  
حياة الصناعتين ، وكان لوجودهما سرٌّ من الأسرار ينبعثُ  
في الألسنة فيطلقها ، والأقلام فيجريها ، وكانت منزلتهما  
من الأحياء منزلة الأم من مصاييح الكهرباء ، تشتعلُ  
المصاييحُ بتيارها ، وتضىُّ بأسرارها ، فاذا فرغت مادتها ،  
وانتضى أجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصاييحُ  
كما هي ، جسمٌ بلا رُوح ، ولفظ بلا معنى

أما شوقي فقد طار في جوٍّ غير هذا الجو ، وهام  
في واد غير ذلك الوادي ، وما زالت تعبثُ به الانواء ،  
حتى أغرقته في شبر من الماء ، وأما حافظٌ فقد انقضت حياته  
النثرية قبل انقضاء البؤساء<sup>(١)</sup> أما حياته الشعرية فلم يبق  
منها غيرُ نظم المقالات السياسية من العام إلى العام ، وأين  
هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود  
الأجوف الرنان الذي كنا نسمعُ منه مختلفَ الألحان ،

(١) هو كتاب لفيكتور هيغو الشاعر الفرنسي ترجمه حافظ ابراهيم ترجمة  
فصيحة ولم يشته

وأفانين الأشجان ، وأما البكرى والمويلحى فقد قضيا حقّ  
التأليف هذا بصهاريجه <sup>(١)</sup> وذلك بفتراته <sup>(٢)</sup> ثم لحقاً بالسابقين ،  
ومضياً على أثر الماضين :

أين سكانك لا أين لهم  
أحجازاً أوطنوها أم شأما  
أين الروضة الغناء التي كنا تنفياً ظلالها ، ونهصرُ  
أغصانها ، ونقطف ماشئنا من ورودها ورياحينها ؛ وأين  
البلابل التي كانت تنقل بين أشجارها فتطرب بالاغاريد ،  
وتستهوى بالاناشيد :

فأسألنها واجعل بكاء حوايا نجد الدمع سائلا ومجيبا  
أنا لا أعجب لشيء عجبى لهؤلاء الأدباء ، يحزنون ، فلا  
يكون ، ويطربون ، فلا يضحكون ، ويتألمون بلا أنين ،  
ويعشقون بغير حنين

أيطرب البلبل فيغرد ، ويشجى الحمام فينوح ، ويطرب

(١) هو كتاب صهاريج الأولؤلؤ للسيد البكرى (٢) هو كتاب فترة من  
الزمن المسمى عيسى بن هشام لمحمد المويلحى



الشاعرُ ، ويشجى الكاتبُ ، فلا ينطق لسانُهُما ولا يهتز قلمُهُما ؟  
لما أَسْنَّ عمرُ بنُ ربيعة ورأى أن شعرَ الغزلِ والتصابي  
غيرَ لائقٍ بشيبه ووقاره عزم على هجره فاستطاع إلى ذلك  
سبيلا ، وُغلبَ على أمره كما يُغلبُ المرء على غرائزه وسجاياه ،  
فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتًا من الشعر إلا أعتق  
رقبةً ، فشكا إليه رجلٌ حبا برح به ، فحن واهتاج ونظم أبيتًا  
في شأن الرجل ووَجْدِهِ ، ثم أعتق عن كل بيتٍ رقة

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمرُ بنُ أبي ربيعة ، وهم في شرح  
الشباب وإبان الفتوة ، ان كانوا فعلوا ذلك فأسأل الله لهم  
قِصَّةَ كقصَّة عمرَ تهيجُ أشجانَهُم ، فتحنتُ أيمانَهُم ،  
والامةُ كفيلةٌ لهم بوفاء النذور ، وكفارة الأيمان

ودُو الشوقِ القديم وإن تعزى

مَشُوقٌ حين يلقى العاشقينَا

تم الجزء الثاني من النظرات

ويليه الجزء الثالث

﴿ فهرس الجزء الثانى من النظرات ﴾

| صحيفة                  | صحيفة               |
|------------------------|---------------------|
| ١٨٣ الاوصياء           | ٣٠ البيان           |
| ١٩٥ العام الجديد       | ١٤ السريرة          |
| ٢٠٢ سحر البيان         | ١٩ زيد وعمرو        |
| ٢١٩ الكبرياء           | ٢٥ أبو الشمقمق      |
| ٢٢٥ الانتحار           | ٣٢ دورة الفلك       |
| ٢٣٠ الحياة الشعرية     | ٣٦ تأبين فولتير     |
| ٢٣٥ رباعيات الخيام     | ٥٧ العلماء والجهلاء |
| ٢٤٢ الى تولستوى        | ٦٢ الرجل والمرأة    |
| ٢٥٢ وارحمته            | ٧٠ الدعوة           |
| ٢٥٩ خطبة الحرب         | ٧٦ الحياة الذاتية   |
| ٢٦٥ الانسانية العامة   | ٨٥ المعبرات         |
| ٢٧٢ أدوار الشعر العربى | ٩١ دمة على الاسلام  |
| ٢٧٦ حوانيت الاعراض     | ١٠١ السياسة         |
| ٢٨٢ الرثاء             | ١٠٥ خداع العناوين   |
| ٢٩٦ الشعر              | ١١٥ الاغراق         |
| ٣١٢ الشهيدتان          | ١٢٠ اللقيطة         |
| ٣١٩ الدماء             | ١٣٢ الصندوق         |
| ٣٢٦ الكوخ والقصر       | ١٣٧ الغناء العربى   |
| ٣٣٠ على سرير الموت     | ١٥١ التوبة          |
| ٣٤٣ غدر المرأة         | ١٦٣ الحسد           |
| ٣٥١ الضاد              | ١٦٧ طلوفاء          |
| ٣٥٥ سياحة فى كتاب      | ١٧٣ خبايا الروايا   |
| ٣٦٥ دمة على الادب      | ١٧٧ القمار          |









